أوراق

حرية التعبير دون قيد او شرط

مايو 2025

العدد: الثالث والعشرون

هرب الأسد ! وبقي علينا بناء دولة المواطنة

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

تصدر عن رابطة الكتّاب السوريين

رابطة الكتّاب السوريين
SYRIAN WRITERS ASSOCIATION
حرية الفكر، حرية التعبير

رابطة الكتّاب السوريين
SYRIAN WRITERS ASSOCIATION
حرية الفكر، حرية التعبير

أوراق
حرية التعبير دون قيد او شرط

العدد: الثالث والعشرون

مايو ٢٠٢٥

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

صادرة عن: رابطة الكتاب السوريين

www.syrianwa.net

رئيس التحرير: أنور بدر

مدير التحرير: محمد زعل السلوم

المدير الفني: حسين الضاهر

هيئة التحرير

ناهد بدوي - سوزان خواتمي
أحمد خميس - عبد الناصر حسو
حسين جرود

الهيئة الاستشارية

أمل فارس - خطيب بدلة
زويا بوستان - سلام كواكبي
عبد الرحمن مطر - فرج بيرقدار
موفق نيربية - وائل السواح

المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة أوراق على البريد الإلكتروني:

awraq@syrianwa.net

صفحة الرابطة في موقع فيس بوك:

www.facebook.com/syrian-writers-association

فهرس العدد

افتتاحية العدد	أنور بدر (رئيس التحرير)	7
أوراق الملف		
مخاطر تفكيك الدول الهشة متعددة المكونات	د. عبدالله تركماني	12
السويداء: ما قبل ٢٠٢٤/١٢/٨ وأسئلة الحاضر والحوار الوطني	د. جمال الشوفي	18
فلاسفة سوريون، وثورة سورية	موفق نيربية	27
الشموليات العربية وخرائبها اللغوية	د. جهاد نعيسة	36
دمشق بين زمنين من الاستبداد إلى الحرية	محمد الصارم	39
أوراق الشعر		
الساحل	علي شمس الدين	44
الصقر جاثماً (تيد هيوز)	تقديم وترجمة: نعيمة عبد الجود	46
رحيل ماريو فارغاس يوسا	مضر حمكو	48
مات العصفور	مضر حمكو	50
اسم الماء	حسين جرود	63
بوابة الزمن	نارمان حسن	66

أوراق القصة		
سينما مصرية	فدوى العبود	70
حزن برائحة واخزة	روعة سنبل	74
عربة غرفة التحقيق	موسى الزعيم	76
ضباب	عماد كوسا	82
أوراق النقد		
"اسمي زيزفون" للروائية سوسن جميل حسن	أنور بدر	86
رواية "لالين" مسألة الهُويّة والتّنوع	صبري رسول	94
قراءة أدبية سريعة في رواية أوراق برلين	خالد نعمة	102
مع ألبرتو مانغويل وجها لوجه في مهرجان تورنتو للأدب العالمي	جاكلين سلام	109
رواية "صيد العصاري"... الحب وخيبة الصيد في حلب القرن التاسع عشر	ميشيل سيروب	115
مباحث علم الصرف وعلم الصواتة عند العرب والغربيين	ياسين الخلطي	119
ملف تكريم الروائي والناقد السوري نبيل سليمان		139
فتح منافذ الاستنشاق	عبده خال	140
نبيل سليمان إذ يعيش الحياة	علي المقري	142

نبيل سليمان، الروائي ناقداً	د. نزار شقرون	144
نبيل سليمان و "تاريخ العيون المطفأة"	توفيق سخان	147
نبيل سليمان يتألق في ثمانينه	دعد ديب	152
أوراق الحوار		
عبد اللّه الفاضل من السجن إلى الحرية مسيرة حياة تبحث عن المعنى والهدف دائماً	تقديم وحوار عبير خديجة	158
أوراق الترجمة		
المقدسات والثورات: جوانب من عقيدة الربيع العربي "السلفية والطوباوية والجنسانية"	ترجمة: إبراهيم محمود	170
ملحق أوراق		
قواعد النشر في مجلة أوراق		184

افتتاحية العدد

هرب الأسد! وبقي علينا بناء دولة المواطنة

أنور بدر
رئيس التحرير

هذه الطموحات لن تتحقق دون ردم الهوة مع الماضي البغيض لإرث الديكتاتورية الأسدية، وأول خطوة في هذا الطريق تبدأ من "العدالة الانتقالية"، وضرورة إنشاء ألية خاصة بالحالة السورية ووضع سياسات فعالة لملاحقة وعقاب كل المجرمين والقتلة الذين استباحوا الدم السوري.

التغيير الذي حصل في سوريا لم ولن يكون حدثا عابرا بالنسبة لسوريا وللسوريين مهما اختلفت أو تباينت آراؤهم ومعتقداتهم، بل سيكون هو حدث مؤسس لما بعده بالتأكيد، وتحديدا بعدما قطع مع "الأبد الأسدي"، الذي حوّل سوريا من وطن إلى مزرعة ألحقت بآل الأسد لتصبح سوريا الأسد، وتورّث بصفتها ملكية خاصة من جملة ممتلكاتهم المنهوبة، عبر عقود من الاستبداد التي سبقت ٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٤.

ففي ذلك التاريخ انكسرت حلقة "إلى الأبد" التي صنعتها تلك العائلة، فسقط الصنم ونظامه وهرب الوريث وسلالته، دون قتال حقيقي أو معارك عسكرية، حتى أنّ العالم أجمع يتساءل أين ملايين أعضاء حزب البعث الحاكم ومعهم قائمة ليست قليلة من أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية؟!

بل كيف تلاشى جيش النظام الذي صمد لأربعة عشر عاما من الحرب ضد شعبه فدمّر وفتّت الوطن الموكل بحمايته؟! وكيف تبخرت معه كل الميليشيات المحلية والمستوردة من لبنان والعراق وإيران وأفغانستان، وتطول القائمة بمسمّيات وانتماءات تتبع كلها بشكل أو بآخر لإدارة وتمويل وإشراف الحرس الثوري الإيراني؟!

يُعلّمنا التاريخ أن هذا هو مصير كل أنظمة الاستبداد الشمولي التي تنهار دفعة واحدة كأحجار الدومينو، هكذا انهار الاتحاد السوفيتي السابق وغيره من الإمبراطوريات الأيديولوجية والشمولية، حيث تَفضح آلية سقوطها هشاشة تلك البنى وزيف ادعاءات القوة وكذب الشعارات التي تملأ الفضاء العام، فحزب البعث الذي رفع شعار "وحدة *حرية * اشتراكية"، هو ذاته الذي ساهم بتمزيق الجغرافيا السورية باسم الوحدة العربية...

وقمع الشعب السوري وسلب كل حقوقه باسم الحرية، ونهب ثروات البلاد وأفقر السوريين باسم الاشتراكية، وفي المحصلة استبدل آل الأسد الدولة بالسلطة الأمنية المستبدة وغرقت الدولة في مستنقع الهشاشة، وعند أول فرصة سانحة هرب الأسد الصغير وعائلته بكل ما استطاعوا نهبه من أموال السوريين، فتبخر الجيش وأجهزة الأمن، كما تبخرت الميليشيا الطائفية بكل مسمياتها، لتتأكد مقولة أنه مهما طال الزمن فالاستبداد زائل والشعب وحده الباقي.

أهمية انكسار "الأبد الأسدي" أنه فتح المستقبل أمام سوريا الجديدة، التي ضحّى السوريون كثيرا من أجل ولادتها، قبل انتفاضة/ ثورة آذار ٢٠١١، وخلالها، تضحيات من أجل الحرية والكرامة وبناء دولة المواطنة والقانون، تضحيات ترافقت بالكثير من الآلام والخيبات والخسائر أمام تعنت الطاغية الأسد الصغير، والذي أمعن في إذلال السوريين وتدمير عمرانهم وعلاقاتهم الاجتماعية طيلة ١٤ عاماً، مما خلّف لنا بلدا مُمزقا وشعبا مُفقرا وكارثة ملايين السوريات والسوريين الذين قُتلوا أو غُيّبوا في سجون الاستبداد أو هُجّروا من ديارهم كنازحين بعيدا عن بيوتهم وأملاكهم أو كلاجئين في أصقاع العالم، دون أن ننسى الخراب الأخلاقي وتعميم الفساد في شتى المستويات الاقتصادية والادارية والقانونية.

لذلك من الطبيعي أن تحمل هذه الولادة الجديدة الكثير من إرث السنوات العجاف للاستبداد البعثي، وليس من باب التبرير، بل من باب ربط النتائج بأسبابها، وهو إرث لم يقتصر على الإفقار والتهميش والتميّز والقتل والتشريد والتطييف فقط، بل طال منظومة القيم والأخلاق وتشكّل مظلوميات عدة، وانتماءات متباينة لهويات صغرى أو كبرى دخلت كلها بصراع مع الهوية الوطنية لسوريا، حتى أصبحنا سوريات عدة وشعوبا متباينة، وهذا جَعلَ أي تغيير في سوريا شبه مستحيل بخسائر أقل ممّا شهدناه حتى الآن، دون أن تكون تلك الخسائر مبررة أخلاقيا وإنسانيا وقانونيا، خاصة وأن هنالك أطراف دولية وإقليمية وصراعات مستمرة على صعيد المنطقة ككل ونحن في القلب منها تأثرا وتأثيرا.

وربما يدفع هذ أهل الانتفاضة/ الثورة التي انطلقت في آذار ٢٠١١ أو بعضهم، للشعور بتهشّم الأحلام التي عاشوها وانكسار الآمال التي توقّعوها بالنسبة لسوريا المستقبل كدولة ديمقراطية تبنى على الحريات وحقوق المواطنة المتساوية، وهو شعور حُمِّل على كل ما عانوه وما ضحّوا به خلال ١٤ عاماً.

وإذ نتشارك مع أغلب السوريين هذه المشاعر، إلا أننا نؤكّد أولا أنّ ما نحصده الآن من أخطاء ومظلوميّات شتى هو نتاج ما زرعه نظام البعث عبر عقود الاستبداد السابقة، حين أباح الجغرافيا السورية أمام داعميه للاستثمار في أرضها وثرواتها وفي سكانها وعقائدها تخريبا وتتطيفا.

وثانيا أنه لا توجد في التاريخ ثورة أو تغيير ناجز في لحظة دحر النظام السابق، ولنا في الثورة الفرنسة الأشهر في التاريخ دروس في التحولات المتعددة والأطوار التي مرّت بها، لتنتهي إلى مقولة "أنّ الثورة تأكل أبناءها".

لذلك أكّدنا منذ بدايات التغيير في سوريا، ضرورة أن نسارع جميعا كسوريين للمساهمة به وبرسم مساراته، باتجاه دولة المواطنة والقانون مهما بدا الطريق صعبا وشاقا، ومهما كان تأثيرنا قليلا، فهي خطوة تمتلك مشروعيتها وأهميتها الآن وحتى تحقيق أهدافها، طالما أن السوريين امتلكوا هوامش التعبير عن مخاوفهم، وهي ميّزة حُرِمنا منها في زمن الطغيان الأسدي، كذلك امتلكوا هوامش التنظيم واستعادة الحقل العام السياسي والمدني بشقيه الاجتماعي والنقابي، بعد عقود من احتكار سلطة البعث للمجال العام، باعتباره عنوان استبدادها الذي لخّصه الأسد الأب ضمن معادلة "الراعي والرعية"، وهي معادلة لا تنتج مواطنين، ولا تنتج شعبا، لذلك مَضتْ أعمارنا طيلة تلك الحقبة ونحن مجرد أفراد في قطيع الرعية الذي يَسوسه الراعي بعصا الديكتاتورية الغليظة، وبَقينا كأفراد سوريين خارج التاريخ وخارج المواطنة، والآن علينا استعادة الحقل العام في بلدنا بالمعنى السياسي والاجتماعي كي نعيد انتاج أنفسنا ككتلة تاريخية بصيغة الشعب، ولنصبح مواطنين في دولة القانون والمساواة.

هذه الطموحات لن تتحقق دون ردم الهوة مع الماضي البغيض لإرث الديكتاتورية الأسدية، وأول خطوة في هذا الطريق تبدأ من "العدالة الانتقالية"، وضرورة إنشاء ألية خاصة بالحالة السورية ووضع سياسات فعالة لملاحقة وعقاب كل المجرمين والقتلة الذين استباحوا الدم السوري، كي نحمي البلد والسوريين من فكرة الانتقام والثأر البدوي، فللدولة وصايتها على الجميع، وهذا يُسهم بالحفاظ على استقرار المجتمع وعلى حدة بلدنا وحريته وكرامته.

ولا يجب الاكتفاء بوضع مسارات للعدالة الانتقالية في مجتمع متنوع كسوريا، بل لابُدّ من وضع آليات موازية لإدارة التنوع المجتمعي بدلالاته المتعددة، التعدد الثقافي والقومي والعرقي والديني والطائفي، والتي تتسع مساحتها في بعض الدول لتشمل المهاجرين والملونين والتفرقة على أساس الجنس أو السن أو الإعاقة، وربما تكون سوريا وبلدان المشرق العربي عموما، من أغنى دول العالم بالتعددية في شتى المجالات السابقة، مع الإشارة إلى أن أنواع التعدد القومي والعرقي واللغوي والديني وحتى الطائفي ليست حكرا على سوريا أو مجتمعاتنا العربية فقط، فالطوائف ظاهرة تاريخية موجودة في أغلب المجتمعات وداخل كل الأديان السماوية، وكذلك الإثنيات نجدها في كل المجتمعات تقريبا، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية في هذا الحقل أن هذا التنوع قد يشكل أداة لتدمير المجتمعات، في حال لم تهتم أنظمة الحكم بإدارته بشكل جيد، لكنه يُمكن أن يكون أداة غنى وتطور في حال أديرت بشكل يبتغي المستقبل الأفضل، بدل البقاء في قبو الماضي المظلم، فالإدارة الناجحة للتنوع المجتمعي تساعد على جني ثمار التنوع الإيجابية أسوة بالديمقراطيات الحديثة،

التي نجحت بتحويل التعددية من سياق الصراع والتنابذ إلى آليات إغناء للمجتمع ككل، في المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. مع التأكيد أنّ تلك الإدارة هي مسؤولية سلطة الدولة، وهي السلطة السورية في حالتنا العيانية، لكنّها لن تحرز النجاح دون تعاون المجتمع المدني معها للسير باتجاه مشروع دولة المواطنة المتساوية والديمقراطية، التي تؤكد حيادية الدولة تجاه عقائد وانتماءات مواطنيها.

وقد باشرنا في رابطة الكتاب السوريين مع العديد من منظمات المجتمع المدني والنقابات المهنية والروابط الثقافية العمل في سوريا منذ بدء التغيير، وندعو كل منظمات المجتمع المدني والنقابات والأحزاب، إلى احتلال موقعها الطبيعي والمستقل عن السلطة السياسية والحكومة، لتمارس دورها الرقابي ودورها التنموي في هذه المرحلة الانتقالية باتجاه إنتاج مجتمع حر ونظام ديمقراطي تكون فيه الدولة على مسافة واحدة من الجميع.

أوراق الملف

انكسار الأبد واستعادة روح الثورة والتغيير في سوريا

الدكتور عبدالله تركماني

مخاطر تفكك الدول الهشة متعددة المكوّنات

أدى تآكل الثقة في بعض الدول الهشة إلى تفكك مجتمعاتها على أساس الهويات التقليدية ما قبل الوطنية، وكان من المرجح أن يؤدي هذا التآكل إلى ديناميات متنافسة من الاستقطاب السياسي، وبالتالي إلى تفكك مجتمعات هذه الدول، وصولاً إلى الحروب الأهلية.

تلاقي إشكالية الحروب الأهلية جدلاً واسعاً في المجتمعات المعاصرة، خاصة في الدول الهشة جنوب العالم، التي توصف بأنها متأخرة عن حضارة العصر، خاصة في ظل ما حملته الأفكار والمعلومات والصور والقيم، القادمة مع المفرزات السلبية للعولمة من إمكانية تفجّر مخاطر الهويات الفرعية والمظلوميات التاريخية، حيث تنبعث العصبيات القبلية والطائفية والمذهبية والقومية، وتزداد الرغبة في البحث عن الجذور وحماية الخصوصيات ما قبل الوطنية في هذه الدول، بما ينطوي على مخاطر عديدة.

وعليه، فإني سأحاول إلقاء الضوء على الحالة السورية التي تفجّر الصراع فيها منذ أربعة عشر عاماً عندما طالب الشعب السوري بالحرية والكرامة، والبحث عن أفضل المسالك لتجنّب الحرب الأهلية، التي شهدنا أحد مظاهرها مؤخراً في الساحل السوري، من خلال إجراءات وقائية، تتمثل في الاستجابة للمتطلبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمواطنين.

خاصة بعد أن كشفت أعوام الثورة استعداداً كامناً في بنية المجتمع السوري لسرديات متباينة بين الاتجاهين الجهادي والديمقراطي، مما أدى إلى انفجار الأحقاد الطائفية والإثنية، والتحالفات التي أمست مكوّناً عضوياً من مكوّناتها، والعجز عن إنكار ظاهرة الإجرام واللصوصية والانتهازية، التي إن كانت طبيعية لدى نظام الاستبداد فهي لا تتلاءم مع ما هو مأمول بعد التغيير في ٨ كانون الأول/ديسمبر. إذ إنّ التنظيمات المتطرفة استطاعت تقديم منتج سياسي أيديولوجي قادر على التحقق النسبي في شكل الخلافة الإسلامية، وعلى الانسجام مع الحقل التداولي المشترك من دون عوائق، مستفيداً في الوقت نفسه من مؤازرة السياق الذي يلعب فيه التوتر الطائفي الدور الأبرز.

إشكالية الهوية في زمن الحروب الأهلية

أدى تآكل الثقة في بعض الدول الهشة إلى تفكك مجتمعاتها على أساس الهويات التقليدية ما قبل الوطنية، وكان من المرجح أن يؤدي هذا التآكل إلى ديناميات متنافسة من الاستقطاب السياسي، وبالتالي إلى تفكك مجتمعات هذه الدول، وصولاً إلى الحروب الأهلية. بالرغم من أنّ الطبيعة المرنة للهوية تخالف ادعاءات التعصّب، السياسية والدينية والقومية، وعمليات التحنيط، التي تجري على الهوية، وتجعلها دوغمائيات بأطر مقدسة مغلقة، تخالف حقيقة حرية الإرادة، وتجعل من الآخر عدوّاً، بما يؤجج الصراعات الدينية والقومية. وفي حالة الدولة والمجتمع يمكن للتعصّب أن يكون سبباً في تفككهما، فعندما تكون " الهوية الدينية " عاملاً وحيداً للتماسك الاجتماعي، لاسيما في المجتمعات المتعددة المكوّنات الدينية، كما هو الحال في سورية، فإنها تصبح مورد التعبئة والتحشيد العام الوحيد لأصحاب مشروعات الهوية المغلقة. بحيث تصبح المرجعية الدينية عامل توترات في المجتمع، إذ عندما يقود التطلّع إلى التفاعل مع الآخرين باسم العلاقة مع المقدس، أي بحكم قيمة سلبي مسبق ضد هذا الآخر، يفضي ذلك إلى استبعاد أولئك الذين لا ينتمون إلى المجموعة واستثنائهم بل تهميشهم، لأنهم لا يحملون هوية مماثلة.

إنّ الحروب الأهلية على أرضية الهويات تحمل في طياتها أخطاراً للمجتمعات والدول، لذلك فإنّ اللبوس الهوياتي إذا لم يتم التخفيف من حدته ومحاصرته سيزيد من حدة التعصب وينتج أنماطاً أخرى من التطرف، مما قد يجعل مستقبلنا تحت وقع التهديد بحرب "الكل ضد الكل". الأمر يحتاج إلى صياغة نموذج خطابي لمشترك إنساني يستوعب التعددية والاختلاف، بحيث يتلاشى معه الانغلاق والتقوقع على الذات.

في أهمية بناء الدولة الحديثة للحد من إمكانية تفكك المجتمع

تتميز الدولة الحديثة اليوم بقرن الحريات الفردية بالتكوين الجديد للمجتمعات والدول، بعد أن ترافق فتح الأسواق والاتصالات مع الاتساع في تأسيس منظمات مجتمعية متنوعة حرة. مما فرض ضمان الحقوق والحريات والهويات والفرص لكل الجماعات المكوّنة للمجتمع، بدون الحاجة للاستيعاب القسري، من خلال مشاركة الجميع في صياغة السياسات العامة التي تمس حياة

المواطنين، أي صيغة إدارة تقوم على قاعدة تشاركية عريضة، تحتوي داخلها كل المكوّنات المجتمعية، التي يحظى كل مكوّن منها بنصيب في المشاركة بالإدارة، بالطبع استناداً إلى الكفاءة والقدرات وليس إلى المحاصصات المعطِّلة للجدوى. وذلك انطلاقاً من أنّ الدولة الحديثة هي الإطار السياسي الذي يستطيع الإنسان، من خلاله، تنظيم حياته وشؤونه.

لقد لاحظ عزمي بشارة أنّ "حالة الارتداد عن الحداثة إلى مؤسسات المجتمع التقليدية، خارج الدولة، لا تنتج أنظمة حكم، بل مراحل انتقالية نحو تفسُّخ الدولة[1]. وفي كل الأحوال، من المهم أن تؤدي مبادئ وقيم الحداثة السياسية، الديمقراطية والعلمانية والعقلانية، إلى الهوية الوطنية الجامعة، بما تخلقه من إجراءات الثقة بين المكوّنات الاجتماعية المختلفة، إضافة إلى التخلّي عن هوس الهوية الفرعية/الأهلية.

مخاطر تفكك الدولة السورية وكيفيات معالجتها

إنّ تشكّل الوطن السوري، خلال التاريخ المعاصر، عرف صراعاً كبيراً على تحديد هويته. حيث أخذ هذا الصراع، في بعديه الاجتماعي والسياسي، تعريف الهوية إلى خارج النطاق الجغرافي والقيَّمي المشترك للسوريين. وهذا يساعدنا على فهم أسباب ضعف الهوية الوطنية السورية، وعودة الهويات الفرعية/الأهلية لتكون الرابط الأساسي، في فكر وممارسة نسبة كبيرة من الشعب السوري، وقد ظهر ذلك جلياً في الساحل السوري مؤخراً. مما يشير إلى تعثّر مشروع الدولة الوطنية الحديثة، إضافة إلى الانهيار في أنساق المجتمع السوري، حيث الانقسام الهوياتي، الأهلي والمدني، يتفاقم بشكل عميق. إذ أدت الهويات الأهلية، ما قبل الوطنية الجامعة، إلى انزلاق سورية إلى حرب أهلية، تنطوي على مخاطر تفكك المجتمع والدولة.

ولا شكَّ أنّ حالة الوطنية السورية، الموصوفة أعلاه، رسّخها نظام الاستبداد طوال خمسة عقود، من خلال صهر جميع أفراد المجتمع السوري في بوتقة واحدة، وإعادة تشكيلها على أساس الولاء المطلق للوطن المختزَل برمز سلطة الاستبداد "سورية الأسد أو لا أحد". إذ لم يسعَ إلى تأسيس الوطنية السورية الجامعة لكل مكوّناتها، بل تهميش وإقصاء بعضها عن النظام السياسي ومشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية، مما أدى إلى تراكم سلبي ونكوصي لها عن الوعي الوطني الجمعي، وبالتالي بروز المظلوميات التاريخية، بعد أن فشل في إدارة اختلاف مكوّنات المجتمع السوري، خاصة من زاوية مخاطر عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين المدن والأرياف، وظهرت عدة مناطق مهمشة.

لقد شهدت انطلاقة الحراك الشعبي في عام ٢٠١١ بداية خطاب وطني سوري جامع، ولكنّ تحوّل الحراك إلى العسكرة والأسلمة المتطرفة أظهر عمق ترسّخ الانتماءات العابرة للوطن السوري.

---

[1] عزمي بشارة، **في المسألة العربية** (مقدمة لبيان ديمقراطي عربي)، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت، ط٢ ٢٠١٠، ص ٦٨.

خاصة بعد الاستقواء بإيران وميليشياتها اللبنانية والعراقية والأفغانية والباكستانية، والتدخل العسكري الروسي، من قبل النظام. وكذلك الحركات " الجهادية الإسلامية" التي جاءت إلى سورية من كل حدب وصوب، بتسهيلات من عدة دول عربية وإقليمية.

كما ساهم التوظيف السياسي للدين في التشويش على الانتماء الوطني الجامع، العابر للانتماءات الدينية والمذهبية، والخلط بين الديني والوطني. خاصة في ظل الهشاشة الهيكلية للدولة السورية، وعدم قدرة النخب السياسية المتعاقبة على بناء سياسات للتكامل الوطني حول الهوية الجامعة العابرة للمكوّنات الفرعية/الأهلية. مما أدى إلى بروز الهويات الفرعية المختلفة.

بعد ١٤ سنة من الثورة السورية والتي كانت جامعة لكل أطياف الشعب السوري، يجد المراقبون للساحة السورية من الساحل إلى جنوب سورية وشرقها أن ما يحصل من تطورات وأحداث أمنية يرفع صوت الإنذار والخوف من انزلاق البلاد باتجاه الفتنة الطائفية. خاصة بعد أن اعتمد مجلس الأمن الدولي بياناً رئاسياً "يدين بشدة أعمال العنف واسعة النطاق المرتكبة في محافظتي اللاذقية وطرطوس بسورية منذ ٦ مارس/آذار الحالي، والتي شملت عملياتِ قتل جماعي لمدنيين، ولا سيما في صفوف الطائفة العلوية".

وأكد كذلك "أهمية مكافحة الإرهاب في سورية ويُعرب عن قلقه البالغ إزاء التهديد الشديد الذي يُشكّله المقاتلون الإرهابيون الأجانب". وحث سورية على "اتخاذ تدابير حاسمة للتصدي للتهديد الذي يشكّله المقاتلون الإرهابيون الأجانب، ويؤكد التزامات سورية بموجب قرارات مجلس الأمن ذات الصلة المتعلقة بمكافحة الإرهاب".

ودعا إلى "تنفيذ عمليةٍ سياسية شاملة للجميع يقودها السوريون ويمتلكون زمامها، وتيسرها الأمم المتحدة، وتستند على المبادئ الرئيسية الوارد بيانها في القرار ٢٢٥٤ ويشمل ذلك حماية حقوق جميع السوريين، بغض النظر عن الانتماء العرقي والديانة. وينبغي أن تلبي هذه العملية السياسية التطلعات المشروعة لكل السوريين وأن تحميهم جميعاً وتمكّنهم من تقرير مستقبلهم على نحو سلمي ومستقل وديمقراطي".

ومن المؤكد أنّ إنكار انقسام السوريين وتشظي مجتمعهم، بعد أربعة عشر عاماً من الثورة، لا يساعد على التعاطي المجدي مع المشكلة، إذ إننا لم نتعرف بعد على الهوية الوطنية السورية الجامعة، وإنما إلى هوياتنا الفرعية ما دون الوطنية، أو ما فوق الوطنية.

وهنا تبرز أهمية تعزيز الانتماء الإيجابي، الإرادي والحر والمعاصر، لكل مكوّنات الشعب السوري، على أنها عوامل تنوّع وغنى. مما يقتضي وضع حدٍّ للانتماء السلبي الإكراهي، في ظل التوصيفات العددية (الأكثرية والأقلية)، وكذلك إنهاء وصاية البعض على الآخر تحت أي مسمى (قومي أو ديني). ويكمن الحل في التصالح مع التاريخ، وقبول الواقع الديمغرافي كنتيجة تاريخية

عبرت الزمن وأخذت صورتها الحالية، إضافة إلى إقامة نظام ديمقراطي تعددي وشراكة سياسية حقيقية، ووضع حدٍّ للاستعلاء القومي والديني.

إذ إنّ العمل على صياغة الإجماع السياسي أهم من اختلاق وهم الإجماع الثقافي، الذي يستحيل قيامه مهما حاولت المجتمعات مسايرته أو الخضوع له، فالفرد قد يتماهى – ظاهرياً – مع من يفرض عليه وصاية ثقافية، ولكن لا يعني ذلك قبوله بها أو حدوث تغيير في اعتقاده وقناعاته. فالإجماع السياسي الواقعي، المبني على المصالح المشتركة قابل للوجود والديمومة، بينما الاجماع الثقافي المبني على الوهم قابل للتمزق عند أضيق المنعطفات، ولكنّ الإجماع السياسي لديه المرونة على تجاوز المنعطفات الكبيرة والخطيرة. إذ إنّ الحداثة السياسية "جاءت بالدولة الوطنية الحديثة بوصفها الوحدة الاجتماعية التي توحّد الناس بواسطة روابط مدنية، قائمة على الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية للمواطنة[٢].

إنّ دولة المواطنين السوريين، المتساوين في الحقوق والواجبات، هي الأقدر على احتضان حقيقي لتعدد المكوّنات الاجتماعية، لأنها دولة جامعة ترعى الاختلاف، وهي ناظم لتطبيق القانون، من غير انغلاق أو احتكار. حيث لا يمكن الحديث عن هوية أغلبية وهوية أقلية، لاسيما إذا كان القصد التفوّق والأحقية، لأنّ ذلك سيعني وطن خارج إطاره الإنساني.

إنّ المواطنة تقوم على قاعدة المواطن/الفرد، وعليه فإنّ الفوات التاريخي للوطنية السورية يطرح علينا مهمة المساهمة في إعادة صياغة المفاهيم المرتبطة بالوطنية الجامعة (الهوية، المواطنة، المكوّنات، دولة الحق والقانون)، أي المساهمة في تجديد الثقافة السياسية لدى السوريين. خاصة أنّ مخاطر التفكك ستكون حاضرة بقوة خلال المرحلة الانتقالية، وإعادة البناء ومرحلة العدالة الانتقالية.

إنّ السعي إلى إحياء الهوية الوطنية السورية الجامعة لا ينطوي على إلغاء الهويات الفرعية، كي تكون قادرة على تلبية حاجات الاجتماع السياسي، أي إعادة بناء الدولة السورية الحديثة، باعتبار أنّ غياب هذه الهوية عامل أساسي في استفحال الكارثة السورية، خاصة تسهيل التفريط السياسي بالوطن السوري. مما يقتضي صياغة العلاقة بين مكوّنات الشعب السوري على أسس جديدة، تنبذ الطائفية والمذهبية والعصبيات المختلفة. وصياغة سورية الجديدة، سورية الوطن والمواطنة والتعدّد والتنوّع، على قاعدة الديمقراطية السياسية والاجتماعية. ومن المؤكد أنّ إعادة بناء الوطنية السورية الجامعة ليست أمراً يمكن إنجازه عبر إجراءات فوقية، وهي ملازمة للعملية السياسية التشاركية، ونتيجة متدرجة لها، ولكنها لا تُبنى على المحاصصات الطائفية من أي نوع، وإنما على أساس الكفاءة والولاء للدولة الوطنية.

---

[٢] ريتشارد مينش، **الأمة والمواطنة في عصر العولمة** (من روابط وهويات قومية إلى أخرى متحولة)، ترجمة: عباس عباس، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب – دمشق ٢٠١٠، ص ٧.

إنّ المسألة الهامة في سورية المستقبل هي كيفية اعتبار تعدد المكوّنات غنىً، ولكي تصبح كذلك لا بدَّ من توفّر عدة شروط من أجل الاندماج الوطني الإيجابي[٣]: الاعتراف والاحترام المتبادل بين كل المكوّنات، والحق المشروع لكل مكوّن في ممارسة ثقافته الخاصة دون أن تؤثر سلباً على ثقافة المكوّنات الأخرى، والتفاعل والتلاقح الثقافي المتبادل بدون محاولة فرض إحداها على الأخرى.

[٣] محمد منصور حسن سيف، **المواطنة والهوية في عالم متغيّر**، مكتبة الأنكلو مصرية – القاهرة ٢٠١٥، ص ٦٩ – ٧١.

د. جمال الشوفي

كاتب وباحث سوري، دكتوراه في الفيزياء النووية ومدرس جامعي سابق، عضو رابطة الكتاب السوريين.

السويداء: ما قبل 8/12/2024 وأسئلة الحاضر والحوار الوطني

توطئة:

منذ ١٧ اب ٢٠٢٣ وحتى غاية يوم ٨ كانون أول ٢٠٢٤، يوم سقوط استبداد نظام الحاكم العرفي لسوريا في دمشق، برزت مدينة السويداء كظاهرة سورية متميزة تتركز عليها الأنظار المحلية والعربية والدولية، من خلال تظاهراتها اليومية المتواصلة في ساحات الكرامة وعنوانها الأوضح: التغيير السياسي وسوريا لكل السوريين.

السويداء هي المدينة السورية الجنوبية ذات الغالبية العظمى من الأقليات السورية المعروفة بالموحدين "الدروز"، حملت مشعل الموجة الثورية السورية الثانية بتظاهرها السلمي والمدني اليومي، رغم حر الصيف وبرد الشتاء ومحاولات اجهاضها أو حرفها عن مسارها، لكنها استمرت دون كلل أو ملل، فكانت مشاركة محورية في سقوط نظام الطغمة الحاكمة في دمشق لعقود خلت.

تظاهرات السويداء السلمية الشعبية الواسعة حملت عناوين سورية متعددة، فهي:

سياسياً: استحقاق التغيير السياسي على المستوى الوطني العام وفقاً لمخرجات القرار الأممي ٢٠١٥/٢٢٥٤ القاضي بالدخول بمرحلة انتقالية سلمية سياسية تقودها حكومة وطنية مؤقتة.

محلياً: عرت ورقة النظام التي طالما استند إليها بادعائه زوراً حماية الأقليات.

عربياً: أتت هذه الموجة الثورية في مرحلة حساسة لنظام دمشق، إذ كانت جامعة الدول العربية قد بدأت بإعادة تطبيع علاقاتها معه بعد انقطاع دام منذ ٢٠١١، لتظهر السويداء رفض السوريون لهذا النظام سورياً وعربياً ودولياً.

معرفياً: الإنارة الثقافية والحضارية متمثلة بالتمسك بالسلمية ورفض الانجرار لمخططات العنف الذي حاولتها أجهزته الأمنية، وتصدر النساء والنخب المثقفة ساحات التظاهر متمسكين بالحرية والسلام والحق المدني السوري العام في المواطنة والحياة الكريمة.

وجودياً: مساواة السوريين جميعاً في الحقوق والحريات لا يفرق بينهم عرق ولا دين ولا جنس، تجمعهم دولة المواطنة والحق والقانون.

المميز في هذا المسار أنه لم يكن إعلان سياسي أو شعار نظري أو مؤتمر لا يمكن تنفيذ مخرجاته لتعنت النظام مقابلها، بل هو محتوى ومكنون مجتمعي يعبر عن مطالب السوريين جميعاً، وانعكاس لبيئة السويداء المدنية خاصة، وفهم عميق لمسار التحولات التي طالت الثورة السورية خلال أعوامها السابقة، وممارسة واقعية لمفاهيم الحرية والكرامة الإنسانية، وتشارك واسع بين كافة شرائح المجتمع محلياً وسورياً في استعادة دورهم في الحياة السياسية ونزع احتكارها من السلطة.

خصائص وسمات المجتمع المحلي في السويداء وحراكها السلمي:

من الهام بمكان القاء الضوء على البنية المجتمعية والأهلية للمجتمع في محافظة صغيرة كالسويداء معرفياً وحياتياً. تلك التي عبرت عنها الثقافة العامة السائدة في هذه الرقعة الجغرافية في سوريا، والتي بقيت معتم عليها طوال حكم نظام السلطة القائمة وغير معروفة للسوريين ولمحيطها العربي والإسلامي بشكل عام. ومع أن هذه الميزات والخصائص ليست استثناء سوري بقدر ما هي نموذج عام للحياة والثقافة لم تظهر بعد على الساحة العامة السورية بحكم تجاهلها ومنعها من الرواج بحكم نظام الحكم المستبد والمتغول على حياة السوريين أجمع، لكنها تركزت كثافتها بصيغة عمومية بهذه الرقعة الجغرافية رغم التهميش التي عانت منه السويداء. هذه السمات والخصائص المحلية يمكن الدلالة عليها بالمعطيات العامة لأبناء هذه الأقلية، فالسويداء:

- ذات تركيبة سكانية مدنية بعمومها، غالبية سكانها (بنسبة تزيد عن ٨٥٪) تدين للمذهب التوحيدي المعروف بـ"**الدروز**". وهو مذهب إسلامي معتدل دينياً يقبل مختلف أنماط التعدد الثقافي والديني، وأيضاً مذهب غير تبشيري لا يفرض تدينه وممارسة طقوسه على الآخرين وحتى على أبناء جلدته. ويتعايش سلمياً وحقوقياً مع بقية سكان المحافظة من المسيحين والمسلمين والعشائر العربية البدوية.
- الموحدون ذو منهج برهاني عقلي في قراءة النص الديني والأحداث الزمنية، **يحبّون** الكرم والعادات العربية الأخلاقية والتعايش السلمي مع محيطهم، و**يكرهون** الحرب إلا إذا فرضت عليهم، وهذه قيم إنسانية حقوقية عليا. تمثلت بموقفهم العام باستقبال النازحين السوريين من كل المدن السورية بأعداد هائلة معتبرينهم ضيوفاً كما هي عاداتهم الشعبية، ورفضهم الخوض في المعارك الدموية التي اجتاحت كامل الأرض السورية بعد عام ٢٠١٣ من خلال سحب أبنائهم من الخدمة الإلزامية بعشرات الآلاف، معلنين حرمة الدم السوري ورفض القتل كقيمة إنسانية عامة نصت عليها الأديان عامة، والشرائع الدولية لحقوق الإنسان. واليوم يطالبون بالتغيير السلمي للسلطة السياسية القائمة.
- السويداء محافظة قليلة العدد سكانياً (قرابة ٥٥٠ ألف حسب احصائيات ٢٠١٩ للسجلات المدنية)، وتعداد الأسرة الوسطي ٤ أفراد، مهتمون بالعلم والتعليم كرأس مال اجتماعي، وهي الخالية من الأمية حسب اعلان وزارة الثقافة السورية عام ٢٠٠٨.
- ذات النسبة الأعلى في البطالة، حيث بلغت ١٨,٣٪ عام ٢٠١٠ مقارنة بـ ٨,٤٪ بباقي سورية. وتكاد تخلو من المشاريع التنموية مع تهميش اقتصادي متعمد، ما يفسر نسبة الهجرة العالية بين شبابها لطلب العمل ومصادر الدخل. واليوم زادت نسب البطالة لما يقارب ٧٥٪، بحكم الثورة والحرب والملاحقات الأمنية لشبابها. مترافق مع تراجع حاد بالدخل وارتفاع الأسعار وانهيار بسعر صرف الليرة. ومع اعتماد غالبية أبنائها على دخل الوظائف الحكومية ما يعني الافقار شبه العمومي (راتب الموظف يعادل وسطياً ٢٠ دولار شهرياً، وهي دون خط الفقر العالمي بكثير والمحدد بـ ١,٩ دولار للفرد يومياً أي ٥٧ شهرياً).
- رغم حياد السويداء الإيجابي من المقتلة السورية، لكنها تعرضت للتطرف الداعشي عام ٢٠١٨ تصدت له أهلياً بمفردها مع شكوك واضحة حول دور النظام في ذلك. كما واُستثمر في عطالة بعض شبابها عن العمل في الترويج لتجارة المخدرات، ومع هذا قام المجتمع الأهلي بمحاربة هذه الظاهرة باجتثاث أخطر عصاباتها صيف عام ٢٠٢٢، وحرق مقراتها بعد اثبات تبعيتهم للأجهزة الأمنية والميليشيات الإيرانية وحزب الله. الظاهرة التي أوضحت جلياً رفض

السويداء الشعبي والثقافي للتطرف الديني والميليشاوي الإيراني ومنع الاستثمار في تهميش السويداء.

- من السمات الهامة للسويداء تبرز موضوعة جدلية في الثقافة السورية لم تحسم لليوم، وهي مثار جدل ثقافي قد يمتد زمناً، ألا وهي العَلمانية ونواتها الثقافية. حيث الفصل الواضح بين رجال الدين والمجتمع المدني في هذه المحافظة سمة عامة، ويمارس رجال الدين حياتهم بشكل مستقل عن العمل السياسي إلا في الحالات التي تتعرض لها هذه الأقلية للتهديد الوجودي، ما يتطلب موقفاً موحداً وتكامل الأدوار المحلية عامة، كما شخصها ابن خلدون في مقدمته (حين تنهار الأمم تلوذ الناس بالعصب). وهذا ما ظهر جلياً في سنوات الاستعصاء السوري العام وارتداداته على السويداء. ما أظهر موقفها الواضح بدعوة أبناء الوطن السوري جميعاً للعمل معاً على بناء دولتهم الوطنية بعيداً عن الاستبداد والفساد.

المفهوم الحديث للعَلمانية المتحققة حياتياً في عوالم الغرب المتقدم ورغم صعوبة الحوار المجتمعي السوري حوله يظهر سلوكياً في مظاهر ثقافية متعددة يمكن الإشارة لها في هذا السياق من جذروها التي بنيت عليها في منابعها الغربية. ففي كتابه "العصر العَلماني"، يعرف تشارلز تايلور العَلمانية بأنها "الانتقال من الترتيب الهرمي للروابط الشخصية إلى الترتيب غير الشخصي القائم على المساواة. الانتقال من عالم عمودي العلاقات عبر وسيط إلى مجتمعات الوصول الأفقي المباشر. فالكلّ على مسافة متساوية من المركز، ونحن على تماس مباشر مع الكل". وهذا التوزع الأفقي **للحقوق الايمانية المتوازية والحقوق المدنية والسياسية المتساوية** يختلف اختلافاً جذرياً عن الهيمنة السلطوية الشاقولية. ويتجاوز المقولة النظرية السائدة بأن العَلمانية هي فقط فصل الدين عن الدولة والسياسة وكفى. فعلى أهمية هذه الجملة، لكنها بذات الوقت لا تتيح المحتوى النقدي لمفهوم السلطة، ومن يمارسها وكيف يمارسها. فالتوزع الأفقي للحقوق العامة يجعل من نظام الحكم انعكاساً لبنية العلاقات الاجتماعية دون فوقية أو تعالي، ودون انكار لدين أو فكر أو حق مدني. فالكل متساوون أمام القانون، وكلٌ يعمل في مجاله لبناء المجتمع بعيداً عن اختزال العَلمانية الخاطئ معرفياً وسياسياً في محاربة الأديان وحسب.

العَلمانية وفقاً لهذا التحديد المفهومي وممارستها العملية، متوطنة في السويداء بخلاصتها العامة، فمحتواها الثقافي والحياتي يعترف بالتعدد الثقافي وممارسة الحرية في الإيمان والتدين دون أن تتعارض في ذلك مع المجتمع بقواه المدنية والسياسية والبشرية ودورها في البناء المجتمعي. وهنا من الضروري بآن توضيح أن العلمانية المفترضة بهذا النقاش هي سمة ثقافية للمجتمع وبناه العامة ولا يجب الخلط بينها وبين الدولة والتي يجب أن تكون دولة حيادية بلا صفات وهذا اختلاط سياسي عام بين العلمانية كثقافة مجتمعية تتحقق

تدريجياً بالحوار والتقدم العلمي، وبين الدولة كبنى مؤسساتية لإدارة شؤون الحكم دون تمييز عرقي أو ثقافي أو ديني او على أساس الجنس.

- انبعاث السويداء في حراكها السلمي ومكنونها الوطني والاجتماعي تقدم بثبات متابعاً مسيرة السوريين في استحقاقهم الوطني البادي منذ ٢٠١١. لتظهر **المدنية والسلمية** كأحد أهم خصائصها العامة، فنساؤها وشبابها يقدمون ابداعاتهم الفنية والفكرية والثقافية، يجاورون فيه المجتمع الأهلي والديني على أسس التكامل والمساواة الأفقية في الحقوق. الأمر الذي يتوجب إعادة التفكير مجدداً في معطيات هذه البنية السورية بمحتواها الاجتماعي القائم فعلياً، والذي قد ينتج عنه تغيّراً في العناوين السورية السياسية غير المتوافق عليها ليومنا. ويتيح مساحة واسعة للعمل الوطني والتوجه بثقة ناحية المدنية والمجتمع المدني المتوطنة اجتماعياً في السويداء كنموذج لسورية المستقبل، والعمل على إعادة إحياء قيم ثورة الحرية والكرامة الأولى. ليثبت الزمن أنها قابعة في الوجدان السوري العام رغم ما أصابه من كوارث ونكبات. **فالانفتاح والاستحقاق والجدارة** عناوين رئيسية في التحضر والتمدن تستهدف القدرة على الحياة بكرامة وسلام، وتستوجب العمل بطرق متكاملة فكرياً وسياسياً واجتماعياً تتجلى بالحوار الوطني العام واتساع أفقه وتجاوز معيقاته بلغة الكلمة لا لغة السلاح والعنف كما أرادها وسعى إليها النظام طوال سنوات الثورة السورية وكوارثها الجسام.

تباينات الفرضيات السورية ومآلها:

تأخرت السويداء! لو أنها قامت مع ثورة ال ٢٠١١/٢٠١٢ لحُسمت الثورة من وقتها! تساؤل وأمنية تحتمل الإجابات المتعددة بحجم الفرضيات التي تجيب عنها. في المقابل، لم تقدم السويداء خارطة طريق للحل الوطني في سورية! وإلا متى ستبقون في ساحات التظاهر؟ وهل الأغاني والاهازيج ستسقط النظام؟ ما هو مستقبل سورية؟ وكيف سيكون شكل الحكم فيها؟ وهذه أيضاً تساؤلات تتباين بين حدين واسعين، أولهما الإمكانية والمعادلة السورية، فيما ثانيهما قول جربنا قبلكم ولم تنجح سلميتنا ولن تنجحوا! اذاً، أين هي المعادلة التي علينا حلها؟

شهدت الساحة السورية طوال الأعوام السابقة العديد من فرضيات الحل فيها. منها وأبرزها الثورة السلمية مقابل الثورة العسكرية، الدولة المدنية و/أو الدولة العلمانية مقابل الدولة الدينية.... فيما عبر الشارع الثوري عن رغبته بإن مشاركة دمشق وحلب الصناعية والتجارية في التظاهر السلمي سيغير المعادلة السورية، كما ومشاركة السويداء كأقلية سيغير معادلة الثورة. وبعيداً عن عودة الجدل في هذه الفرضيات، والتي طالما نوقشت إمكانيات ومعطيات أي منها في دراسات سابقة (كتاب: المسألة السورية ومرايا الجيوبوليتيك الدولي، الصادر عن ليفنات- مصر

٢٠٢١)، والتي أفادت سياقات الحدث السوري بتعدد مراحل الثورة وانتقالها من السلمية للعسكرة، ومن ثم للتدخلات الإقليمية والدولية الواسعة، هذا إضافة لتمدد وتوسع مساحات الثورة سلمياً وعسكرياً، ولكن لم تأت أي منها بنتيجة تحسم المسألة السورية. وهذا ليس سوى مؤشر واضح على أهمية المعادلة السورية في المنطقة، والتي استدعت هذا الحجم الهائل لشتى صنوف التدخل في مساراتها، سياسياً وعسكرياً. وبالضرورة لم يكن من الممكن الحسم النهائي بأن فرضية بعينها خطأ أو صواب بالمطلق، بقدر القول عنها جميعاً أنها فرضيات لم تكتمل شروطها الموضوعية تماماً. فالسلمية رافعة هامة وأساسية في الثورات، ولكنها لم تتمكن من التغيير السياسي لمواجهتها بالعنف العسكري شديد الوطأة. والعسكرة أيضاً استدعت تدخلات إيرانية وروسية وقوى التحالف الدولي، وما رافقه من تنامي التطرف وحرب الميليشيات الطائفية التي خرجت بجُماعها عن سياق الثورة واسقاط النظام أو التغيير السياسي. كما أن دخول العاصمتين دمشق وحلب، ورغم ما شكلاه من ثقل في المعادلة الثورية، لكن كانت النتيجة عام ٢٠١٨ هو توقف الحل العسكري وعدم اكتمال المعادلة وقتها بعد تهجير معظم الداخل السوري. وبقيت المسألة السورية معلقة حتى تيسرت لها الشروط الموضوعية دولياً واقليمياً ومحلياً بإنهاء هذا النظام والدور الإيراني في المنطقة والدخول لدمشق بأقل التكاليف العسكرية والمدنية الممكنة.

الأسئلة السورية المتباينة هذه افصحت عن نفسها وتكامل شروطها العامة واعتلال الفرضيات السابقة بقدرتها عن الإجابة القطعية، لكنها اتضحت جلياً في ليلة ٢٠٢٤/١٢/٨:

- اكتمال المعادلة الدولية والإقليمية على انهاء ورقة النظام السوري ودوره الوظيفي في المنطقة ورفع الحماية التي كانت يتلظى بها منذ ٢٠١٣ اقليمياً و٢٠١٥ دولياً.
- جاهزية السوريين داخلياً للدخول إلى دمشق عسكرياً ومدنياً وإدارياً وملئ الفراغ الذي تركه النظام المنهار فجاءة. تمثل ذلك عسكرياً بدخول فصائل هيئة تحرير الشام من الشمال السوري قابلها دخول فصائل درعا والسويداء من الجنوب السوري إلى دمشق وانهيار مرتكزات النظام السوري عسكرياً وأمنياً بشكل كامل، وإدارياً باتخاذ قرارات جريئة بانتقال حكومة الإنقاذ من إدلب للعمل كحكومة تصريف أعمال مؤقتة في كامل الجغرافية السورية.
- سوريا دولة لكل السوريين هي معادلة التظاهر السلمي الذي خاضته السويداء في سنوات الثورة الأخيرة هي المعادلة التي يبحث عنها كل السوريون في مستقبلهم. تجلى هذا في المساهمة في وضع أسس بناء الدولة السورية الناشئة بعيداً عن التفرد في الحكم وضرورة مشاركة الكلية السورية في هذه المعادلة.
- الحوار الوطني السوري والذي انفتحت بواباته الواسعة في عديد ورشات الحوار المحلية التي استضافتها السويداء بانفتاح واتساع، والتي توجت بمؤتمر الحوار الوطني الذي دعا

للدخول في المرحلة الانتقالية سياسياً ودستورياً والعدالة الانتقالية، وجميعها ترجمة جلية للهم السوري العام وخلاصة تظاهراتها السلمية.

- مواجهة تحديات المرحلة الحالية من الفوضى وتثبيت الأمن والأمان وعودة الضابطة العدلية وسيادة القانون تتطلب المزيد من المسؤولية والتشاركية والتفاهمات المحلية واستبعاد الأجندات الخارجية التي تريد الاستثمار في ضعف وهشاشة الدولة السورية الناشئة، ما يضع السوريين جميعاً أمام أسئلة الاستحقاق والجدارة والفعالية.
- فيما أن الجدل المستمر حول مستقبل الدولة السورية وصفاتها، لليوم كان ولازال محط خلاف واسع محمول على جملة من التوجهات الأيديولوجية والمحمولة على الرغبات والأماني، متجاوزة فكرة التعاقد الوطني وكيفية الوصول لها خلال المرحلة الانتقالية بالمبدأ وانتخاب هيئة تأسيسية لصياغة دستور سوري لجمهوريتنا الثالثة يحسم الجدل في مواضع الخلاف السياسية ويذهب للتوافق الوطني العام تعاقدياً.

في العودة لمعادلة السويداء، تأخرتم! وتأخرتم سؤال يبدو اشكالي في ذاته، فبعضه أمانٍ لاستعجال الحل السوري كما كان حول دمشق وحلب، ولكن في موقع آخر سؤال القنوط والتهكم! لكن السويداء لم تتأخر عن المشاركة في الثورة السورية، بل شاركت فيها ولكن وفق رؤيتها الخاصة وبفاعلية هامة هو تحريم القتل والقتل المضاد. أما وإن شارعها الشعبي لم يتظاهر بشكل واسع ضد النظام إلا في لصيف ٢٠٢٣، فهذا الوصف هو تقطيع في الأوصال السورية، وعدم القدرة على رؤية مشهد المسألة السورية من كامل جوانبها، واختزالها في طائفية الثورة وحسب، وهو قول يجافي حقيقة أنها ثورة لكل السوريين. فالثورة السورية ولكونها مفصل رئيسي في معادلة الربيع العربي، وكيفية استقرارها والشكل الذي يمكن أن تصل إليه، سيغير وجه المنطقة برمتها. أضف لكونها ثورة جذرية تعددت مساراتها ولم تقتصر على السياسية والعسكرية منها وفقط، بل اجتاحت البنى المجتمعية كافة، وخاضت في معترك متعدد المستويات سواء على مستوى السلطة السياسية والسلطات الدينية والأهلية والأبوية، واتسعت لمساحات الجدال الفكري والثقافي، والذي سبق ووصفته بكتاب "التحولات الكبرى والمسار الشاق" الصادر عن ميسلون صيف ٢٠٢٣. وبالضرورة كانت ولم تزل المسألة السورية معادلة محلية وإقليمية ودولية متراكبة عنوانها الأبرز اليوم: الاستقرار والسلام والاعتدال.

استقرار سوريا والمنطقة برمتها، والسلام ودفع محفزات الحرب والاقتتال الذي أدى لكارثة سورية كبرى ومثلها إقليمية جسيمة، والاعتدال يعني الحكم دون غلو أو تشدد سياسي أو أيديولوجي أو ديني أو مذهبي، وهي معادلة وعنوان ساحة الكرامة في السويداء المتتالي يومياً: دولة الكل الاجتماعي، دولة الحق والقانون، دولة لكل السوريين.

خاتمة: الحول الوطني وأسئلة السويداء:

المعادلة التي تحاول الاكتمال اليوم سياسياً واجتماعياً وثقافياً والدخول في المرحلة الانتقالية فعلياً. اذ تمر سوريا اليوم بمرحلة حرجة وحساسة ومؤشرات الخطر فيها كبيرة أهمهما:

- الشروخ العامودية التي خلفتها سنوات الاقتتال الدامي والتي نتج عنها التشنج الطائفي ومسببه الأساسي النظام السابق والتطرف الدخيل على البنية المجتمعية السورية، الامر الذي يتطلب تطبيق العدالة الانتقالية ومحاسبة رموز النظام السابق وتقديمهم للعدالة.
- المشكلات الأمنية والخدمية والاقتصادية التي تعاني منها سوريا الناشئة كنتيجة لتركة النظام السابق بعد سلبه ونهبه مجمل مقدرات الشعب السوري، الامر الذي يتطلب تشكيل حكومة انتقالية قادرة على التعامل مع هذه الملفات بحرفية ومهنية، وتستجيب لمتطلبات المجتمع الدولي والعربي في الاعتدال والتوازن وتحقيق العدالة لرفع العقوبات عن سوريا كمقدمة لإعادة إعمار.
- التمايزات السياسية والمجتمعية التي لم تتحقق بعد فيها مفهوم المواطنة والمساواة بين جميع السوريين من حيث الحقوق والحريات بكافة أشكالها، ما يتطلب اعلان دستوري واضح المعالم يفيد المرحلة الانتقالية ويؤسس لدولة لكل السوريين. وليس فقط، بل انتخاب هيئة تأسيسية لصياغة الدستور الدائم للبلاد خلال مدة محددة تنتهي بنهايته المرحلة الانتقالية والدعوة لانتخابات تشريعية عامة.

تبدو سوريا اليوم حالة تشتت وفوضى عامة وهي نتيجة طبيعية لارتدادات الثورات في التاريخ، وتبدو مشاركة السويداء فيها في هذا السياق مشاركة يفترض بها الفاعلية والمبادرة. فمبادئ التظاهر السلمي الذي عاشتها قبل سقوط النظام هي مبادئ سورية عامة يطلبها الشعب السوري. ما يتوجب عليها وعلى جميع السوريين الحوار الجاد والبناء حول معظم الإشكاليات والتحديات التي تواجه المرحلة الحالية وأهمهما:

- الانفتاح بالحوار الوطني حول حرية التدين والإيمان دون فرض أو إكراه أو تكفير وألا تشكيل ضرراً على المجتمع، وهذه مسألة دستورية واجبة.
- قبول الاختلاف والتنوع واحترام الآخر بذاته، وهذا ضرورة ثقافية وعصرية عامة وقيمة معرفية وجدت بمعظم ثقافات العالم الحي الدينية منها والزمنية، وحديثاً أسست للديموقراطية والتعددية في بناء الدولة والاستقرار.
- المساهمة في عمليات البناء المجتمعي والسياسي والدستوري بالحوار المنتج والابتعاد عن الغلو في الطروحات المتعلقة بالشرعية الثورية لأي طرف من الأطراف.

- حسم خيارات الهوية الوطنية وكبح لجام التدخلات الخارجية في الشأن الداخلي السوري، مع التأكيد على العمق العربي في بناء سوريا واستقرارها، وهذه مسؤولية وطنية عامة بلا استثناء.
- تحتاج مفاهيم كالأكثرية والأقلية لتغيير فحواها ومضمونها والانتقال بها من سمات المجتمعات الأهلية، ما قبل دولة، على أساس العرق والطائفة، إلى سمات سياسية تترجم انتخابياً وبشكل ديمقراطي. وهذه مسؤولية النخب السورية والمجتمع المدني الناشئ في توطينها تدريجياً مع الزمن.
- الاستفادة من تجربة السويداء الثورية بالتكامل بين الشرائح الشعبية بتعددها والنخب الفكرية والسياسية والقيم المجتمعية العامة كرافعة قيمية تدين الفتل والعنف والتمسك بالسلمية والحوار ونفي أي احتمال لعودة العنف أو احتمال اللجوء لحل العوائق السورية بلغة السلاح كما فعل النظام السابق.

السويداء جزء من رئيسي لا يتجزأ من سوريا ومن المعادلة السورية، لم تزل لدليها مخاوفها التاريخية سواء من السلطة السابقة او من التطرف الديني العام، لكنها منفتحة على الحوار والتوافق الوطني العام. وتملك رصيداً وطنياً وعمقاً عربياً تاريخياً واسعاً، عليها أن تستثمره في المعادلة السورية الحالية والمساهمة في عملية بناء مؤسسات الدولة من جديد، سواء القضائية أو القانونية أو الدستورية والمؤسسات التي تحفظ أمن المواطن كالشرطة والضابطة العدلية. فيما أن تلك المشاريع التي تطل بين الفينة والأخرى المتعلقة مرة بالانفصال أو بالإدارة الذاتية وتتجاوزها للفيدرالية فهي مشاريع قصيرة النظر سياسياً ومادياً وليس لها حاضنة اجتماعية أو وطنية، لكن التركيز الإعلامي عليها وتروجيها من جهات خارجية تجد لها بعض حوامل محلية يظهرها وكأنها عمومية، فيما أن المحتوى العام والتاريخ والسياقات الحالية تظهر خلاف هذا كلياً. وتتبدى مشكلة سوريا التاريخية لليوم هو نظام الحكم وتجربة الاستبداد المريرة والكارثية هي التي تجعل المخاوف تزداد سورياً ومنها في السويداء والأقليات الأهلية بعموم سوريا. اذ لم تزل هذه النقطة مثار جدل سوري واسع لا يقتصر على السويداء وحسب بل هاجس سوري عام وطني يمكن الإجابة عليه بالحوار والحوار الوطني العام. وخلاصته المتوقعة والمنتظرة سوريا دولة لكل السوريين.

موفق نيربية

سياسي وكاتب سوري، رئيس المنتدى الأوروبي السوري الديمقراطي

فلاسفة سوريون، وثورة سورية

تجسّدت العلاقة المتوتّرة ما بين الفكر والممارسة في الجلسة الأولى، مع ما طرحته في البداية الروائية سمر يزبك حول انعدام الجدوى في هذه المؤتمرات واللقاءات بكلّ الخطب والتثاقف فيها، "بحيث اتّسعت الفجوة بين النخبة المثقفة والواقع الميداني، الذي يتجسّد فيه من "فعل ثوري وفاعل ثائر".

عن الثقافة في العامين الأوّلين للثورة السورية:

لم تأت تلك الثورة من فراغ وضياع في الحقل الفكري، فقد أسّس ربيع دمشق لها، إذ كان "شبابه" هم الذين قَدحوا زناد الثورة في آذار ٢٠١١ ونظموا مسارها في البدايات. في حين كانت الإنتلجنسيا السورية هي التي قامت بذلك الربيع، الذي يمكن أن يجد أيّ باحث فيه شعارات وتطلّعات الثورات العربية بعد عقد كامل من بدايته. قال ذلك صادق جلال العظم في إحدى مقابلاته في أوائل أيار ٢٠١٣ على قناة فرانس ٢٤، بعد انتخابه رئيساً في "رابطة الكتّاب السوريين" في مؤتمرها الأول بالقاهرة، قبل ذلك بثمانية أشهر؛ ليس تحيّة لعطائه الفكري وحسب، وإنّما احتفاءً برؤيته الحارّة للثورة السورية.

قال صادق إن ذلك الربيع كان "بروفة أوّلية للثورة على مستوى نظري"، وتم قمعه يومها لأن النظام أدرك ذلك. كما قال شيئاً لافتاً- في هذه الأيام خصوصاً- هو أننا "لو حققنا ٥٠٪ فقط ممّا نطلبه الآن، سوف تُنجز سوريا قفزة كبيرة إلى الأمام، حيث "نكون قد عدنا بسوريا إلى سابق عهدها".

قَارن صادق بين الاستبداد والاحتلال، وقال إن ما يجري يومها هو عمل جيش احتلال يستخدم السلاح الكيماوي ضدّ شعبه. لذلك كان السوريون عندما يقارنون بين سلطتهم وإسرائيل، يرون حالهم أسوأ من حال أخوتهم الفلسطينيين.

أضاف إنّ ما ينشره القوميون "نشازٌ" في أيام الثورة، وتوقّف عند موقف جزء من اليسار السوري، بنى موقفه على تطوّرات ما بعد الحرب الباردة، وعلى "علمانية" النظام، بالمقارنة مع إسلامية الثوّار التي تتزايد.

حول تلك الإسلامية الزائدة، قال صادق إنه مفهوم أن التديّن "العفوي والتلقائي" الذي نعرفه يصبح "إسلام توتّر عالي في حالة الأزمة العميقة". لكنّنا سنرى أنه "عندما تنتهي الحفلة، ستعود سوريا إلى ذلك الإسلام الذي نعرفه"... (نقول "آمين" في هذه الأيام).

كان صادق قد حضر معنا في باريس قبل تلك المقابلة ببضعة أيام " الملتقى الفكري السوري"، الذي دعا إليه مثقّفان بارزان من جبل العرب هما يحيى القضماني وسميح شقير، وانعقد في يومي ٢٠ و٢١ من شهر نيسان ٢٠١٣، تحت ضغط تزايد عسكرة الثورة على حساب سلميّتها الأولى.

كان ذلك الملتقى على أربع جلسات ناقشت رسمياً "واقع الثورة وتحدّياتها"، وتحاول عملياً تفكيك مظاهر أزمتها قبل استفحالها. وكانت الجلسة الأولى حول تحولات الفكر والممارسة من الثورة السلمية إلى الثورة المسلحة؛ والثانية حول مستقبل المجتمع السياسي السوري: بين المواطنة المتساوية والمحاصصة الطائفية؛ والثالثة حول الثورة السورية في الصراعات العالمية: الرهانات والتفاعلات الرسمية والشعبية؛ وتم تخصيص الرابعة للنقاش العام.

تجسّدت العلاقة المتوتّرة ما بين الفكر والممارسة في الجلسة الأولى، مع ما طرحته في البداية الروائية سمر يزبك حول انعدام الجدوى في هذه المؤتمرات واللقاءات بكلّ الخطب والتثاقف" فيها، بحيث اتّسعت الفجوة بين النخبة المثقفة والواقع الميداني، الذي يتجسّد فيه من "فعل ثوري وفاعل ثائر". بعد ذلك مباشرة عبّرت هالا محمد بعد تأييدها لما ذكرته سمر، وعن ضرورة الخروج من أسر الخطابية والأنانية والعبارات الجاهزة، التي تزدهر في مثل هذه اللقاءات بشكل مثير ومستفزّ. ثم تتالت المداخلات التي تؤيّد ما ذهبت المتداخلتان إليه، أو تقول إن في ذلك خروجاً عن عنوان الجلسة وموضوعها إلى مجالات الإغاثة التي تحتاج إلى مؤتمر خاص ومختلف. رغم ذلك كانت الجلسة الأولى هزّة أوليّة للحضور استرعت انتباههم ويقظتهم، لإبقاء الاهتمام بالواقع قويّاً، وعدم الاستغراق بالتجريد.

كانت مداخلة ميشيل كيلو أساسية في الجلسة الثانية، حيث قال: "لن أتكلم عن دولة المواطنة أو المحاصصة، ليست الموضوعات التي سنناقشها هي الأهم" ..."الدولة السورية القادمة ستعيش كل مآسي النظام، ولن تكون الدولة المدنية ممكنة التحقيق على المدى المنظور، هناك أحزاب وقوى سياسية لا تشبه الثورة، والنظام لن يسمح بولادة قوى سياسية تعبر عن مآلات واشتغالات الثورة" ولذلك فإنه من الضروري "أن يكون الرهان على الناس الذين يشبهوننا، فنتقاطع معهم من أجل أهداف الحرية والعدالة والكرامة التي تؤسس الدولة المدنية الحلم"، وطرح من ثمّ مشروعه قائلاً:

"نحن بصدد دعوة كل الشخصيات والقوى السياسية لمؤتمر في القاهرة، لكي يتمكن الجسم الديمقراطي من فرض حضوره على الأرض، وانتخاب مكتب تنفيذي له وآليات إعلامية. ونحن لن نؤجل هذه الخطوة المفروض انعقادها منذ أمد بعيد". وكان بتأكيده على رفض تأجيل خطوته يردّ على البعض- من أمثالي- ممّن يطالبه بالدراسة الأفضل، وبتوسيع مروحة التحضير لمثل تلك الخطوة وتوسيع مروحتها منعاً للانقسام أو الإقصاء وما في حكم ذلك.

ثم كانت المداخلة الأولى في الجلسة الثالثة لصادق جلال العظم، وطرح فيها أنواع الخطاب الذي تُواجَه به الثورة السورية. وكانت في محاججة القائلين بتعقيد الثورة السورية وتوجّها نحو التحوّل إلى حرب أهلية، رافضاً تلك التصنيفات؛ والمتمسّكين بشعار "حماية الأقليات" الذي فيه إجحاف بحق "الأكثرية التي يجري إظهارها وكأنّها تنتظر فرصة سانحة للانقضاض على الأقلّيات"، أمّا النوع الثالث فهو المتمسّك بمهاجمة "عسكرة" الثورة، متجاهلاً قيام الثورة السلمية وإصرارها في البداية حتى على المظاهر الفنّية والكوميدية، حتّى ووجهت بالسلاح وتعاظمت أعداد الضحايا مما جعل المقاومة بالسلاح لازمة وطبيعية. وقد انتشر ذلك على الجغرافيا السورية بمقدار ما انتشرت الثورة السلمية نفسها" مما أدّى إلى شلّ قدرة آلة حرب النظام على إخماد الثورة.

الفلاسفة السوريون كانوا هناك:

كان للراحل رياض الترك تعبير رمزي بالغ الدقة برأيي وكرّرته أكثر من مرّة، حول أهمية التقاط "النغم"، الذي كان يعني لديه التقاط جوهر الخط السياسي في لحظة تاريخية ما؛ كما الأمر مع التقاط "المقام" من قبل من يريد الدخول والمشاركة في الأداء والغناء أو العزف؛ ومن ثمّ الاشتغال على هذا النغم وضمن إيقاعه الصحيح ووفق متطلبّاته، حتى لو كانت مبهمة إلى هذا الحدّ أو ذاك.

لقد ساعدنا الياس مرقص وياسين الحافظ (ومعهما- أو قبلهما- المغربي عبدالله العروي) على التقاط ذلك النغم بعد "حرب الأيام الستة"، وأسمّيها كذلك بشكل مقصود.

مرّ الاثنان على الشيوعية من خلال الحزبيّة في مطلع وعيهما الفكري/ السياسي، ثمّ ذهبا باتّجاه الفكر القومي العربي، بعدّتهما الماركسية. كانت القوميّة ماديّتهما الخاصة على الأرض في تلك البدايات. كان مرقص أكثر "فلسفةً" بسبب دراسته في الغرب ولغاته الأجنبية، في حين كان الحافظ أكثر "اجتماعاً" بسبب اندماجه على الأرض وسيرته الشخصية التي عايشت العشائرية - نظام القرابة- والتقليد والتأخّر، مع التراكب الطائفي/ القومي الخاص لكونه أمه من الأرمن الذين تشرّدوا في الأرض والبادية بعد كارثتهم في أواخر العصر العثماني.

انشغل الياس مرقص طويلاً في نقد الماركسية السوفييتية وأحوال الشيوعيين العرب، لكنّه انغمس بعمق ونقديّة عميقة في مسائل التحديث. وكانت ذروة مساهماته حين اشترك في ندوة الباردو في تونس، ثمّ أصدر آراءه فيها في كتابه الهام والحيوي" نقد العقلانية العربية" الذي رأيت فيه- وما زلت أرى – مدرسة عملية للعقل العربي والسوريّ خصوصاً. استشهدت أكثر من مرّة بما

قاله حين بحث في مقولة "المجتمع الاشتراكي": أعطوني المجتمع وخذوا الاشتراكية! كان يدرّسنا أن ليس من اشتراكية ما لم يكن هنالك مجتمع واجتماع بمعناهما الحديث الذي بدأته ثورات أواخر القرن الثامن عشر.

بعد موت توأم روحه وفكره ياسين الحافظ بعقد كامل، استطاع الياس مرقص أن يوحّد معه، ويعكس تلك الوحدة بأفضل الأشكال، قبيل وفاته شخصياً بدوره.

ويتذكّر حسام الدين درويش، طالب الفلسفة في جامعة دمشق في النصف الثاني من التسعينات، حين كان صادق جلال العظم وبديع الكسم يدرّسانه وزملاءه الفلسفةَ الغربية والمنطق؛ كيف أن مخبراً- أو مخبرة- من بين الطلاب قد رفع تقريراً أمنياً لمرؤسيه يتضمّن وشاية تعترض على قيام الكسم بتدريس النصوص المذكورة (مع العلم أنها كانت من أغنى النصوص الفلسفية التي درسناها ومن "أكثرها فلسفيةً". وأذكر أنّ الكسم بدا حزيناً وغاضباً ومحبطاً حين معرفته بذلك "التقرير الكيدي". وكما هو متوقعٌ ممن سمي بـ"الفيلسوف الصامت" لم يُعبِّر الكسم عن مشاعره بكلماتٍ "كثيرةٍ"، وإنما اكتفى بالتعبير بملامح تظهر نفوره، وما يشبه اليأس، من الأوضاع التي سمحت بوجود مثل هذا التقرير، أو أفضت إلى وجوده). كانت أجواء التعليم الجامعي موبوءة هكذا، وعداء الأجهزة الأمنية للمعرفة ثابتاً، كما كان يبدو ويتجلّى، ويحتاج استيعاب ذلك إلى دراسات ومخابر وحلقات بحث متطوّرة.

كان بديع الكسم من أقلّ الفلاسفة السوريين تطرّقاً للسياسة بشكل مباشر، علماً أن كثيراً من المقرّبين منه كانوا يتعاملون معه كمعارض أصيل، ويسمّونه رغم ذلك" الفيلسوف الصامت"، وكان أخوه عبد الرؤوف- الأكاديمي البعثي ورئيس الحكومة- يعلم ذلك ويتستّر عليه.

سبق الكسم أستاذ سوري آخر في الفكر هو عبد الكريم اليافي، الذي نال الدكتوراه في الفلسفة بعد دراسات في الرياضيات والفيزياء في باريس في مطلع الأربعينات من القرن الماضي، وكان موسوعياً ومفكّراً متصوّفاً وأستاذاً للعديد من المعارضين في السياسة، بدروسه وكتاباته في حقل علم الاجتماع خصوصاً. وحين نظر اليافي في موضوعة الإصلاح، وجد أساسه في الإصلاح الديني، لكنّ الفقهاء- والموروث الفقهي- لم يكونوا قادرين على الوفاء بالمهمة ومتطلبّاتها الحديثة، ما لم يستوعبوا العلم الحديث، وما كان ذلك يسيراً أو ممكناً. وجد ضالّته في التصوّف وابن عربي ووحدة الوجود، حيث لم يرّ فيها تناقضاً مع التصدّي للواقع المتأخّر.

في المقابل كان هنالك فيلسوف آخر، أكثر "شفوية" وعلى النمط السقراطي إن جاز القول، كرّس حياته للتربية والتعليم، هو أنطون المقدسي، الذي كان يفتخر، أكثر ما يفتخر بكتاب الفلسفة الذي وضعه في منتصف القرن الماضي للصف الثاني الثانوي- فرع الفلسفة. وبقي حتى أواخر حياته يشرح السهل الممتنع في ذلك الكتاب، ويعتزّ به.

وبما أن المقدسي بعثيٌّ قديم، فقد بقي النظام يراعيه ويحاول تقليص محاولاته لرعاية الأدباء والكتاب الأقرب بشكل طبيعي إلى الوسط المعارض، وكان من أقرب أصدقائه مثلاً ميشيل كيلو. وحين تمّ تكليفه بإدارة قسم التأليف والترجمة في وزارة الثقافة دعم العديد من الكتاب الذين كان يمكن للنظام أن يُقصيهم، كما رعى توجّهاً للأرشفة والبحث فيما هو نهضوي في تاريخ سوريا الحديث.

من ثمّ، وجد أنه المؤهّل لمخاطبة الرئيس حين مات الأسد الأب وورثه الابن، وتوجّه إليه برسالة هامة جداً في تاريخ الأدب السياسي المعارض في سوريا، الأمر الذي زاد من حرارة تحرّكات النخبة الفكرية والثقافية في سوريا من أجل التغيير. قال فيها على سبيل المثال: " ... إنها بداية لدرب طويل إذا سلكناه يمكن أن ننتقل تدريجياً من البداوة والحكم العشائري الى حكم القانون وبداية الدخول في القرن الواحد والعشرين. لقد كفانا يا سيدي من الكلام الفضفاض: مكاسب الشعب، انجازات الشعب، ارادة الشعب. الشعب غائب يا سيدي منذ زمن طويل، ارادته مشلولة تقوم اليوم على تحقيق هدفين: الأول وعلى الصعيد الخاص، أن يعمل ليلاً نهاراً كي يضمن قوت أولاده. الثاني وعلى الصعيد العام، أن يقول ما يطلب منه قوله، وأن يتبنى السلوك الذي يطلب منه: (مسيرات، هتافات...). إن الذي يعصم هذا الشعب من الدمار، هو أنه يتعايش مع هذا الوضع المتردي تعايش المريض مع مرض مزمن".

وفي أوائل هذا القرن، حين احتدمت النقاشات السورية حول المجتمع المدني، أذكر جيداً كيف قام بتبسيط المسألة بأن ذلك المجتمع المدني يمكن أن يبدأ باتّفاق أهل البناء على ترتيب الدور بينهم عل تنظيف الدرج المشترك مثلاً، في حين يحدث العكس حين يقوم أحد السكان بتربية النحل أو الدجاج على سطح البناء الذي يسكنه معه آخرون.

كان طيب التيزيني "طمّاعاً"- والطمع في العطاء ميزة خاصة- وحاول محاولة كبرى في مشروعه النهضوي الخاص "من التراث إلى الثورة"، ودبّج عدة مجلّدات فيه قبل أن يتوقف بعد أن سبقته عجلة الزمن الحديث الذي لا ترحم سرعته، ويتحوّل من التركيز على الثورة إلى "النهضة والتنوير"، وتلك تهدئة رزينة.

أصدر بياناته الخاصة في مطلع الثمانينات مثلاً، ومنها ورقة حول الديمقراطية، يقول فيها إنه لا ديمقراطية من دون علمانية ولا علمانية من دون ديمقراطية. وكانت تلك في ظروفنا السورية حساسية خاصة وعميقة ولا زالت. أذكر ذلك لأنّي قرأته في السجن، وقراءات السجن متمهّلة متمعنّة أكثر من غيرها!

في السادس عشر من آذار ٢٠١١، مع البدايات الأولى للثورة السورية، كان اعتصام في ساحة المرجة في دمشق أمام وزارة الداخلية من أجل المطالبة بالإفراج عن المساجين، شارك به الطيّب وناله من ضرب وأذى عناصر الأمن حصة مهمة، توقّف بعدها نهائياً أذى من كان يتّهمه بأنّه ليّن مع

النظام، منذ يوم تأمّل خيراً بولاية بشار ووراثته كما فعل معظم الفلاسفة في التاريخ درءاً للعنف، وأثبت أن حياته مكرّسة للتغيير والثورة.

وإذ نتحدّث عن الفكر والفلسفة والتنوير والثورة، عن العقلي والعملي، من الطبيعي أن نتوقّف قليلاً ونحيّي برهان غليون بدوره ولدوره، وهو الفيلسوف وعالم الاجتماع السياسي السوري-الفرنسي، والسياسي عملياً وبالنتيجة أيضاً، وهو الذي لعب دوراً هاماً في المعارضة السورية خلال السنوات التي كانت تغلي منذ أواخر التسعينات الماضية، وخصوصاً منذ بداية الثورة السورية.

أصدر برهان كرّاساً بعنوان "بيان من أجل الديمقراطية" في نهاية السبعينات باكورة لكتبه ومؤلّفاته، وأثبت منذ اللحظة الأولى لعمله التزامه بقضايا شعبه. تتالت بعد ذلك كتبه ودراساته العديدة التي أسهمت بترتيب وعي النخبة السورية والعربية باتّجاه الديموقراطية، وقد تميّز أيضاً بتحفّظاته على ما رأى فيه طريقة طرح العلمانية من قبل عديد المثقفين/ السياسيين السوريين أو العرب بشكل مواجه للديمقراطية أو سابق عليها. كان كذلك ميّالاً بقوة إلى جانب الديمقراطية في مواجهة الليبرالية، من وجهة نظر يسارية على الأغلب. وقد كتب مرة أنه "إذا كنا ننتمي نحن الديمقراطيين والليبراليين إلى معسكر واحد هو معسكر الحرية أو الدفاع عن الحريات الفردية فعلى ماذا نختلف إذن؟ بالتأكيد نحن لا نختلف حول تقدير قيمة الحرية واعتمادها كأساس لأي حياة سياسية واجتماعية سليمة. إن خلافنا يقوم حول مسألتين أخريين. أولاً حول شرعية المطابقة النظرية بين الديمقراطية والليبرالية مما يعطي للتيارات الليبرالية الحق في الاستحواذ على رصيد الديمقراطية كله ومصادرتها الكاملة له، وثانيا حول نجاعة مثل هذه المطابقة من الناحية العملية أو الاستراتيجية التي تعنى بنقل الفكرة الديمقراطية إلى الواقع الاجتماعي وممارستها على الأرض."... هنا أذكر جملة موجزة جداً قالها الياس مرقص حين كان مستعجلاً قبل وفاته: "الديمقراطية هي الليبرالية زائد مفهوم الشعب".

أعود إلى صادق جلال العظم (لضرورات الترتيب الزمني) الذي قرع بقوّة على الكرة الصماء الجوفاء، حين واجه "نكسة حزيران" والردّ العربي عليها بكتبه الرائدة في "نقد الفكر الديني" و"النقد الذاتي بعد الهزيمة" و"ذهنية التحريم". كما فعل ياسين الحافظ باشتغاله على التجربة الفيتنامية.

أسهم صادق بشكل ملموس في ربيع دمشق، ثمّ في الثورة السورية، وحافظ على روحه النقدية والطليعية الرفيعة حتّى وفاته بالسرطان. أذكر جيّداً كيف أشار إليّ بأصابعه متسائلاً عن الأحوال والآفاق وهو على فراش الموت لا يستطيع كلاماً، وكيف ابتسم حين قلت له جملة مطمئنة كاذبة. قضى السرطان أيضاً على ياسين والياس وكثيرين ممّن عاشوا الشأن العام عميقاً في عقولهم التي لم تكن تكلّ ولا تملّ.

لا أعلم أين يمكن وضع تصنيف ميشيل كيلو في هذا السياق، لأنّه في الحقيقة نسيج وحده: قائد في حقل الثقافة السياسية، كما عرفناه في السبعينات ثمّ في ربيع دمشق حيث كان أساسياً في

تأسيس "لجان إحياء المجتمع المدني"، وفي تأسيس "إعلان دمشق" وإدماجه للجان المذكورة في العمل الوطني المعارض ككتلة فاعلة مهمة. غير ذلك كانت له محاولته الشبيهة بعد الثورة السورية لتجميع جهد الديمقراطيين غير المنتمين وتحريك دورهم، حتى دخل الائتلاف المعارض صيف ٢٠١٣ مع كتلة هامة، ما لبثت أن واجهت المشاكل والصعوبات ككلّ المعارضة السورية.

ترجم ميشيل شيئاً من نيتشه إلى بولانتزاس وقام بتأليف كتب هامة تعبّر عن نزوعه الفكري الخاص الذي كان في البدء شيوعياً رسمياً ثم أصبح ماركسياً حراً فمحلِّقاً حراً في النهاية، حين أعاد اهتمامه بروايتيه الصغيرتين، وألّف كتابين هامين هما "الثورة السورية وبيئتها الدولية"، و"من الأمة إلى الطائفة"، الذي كان يدور في خلده طوال انشغاله السياسي في عقديه الأخيرين قبل أن يختطفه وباء كورونا عام ٢٠٢١.

في حياته، مثّل ميشيل كيلو أهمّ محاولة من مفكر أو مثقّف سوري في ممارسة السياسة العملية، وهي محاولة نبيلة وطموحة متناقضة مع محاولات الاخرين للاحتفاظ بمسافة كافية بينهم وبين العمل السياسي بحيث لا يؤثّر الأخير سلباً على حركة الفكر والكتابة... وهذه أيضاً مهمة منتجة ونبيلة.

كان ياسين الحافظ قد نجح قديماً في تلك المحاولة، ونشط مع آخرين في تأسيس وعمل "حزب العمال الثوري"، لكنّه ظلّ أيضاً على مسافة يحتاجها المفكّر، منسجمة مع مسافةٍ حافظ عليها الحزب المذكور نفسه. وقد أثّرت تلك التجربة السياسية- ربّما- على مشتغل نشيط ومهم في علم الاجتماع والفكر السياسي السوري، هو جاد الكريم جباعي، الذي أسهم وما زال بصمت ودأب؛ بعد أن تتلمذ على أيدي ياسين والياس وبطريقة عضوية تماماً تليق بفيلسوف؛ في كلّ النشاطات المذكورة أعلاه وخصوصاً في مسائل المجتمع المدني، وفي الحركة الثورية السورية، وبقي عقله نشيطاً دائب الحركة الداخلية... والخارجية.

أولئك المذكورون سوريون، لكنّ هنالك سوريّين فلسطينيين رافقا الحركة الأكاديمية والفكرية والسياسية السورية، ورافقا التحوّلات السورية حتى الثورة، هما الفيلسوفان يوسف سلامة وأحمد برقاوي. ما زال الأخير حياً يُرزق ومتوقّد الذهن فعّالاً، في حين توفّي الأوّل منذ وقت أكثر من عام بقليل.

من أهمّ ما أنجزه يوسف سلامة أطروحته حول "السلب" عند هيغل، الذي استردّ به المفهوم من تعليبه أولاً ثمّ في تشويهه في غمار الستالينية وأعاده إلى أصله الهيغلي. كما أن أهم ما أبدعه أحمد البرقاوي هو كتابه وشغله الدائب على "الأنا"، فكان مما قاله حين عرّف الحرية أنها زوال الهوة بين الأنا الظاهر والأنا الخفي. فلا يمكن أن يظهر الأنا ويعي تميّزه الذاتي دون التحرر من النظام المتعالي، إذ يؤكد أن لا معنى لحرية المجتمع هكذا مجردة، بل لا تتحقق حرية المجتمع دون تحرر الأنا وحريته.

وفي كتابه "أنطولوجيا الذات" طرح أن انتقال الأنا إلى الحضور الفاعل يكون عبر الاعتراف به وبحضوره وتعيّناته المختلفة، وفرادته من الذات البسيطة إلى الذات المركزية.

وتكلّمت هكذا عن هذين الفيلسوفين لأنّهما هكذا في ذاكرتي البصرية، كثيراً ما كانا يتحرّكان معاً ومنذ عقود بين المراكز والملتقيات ليساعدا في عملية "النهضة" في الحقل الفكري، التي اتّضح أنها تحتاج بدورها إلى ثورة.

هنا أعود قليلاً، لأشير إلى فيلسوف سوري حلبي عاش في فرنسا طويلاً هو جورج طرابيشي، الذي اهتمّ خصوصاً بنقد الجابري وكتب عدة كتب في" نقد نقد العقل العربي". وقد كان تأخيره في هذا المقال لأنّه عاش زمن الربيع العربي والثورة السورية حتى وفاته في ٢٠١٦، وكان له رأيٌ مهم في هذه الأيام، بعد سقوط النظام السوري. قال:

"...في الواقع أفضل أن أسميها انتفاضات لأن الانتفاضات من شأنها أن تسقط أنظمة، أمَّا الثورات فليست مهمتها إسقاط أنظمة فقط، بل بناء أنظمة جديدة تتجاوزها وتتقدم عليها. السؤال الكبير هل ستنجح الانتفاضات العربية لأن تتطور إلى ثورات؟ هذا سؤال أساسي في اعتقادي. وكل ما أستطيع أن أقوله بدون أن يكون عندي أي توقعات نهائية لأن لكل بلد ظرفه الخاص ومعادلاته الخاصة. أعتقد أن إسقاط الأنظمة أسهل من بناء أنظمة جديدة، وقد يكون أقل كلفة من بناء أنظمة جديدة أيضاً، ونحن بالفرحة العامة بما حدث من الصعب أن نفكر بما سيأتي ولكن باعتباري لست من المعارضين السياسيين بالمعنى السياسي العادي للكلمة، باعتباري ملتزماً بنهج فكري أكثر مما أنا ملتزم بنهج سياسي، بكل فرحي بما حدث في العالم العربي، وبكل إيماني بحتمية ما حدث لأن الأنظمة القائمة في كل مكان في العالم العربي تقريباً بلا استثناء أنظمة سدَت أفق التطور ولجمت حركة الواقع، وحركة التغيير التاريخي مدة نصف قرن، أنظمة مستمرة وليست من الصدفة أن تكون حتى الأنظمة الجمهورية التي باتت تعرف "جملكية"، أصبحت جمهوريات وراثية تورث!"

* * *

ولن أخرج من هنا قبل أن أقدّم تحيّة خاصة للشيخ الجليل جودت سعيد، العالم الإسلامي صاحب مذهب "اللاعنف" الإسلامي، الذي وضع العقل في مركز فلسفته إن جاز القول، وقدّم إسلاماً مطابقاً/ مختلفاً، ألهم شباباً- وشيوخاً عديدين في مسار الحركة السياسية السورية وبين ثوّارها الشبّان خصوصاً، قامت على التأسيس عميقاً في الفكر والعمل، وفي احترام الفكرة الجزئية والعمل الجزئي، في اتّجاه كليّ ومطلق صافٍ. حين كان الأمر يتطلّب ذلك، لم يتأخّر الشيخ جودت في توقيع "إعلان دمشق" في العام ٢٠٠٦، الذي أسّس لأهمّ تحالف تغييري في تاريخ سوريا الحديث ما قبل الثورة.

وقد رحل، وهو يصرّ على أهمّية سلمية الثورة ورفض الردّ على العنف بالعنف، وربّما- على الأقلّ ربّما، كان على حق!

د. جهاد عطا نعيسة

الشموليات العربية وخرائبها اللغوية

إن هذا الاختزال لمكانة المواطنين، إزاء هذه الهالة القدسية التي تُخلع على "القادة"، هو انحطاط بمعنى الوطن والمواطنة، لأن الوطن هو مجموع أفراد أحرار، اختاروا عقدهم السياسي/ الاجتماعي وارتضوا نتائج ممارسته بمسؤولية عقلية وقانونية كاملة

لا تقتصر الشموليات العربية، التي هي نمط مركّب من حدَّي الفساد والاستبداد، بانتهاك حرمة الوطن بشراً وشجراً وحجرا، بل هي تقوم كذلك، بانتهاك حرمة اللغة نفسها. هذا الحقل من الانتهاك الشمولي لا يزال بعيداً عن اهتمام المهتمين، ذلك أن غالبية المعنيين بالبنى الشمولية المعاصرة، إن لم نقل جميعهم، مشغولون ومختصون بحقلها السياسي، لأنه الحقل الأكثر تأثيراً في حياة المجتمع وحاضره وقضاياه المعيشة.

يتبدّى الاختراق الشمولي للغة في قضايا مركزية ثلاث:

أولاً: غزو المفردات والتراكيب والمصطلحات ذات الحضور القيمي المؤثر في الوعي الجمعي، باستخدامات مفرغة الدلالة ومفتعلتها، تدفع بها في الغالب نحو مواقع مفهومية نقيضة لمواقعها الحقيقية؛ الشاهدُ الأقرب على هذا الصعيد... هو ما حلّ واقعاً بالقيمة الدلالية للمفردات والتراكيب التي شكّلت يوماً الشعارات الفاعلة في الاستقطاب والعمل الحزبيين، من طراز: "الوحدة" و"الحرية" و"الاشتراكية"، و"أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، و"الالتزام" و"الانتماء الحزبي والوطني" وكذلك بالتوصيفات القيمية السالبة من طراز: "الخيانة" و"العمالة" و"التآمر"، وكل الحمولات المفهومية الجديدة التي أُقحمت فيها.

ثانياً: رفد التداول الكلامي بتراكيب ومرادفات تبجيلية لا تنتهي لشخص "القائد"، من طراز: "القائد الخالد" و"القائد الرمز" و"القائد الفذ" و"القائد الملهم" و"قائدنا إلى الأبد"...إلخ. لكأن تلك المفردة المسكينة "رئيس" قد أصابها العقم المطلق، فغدت عاجزة تماماً عن إنتاج أي معنى مفيد، إن لم تُلحَق بحشد من مرادفات التعظيم والتمجيد .حين يتكفّل مسار ديمقراطي سليم ونزيه بإيصال القادة إلى مواقع الرئاسة، تُشبَع كلمة "رئيس" بمفهومها المتداول في كل لغات الأرض، على نحوٍ يغدو معه أي ملحق تعظيمي آخر نافلاً وبغير طائل، مَن هو أكثر قيمة وأهمية، ومن هو أرفع مقاماً، من رئيس منتخب حاز ثقة الملايين من شعبه...؟؟؟

ثالثاً: استحداث شعارات مشغولة أولاً وآخراً بتأكيد ولاء ينحدر بمكانة المواطن، التي أكدتها وسعت إليها كل الشرائع السياسية والمدنية منذ أولى حركات الإصلاح السياسي والاجتماعي في التاريخ، شعارات تختزل موقعه في مجتمعه وتكرسه للولاء والتصفيق وعبادة الفرد، من طراز: "بالروح، بالدم نفديك يا.."، و "الله وسورية وبشار وبس"، و"إلى الأبد إلى الأبد..." وأخيراً وليس آخراً: "سيد الوطن!!!... "

إن هذا الاختزال لمكانة المواطنين، إزاء هذه الهالة القدسية التي تُخلع على "القادة"، هو انحطاط بمعنى الوطن والمواطنة، لأن الوطن هو مجموع أفراد أحرار، اختاروا عقدهم السياسي/ الاجتماعي وارتضوا نتائج ممارسته بمسؤولية عقلية وقانونية كاملة، وليسوا عبيداً رهنوا حياتهم وقواهم لتمجيد قادتهم والتصفيق لهم والتسبيح بحمدهم، آناء الليل وآناء النهار، "سيد الوطن"...!!! من الذي اقترف هذا التوصيف المهين: وكيف جرؤ صاحبه على المساس بقدسية معنى الوطن، فأحاله عبداً في مزرعة...؟ ليس الوطن هو الذي ينتمي إلينا، بل نحن الذين نتشرف بالانتماء إليه. ولذا، فالوطن أبداً هو السيّد، سيّدنا جميعاً، مهما علت مكانتنا. هذا ما تعلمناه منذ نعومة أظفارنا، وهذا هو شرف المواطنة وشرف القيادة في آن معاً.

لقد فات أصحاب المشورة في جمهوريتنا، على ما يبدو، ما لم يفت نظراءهم الملكيين، من أن الألقاب الأكثر صخباً، هي الأكثر عجزاً عن تعزيز المعنى والمكانة؛ ذلك لأنها لا تنتج قيماً دلالية إضافية بل تنتج ضجيجاً يخنق المعنى ويحاصره، وإلا فكيف نفسّر هذه المفارقة البليغة: في التماس الأولين لقب ("خادم" الحرمين الشريفين)، في حين لا يكفُّ هؤلاء عن مطاردة أكثر الألقاب عظمة وتعظيماً...؟ إن هذا النمط الفج من الاستهتار باللغة ومحمولاتها وبناها وقيمها المكرّسة وقدرتها التي كنا نفخر بها ولا نزال، على مقاربة معانيها على الوجه الأكثر دقة وأمانة بغير إفراط، أو إخلالٍ، أو تَزَيّدٍ أو نقصان، وإخضاعها لغايات نفعية مرحلية، على مقاس "الديماغوجيا" الشمولية ورؤيتها

القاصرة للأشياء، لهو تجلٍّ آخر لاستباحة هذه الشموليات وهدرها لحيواتنا ومصائرنا، مواطنين وأوطاناً .أيْ لغتَنا العربيةَ المغدورة... وا... لغتاه!!!...

محمد الصارم

دمشق بين زمنين من الاستبداد إلى الحرية

لا شيء يشبه تلك الأيام التي سبقت سقوط النظام، بدا وكأن المسرح يتم إعداده لعرض ما، مسرحية هذلية؟ أم تراجيديا؟ لا جواب لدى أحد! كانت المؤن قد اختفت من المحال التجارية، تناهبها سكان دمشق لأيام سوداء قادمة، وارتفعت الأسعار بشكل مجنون، وتجهزوا لمعركة طويلة، أو حصار يمتد لشهور. واختزنت عيونهم قلق مصائرهم، لا شيء أكيد، يتهامسون؛ إشاعات عن فرق عسكرية للنظام تذهب الى حمص، وأن حمص ستشهد أم المعارك، كانت الأخبار شحيحة ومتناقضة، حاصروا حمص، دخلوا أطرافها، لم يدخلوها. حسنا! قال المحلل السياسي التابع للنظام، ستكون في حمص معركة "هرمجدون" التي تنبأ بها الكتاب المقدس حين تحين النهاية، ستجتمع كل الجيوش هناك، ستكون معركة عظيمة، حمص ليست حماه ولا حلب!

وكانت واو الجماعة هي الأكثر تداولا عند الحديث عن هوية المقاتلين الوافدين من الشمال، لا أحد يرغب بتسميتهم، وقد حازوا خلال السنوات الماضية على أسماء عديدة، بدءا من القاعدة، وصولا الى الجيش الوطني، مرورا بجبهة النصرة، وهيئة تحرير الشام، من هم فعلا؟ وأية راية يرفعونها؟ وماهي العقائد المحشوة في مخازن رصاصهم وفي رؤوسهم؟ أسئلة تتطاير هنا وهناك، تتدفق كالطوفان، ليس ثمة فرصة لانتظار الجواب، فسيارات الدفع الرباعي التي يستقلونها أسرع في الوصول الى المدن السورية.

أهو حلم أم كابوس؟ وفي الحالتين يتعين علينا الصحو أولا لندرك على أية أرض نقف، نفرك عيوننا قليلا، ونتذكر آخر مستجدات الليلة الماضية، نتلقط الأخبار الجديدة، ونتصل بأصدقاء ومعارف في مدن باتت حرة من النظام، يخبروننا إن كل شيء طبيعي بحدود معقولة، وحذرة، لا انتهاكات تذكر، ولا حوادث انتقام تجري، تتسرب طمأنينة باردة الى فسحة الترقب، ويرتفع منسوب الأمل في الخلاص من أعتى أنظمة الإجرام في التاريخ.

وعلى طاولة الترقب والانتظار، لم يتخيّل أحد أن الأبد الأسدي المُشادُّ على جثث السوريين، وكراماتهم، سيتلاشى سريعا كالزبد، وأن الديكتاتور الجبان سيفر مذعورا، تاركا يتاماه في حالة من الذهول والانكار، بعد أن دافعوا عنه بأرواحهم، وأرواح أولادهم، تحت شعار "الأسد أو نحرق البلد".

كان من المحال قبل فترة وجيزة، أن نتخيل أن دمشق ستصحو بسرعة حلم عابر على نبأ سقوط النظام كما حدث؛ فجأة، لا مقار أمنية فيها، ولا جيش، وحتى عناصر الشرطة لا وجود لهم، كانت البزّاتُ العسكرية ملقاة على الطرقات، وفي حاويات القمامة، وشوهدت سيارات بيك أب حاملة للرشاشات مركونة على جانب الطريق، وكما ثكنات الجيش والأمن كانت المباني العامة ومؤسسات ودوائر الدولة خاوية على عروشها بلا بوابين، وكميات من الوثائق الرسمية والشخصية، الهامة منها والعادية، مبعثرة ومرمية في الطرقات.

وكان من المحال أن نتخيل أيضا أن صباحا كهذا سيدفع قاسيون لتنفس الصعداء، ويخفف من زيّه الرمادي الكئيب، ويخلع خوذة النظام المفروضة عليه، ويرسم شبح ابتسامة على محياه، هي ابتسامة غامضة لجبل يعرف أكثر مما يقول، شهد تواريخ تجري بحلوها ومرها، وشهد مصائر وأقدار تصاغ، وولادات عهود وأنظمة كتبت سيرتها بالسلاح والدم فور مجيئها، وحكمت شعوبها بالحديد والنار والرعب المديد. كما شهد مصائر أنظمة اخرى مرت على دمشق، وابتسمت للناس فور مجيئها فاستبشروا، وهلّلوا لها فرحا بزوال الطغاة السابقين، ليكتشفوا بعد حين أن ذئبا يختبئ خلف قناع الحمل الوديع، وأن طغاة تبدلوا بآخرين، إنْ هي إلا وجوه تبدلت!

تكرر هذا على مر التواريخ تحت سمع وبصر قاسيون الجبل الأصم الذي يحرس دمشق من جهة الغرب، ويحتضنها كأب حنون، إن تعبت تستند إليه، يواسيها، وإن فرحت سارعت إليه، ليفرح معها ويراقصها في مخيلته، ولكن همسا تداولته كائنات الطبيعة بلغاتها، أن قاسيون لم يكن مرة غاضبا وحزينا كما في العهد الاسدي البائد.

وفي صبيحة الثامن من ديسمبر ٢٠٢٤، التزم سكان دمشق بيوتهم بعد ليلة طويلة لم يَنمْ فيها الكثيرون، حزموا حقائبهم الصغيرة، بحثوا عن سيارات تأخذهم بعيدا عنها، الى مساقط رؤوسهم، أو مناطق اعتقدوها أكثر أمنا، صليات رصاص لا تتوقف، أصوات انفجارات متقطعة، أهو ابتهاج

أم اشتباكات؟ لا أحد يدري على وجه اليقين، لكن قلة من المواطنين ممن قدر لهم أن يتجولوا فيها خلال الأيام الأولى، شهدوا الكثير من الرصاص الفارغ في شوارع المدينة.

ورويدا خلال أيام قليلة، بمزيج من الفضول، وإلحاح قضاء حوائجهم اليومية، بدأ سكان دمشق بالتعرف على المقاتلين الجدد، بسياراتهم الموحلة، وشعورهم الطويلة، ولحاهم المميزة، يحملون أسلحتهم الرشاشة، ويقفون على مفارق محددة، لا يتدخلون، ولا يسألون المارة عن شيء، غالبيتهم يافعون جدا، بعضهم لما ينبت الشعر على وجهه بعد. لا يبدو أن صدمتهم وذهولهم من الواقع الجديد أقل من غيرهم، إنهم لا يصدقون، أو حتى لا يدركون أن مفاتيح دمشق قد باتت في أيديهم، مفاتيح تلك المدينة التي توصف لعراقتها وقدمها، بانها شقيقة الزمان، وأنها والتاريخ توأمان.

فقراء كانوا، كما يدل مظهرهم، يوشك البؤس في عيونهم أن يتحدث، لهجات أفقرهم توحي بانهم قادمين من الجنوب السوري، ولا لثام على وجوههم، أما الأقل فقرا فهم القادمون من الشمال، ففي سيارتهم الموحلة شيء من الفخامة، والهيبة، يقول الوحل على سياراتهم أنهم كانوا في المعارك أو قادمين منها أو ذاهبين إليها، ويترك اللثام على وجوه البعض منهم ارتيابا "كن حذرا فانا غامض بالنسبة لك ومجهول، وثمة مسافة بيني وبينك بطول المسافة التي تصلها رصاصتي".

إنهم يشبهوننا، هكذا عبر الغالبية من السوريين الذين تواصلوا معهم وشاركوهم اللحظة المجيدة التي أزالت عقودا من الطغيان والاستبداد واستباحة الكرامة السورية.

إنهم لا يشبهوننا، قالت أصوات أخرى لموالين، ومعارضين للنظام السابق، على حد سواء، لكن اللافت أن بعضا منها لم يكن محمولا على قاطرة الاختلاف في السياسة أو الدين، كان محمولا في المقام الأول على ازدراء طبقي للريفيين والنفور من "أشكالهم وروائحهم"، ويمتدّ هذا الرأي ليشمل طيفا واسعا من عائلات دمشقية معروفة، يتهامسون أن لا مكان لهؤلاء في صدارة الصورة الحقيقية لدمشق، ويتابعون، هل يمكن لهؤلاء الريفيين الأجلاف ان يمسكوا بعنان دمشق الحرون؟ وهل ستكون سوريا التي ينشدون إلا على صورتهم؟ وهل سيكررون سيرة أسلافهم من النظام البائد!

وبعد انتهاء الصدمة والذهول من سرعة سقوط النظام، تلك الصدمة التي أصابت الجميع معا؛ الفرحين والمتشائمين، من المؤيدين الجدد، والمؤيدين السابقين، ومن الرماديين والمعارضين الذين أدمنوا توصيفهم، ومن هواة الاستعراض وراكبي الامواج القادمة، غصت ساحة الامويين بالحشود من هؤلاء، ومن غيرهم، لم يكن الحشد متجانسا فعليا، لكنه كان سورياً بالمعنى الجديد لما يحمله الوصف، كانت اللحظة اختبارا للحرية، كان الجميع يتحدثون معا، يتبادلون التهاني يتسايرون يتجادلون، وقلة منهم يصغون، إنه الجوع المزمن للكلام العلني والتعبير عن الذات، جوع طويل وظمأ للحرية! أليست هذه هي الحرية التي نشدناها طويلا؟ اذن سأقول ما اشتهي حتى لو لم يسمعني أحد!

البندقية في ساحة الامويين، لم تكن بعيدة عن المتحاورين، لكن ظلها كان خفيف الوقع، يكاد لا يرى، لم تكن تُخيف المتحاورين، وربما جرت الحوارات الأهم مع حملتها، كانوا ودودين، بالطبع، لم

يكونوا مقاتلين عاديين، كانوا نخبويين، حرصت هيئة تحرير الشام أو "الهيئة" كما شاع تسميتها، على استقدامهم، واستعانت بكادر تنظيمي يعمل بعضه في منظمات انسانية في إدلب، لتقديم انطباع حسن عن صورتها، كان انطباعا مريحا في الغالب، حتى لمعارضيه، فالحوارات تؤنسن الجميع، والحضور الكرنفالي الطارئ لحشد كبير من وسائل الاعلام يتسابق للامساك بكمية الضوء والظل في هذه الصورة التاريخية، يرصد تفاصيلها، ويتسقط كل حركة وهمسة تقال في إطارها.

ومن بين دلالاتها المتعددة، رسخت مشهدية ساحة الامويين حقيقة انكسار الأبد الأسدي، وانكسار جبروته وطغيانه، وخلع أبواب سجونه وتحرير المعتقلين، ومعاينة الزنازين الموصدة، لأول مرة منذ عقود، لتَكشُفَ عن مآسي وأهوال لم يتخيلها عقل بشري، على الأرجح، لأنه كان هو الآخر سجينا لهذ الأبد الوحشي.

ربما لا يتفق السوريون حاليا على السلطة الراهنة، ولا على تقييمها، وربما لن يتفقوا مع أية سلطة أخرى بغض النظر عن حجم الاختلاف المفترض، لكنهم باتوا أقرب إلى فهم معنى الدولة الوطنية، وأكثر حرصا وإلحاحا على ضرورة بنائها، وأكثر ادراكا لحضورهم وتمثيلهم في صورتها الكلية، تلك الصورة التي لا بد لها ان تنبثق من عقد اجتماعي جديد يجمع الجغرافيا، ويخفف عبء التاريخ، ويوحد الأقدار والمصائر لأفرادها ومكوناتها، ويرسم خريطة المستقبل لأبنائها السوريين.

أوراق الشعر

علي شمس الدين

شاعر لبناني – من أعماله:

"نزول الألفة"، عام ٢٠٢٢، و "وحول العالم الأول" عام ٢٠٢٣.

الساحِل

دائماً ما نبدأ من النهاية
هنا الآن

بداية لبداية نعرفها
رتابة المعاينة في زوايا

وقد يكون الوقت معطّلاً
الرواية

حيث الأصوات لا تصل
تاريخ وسيرة يتعفنان

وحيث إنّ نبر الكلام
على السلالم وخلف الأبواب

مشقّة
يبدو الساحل صورة متوقّفة

وصول الصوت
تركت في مصراع الكاميرا

إلى سدّة الدهشة
حيث لم يكن الزمن يجرؤ

مجدّداً
كان لا بد من فضيحة أخرى

رسم نعرفه
ليعود إلينا

لون لا يتغيّر
لنفتتح الأركان مجدداً

أخضر مثقل الرأس
الوجوه تظهر

وأزرق مطفأ
من خلف الأرقام

الأكاليل تنمو

على سلالم الأنفاس

حيث واحدهم

يسلّم الدقائق لآخر

حيث الجنازة تسير

في هذه الفجوة

الأفواه تلوك الذرائع

كهوف مسعورة

فوق رائحة

تنتفخ

تساعد تلك الذاكرة

لتنتشي في الغواية

كم صورة سقطت

بين الصفحات

كم صورة

سقطت بين أيدينا

ومازالت الواجهة

القديمة في مقدمة

القصيدة

تيد هيوز

ترجمة: نعيمة عبد الجود

الصقر جاثماً

قصيدة "الصقر جاثماً" Hawk Roosting ، تعد واحدة من قصائد الشاعر الإنجليزي تيد هيوز Ted Hughes (١٩٣٠-١٩٩٨) التي تحظى بشهرة عالمية واسعة، وتقريباً لا يخلو أي كتاب دراسي أو جامعي منها سواء في أوروبا أوالولايات المتحدة. ويلاحظ أن تيد هيوز Ted Hughes في هذه القصيدة لا يركز إلا على شخصية صقر، فيجسده ليتكلم، وما يتفوه به يجعل القارئ يغوص فيما يعتمل بداخل رأس الصقر من أفكار تتميَّز بالهدوء والاقتضاب؛ وبذلك يكتشف عن منبع قوته الكامنة، ويسبر غور سبب نظرة البشر إزاء الصقر بأنه رمزًا راقيًا للرفعة والسمو، والاستغناء عن الانخراط مع الآخرين. وعلى لسان الصقر، يقول تيد هيوز Ted Hughes:

على ذروة الغابة استويت بعينين مغمضتين
بلا حراك، وبلا أحلام خادعة
تتسلل عبر رأسي المعقوف، ولا قدمي
الخطافي:
أوكلَّما غفوت، أتدرَّب على قتلٍ ثمَّ أكلٍ دون
شائبة.
أهمية الأشجار الشاهقة!
انسياب الهواء وأشعة الشمس عبرها
مصدر نفع لي؛
وأمَّا الأرض فتكشف وجهها لي لأنقِّب عن
الفرائس.

قدماي مُحْكَمة علَى اللُّحاء الخشن.
لقد استلزم ذلك مني أمداً يضاهي عُمر
الخليقة؛
لأسبك قدماي وريش جسدي على ذاك
النحو.
وحالياً، تطبق قدماي على خلائق بداخلها.
أوقد أحلِّق ببطء في دوائر نحو غمد
السماوات-
أقتل حيثما شئت؛ فالوجود ملكًا لي.
جسدي خالٍ من السفسطة،
خُلُقِي هو حز الرؤوس.

كمّ الموت الذي أذيقه للآخرين.

ما يكفيني خلال رحلة واحدة مباشرة

عبر عظام الأحياء.

ولا يوجد أي جدل يؤكِّد ذاك الحقّ.

الشمس جاثمة خلفي.

التغيير لم يصب شئ البتة، منذ فجر مولدي؛

فلم تسمح عيناي للتغيير بأن يحدث.

ولسوف أُبقِي الحال على ذاك المنوال دوماً.

مضر حمكو
شاعر سوري

رحيل ماريو فارغاس يوسا

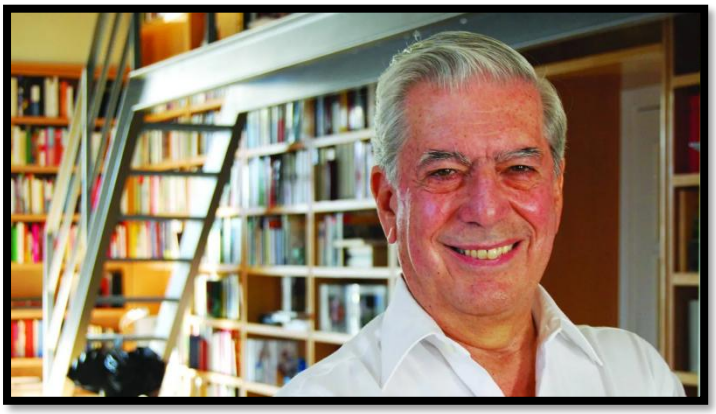

رحيل الكاتب البيروفي ماريو فارغاس يوسا بتاريخ ١٣ ابريل/ نيسان ٢٠٢٥.وهو الحاصل على جائزة ميغيل دي سرفانتس عام ١٩٩٤، وجائزة القدس عام ١٩٩٥، وجائزة نوبل في الأدب عام ٢٠١٠، وجائزة كارلوس فوينتس عام ٢٠١٢، ووسام بابلو نيرودا للاستحقاق الفني والثقافي عام ٢٠١٨.

رحل ماريو فارغاس يوسا وها أنا أودع حليفاً آخر في الوجود، قرع عويل الوقت في أجراسي وعبر الحواف لينام خارج الوقت.. لن أطرق باب ببيته في النص فأدخل بورع المتلهف فخ الغواية، لن أقارع شخوصه على حق المعنى في تقرير المصير.

لم يكن لي حظ المقامر من النرد فالتقيه على قارعة الحياة، حينها اكتفيت بغبطة الشرير في استراق السمع على عويله في النص، والتقطت ثماره على الأرصفة.

كيف يذهب الآن والزمن في الراوية يموت من الجوع، ترك أيتامه في النص ورحل، فمن سيغير مصائر الشخوص ومن يكتب المآل يا ماريو؟

من سيعين الآن في البحث عن ممر سري للمعنى، واي معنى أيها المسافر.

هل تعبت من ارتطامنا الفادح بالوجود؟

هل تركت للتاريخ ما يسد به الرمق أو للحياة ما يقيّها من البرد؟

لم نكن نعرف بعضنا في العلن، لكننا كنا نتواطأ في البحث عن قلادة سقطت في البحر، نتعاهد على فتح أبواب النص كي يخرج من يشاء من الشخوص ونردم كل السجون، كنت قد قلت أنّكَ ستخرج المارد إلى النزهة بعد اختفاء طويل.

هنيئاً للغياب وأنت تفتح بابه بيديك وتمضي للتريض بعيداً عن أعين المتلصصين.

هل ستحفر بئراً الزمن من جديد وتسقي أشجاراً جديدة للذاكرة

هل ستنام طويلاً هذه المرة على غير عادتك؟

ها أنت بعد ومضة العمر تترك جسدك للحريق، لم تعد تحتاجه في اسفارك الجديدة، لماذا اخترت لجسدك النار، أهي كراهة التجسد من جعلك تفعل؟

هل كنت تحب النار إلى هذا الحد؟

ام هو الاعتراف المتأخر بالخطيئة الذي أوجب التطهر بالحريق، يا لهُ من رحيل وثني الجمال، تجسد عارم وعالٍ ثم في المحطة الأخيرة تترك الجسد للعالم وتذهب مفرداً بالروح.

ها أنت تعبر الحواف وتنقل الأسئلة في حقائب الروح إلى ضفة أخرى.

هل تقول أنّ العالم خطيئة سردية؟

وعليك أن تبني معراجاً جديدة للخروج، وأنت تغير الجهات هل تعد بخطة جديدة للسرد؟ هل فكرت أن جيشك في الكتب قد يتبعك إلى باب الغياب؟

حسنا يا ماريو، سأدعك الآن تنام وغداً عليك أن تنسى العالم وتفكر في الكون من جديد.

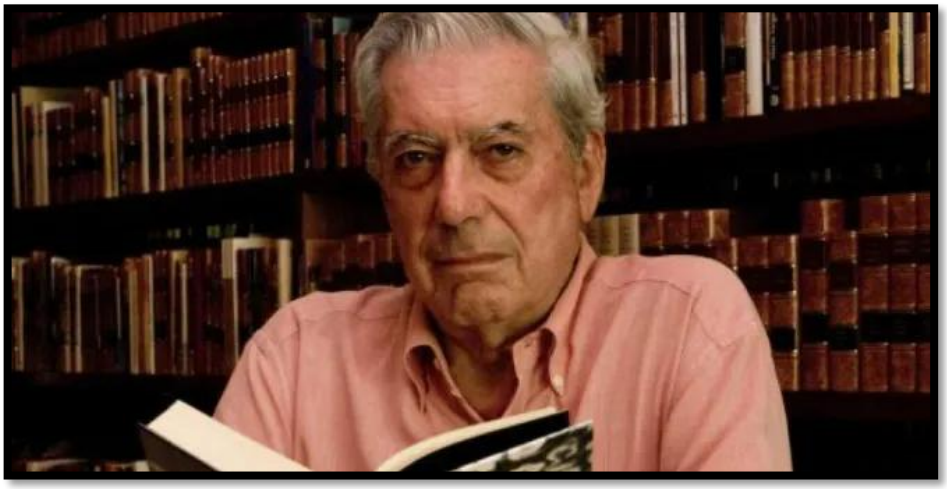

مات العصفور

مات العصفور الذي اسميته نغم

مات كما العصافير

لا قصة تكفن الرحيل

لا تؤويه سردية أو هوية

لا رتوش تزين الغياب

مضى وحيداً وبعيداً

إلى آخر الرحيل

حيث الشوق يغوي العدم بالوجود

عاد إلى أول التكوين

حين ضاعت الأشياء

في لذة الكون

إلى النهاية حيث لا قصص تروى عن الأنبياء

أو الشهداء

مات العصفور الذي اسميته نغم

وبقيت الأقفاص وحيدة تغني

لحزن العصافير

لحزن أشجار شيعت رقاده الأخير

هناك حيث انهمار البدد بالنشيد

ها نحن اللاشيء في الكون يا نغم

ها هو العدم يطلق سراح ارواحنا من كل

السجون

هناك سنتحرر من الحرية

من الأحلام والرؤى

من ظلال الأغاني في أرواحنا

من أرواحنا

من الكلمات من الحب من الموت من العدم.

مات العصفور الذي اسميته نغم

مات بلا لغة تتوسط موته

بلا طقوس

لا ظلال لموته

مات كالبسطاء الأولياء

مات حرا من التآويل

مات كالعصافير

وبكيت عليه حرا

كما العصافير

بلا كلمات

تكفنني

تؤويني

تقتلني

بكيت جميعا

بكيت سعيداً

بكيت وحيدا

بكيت علياً كالإنسان.

لا يصلح الجسد للكلام مع الكون

صغيرة هذه الذات على الوجود

قليلة هي لتربي الحياة على الحياة

صغيرة هي الخشبة على المسرح

والمسرح صغير على الصراخ

في موته الجليل صرخ الممثل:

أوبي أيتها الأشياء

لما كل هذا العويل؟

لماذا لا يغير الليل جلده؟

لما يضحك بلون أسود؟

لماذا تنبش الذات لحمها؟

لماذا تضيع الدروب؟

قالت الأغوار

الشمس صهيل الضوء في الغواية

لكن الذات ثقوب

الموت فواصل بين الأنهار

هكذا بشرت الحياة

مات الممثل من النشيد
لفرط ما أحصى أيائل الوجود

وغدا نكمل مراسم الحداد
أختار أن يكون رقماً في تقويم الفضاء

ربما نهض الممثل باكراً
وذهب للنوم باكراً

ربما ذهب باكراً أيضا
بكل ما للسديم من ذهب

لم يكمل تعلم دروس الغبطة
في الحلم كان يعوي كنرة

لم يتقن تعاليم الوردة
رأى إلى نفسه كيف صار ذبابة

في الحلم كان يبكي أشياء حبيبته
تمص الهباء

التي لم يرها ابدأ
الطريق الى الأبد طويل

خربش على وريد العالم لوحة
عليك الآن أن تنام

اكملتها بعده الفصول
قال له العالم ونام

الأغوار تاريخنا السائل إلى الخراب ، تاريخ وهمنا أننا الذات التي تحكم العالم - الموضوع الذي يعني امتهانه أن نتنفس هواء الأعالي ، في أعلى قمة من جبل الحرية.

بعد أن يهدأ هدير الوقت قليلاً نكتشف أننا حشرات ضخمة تدب على الكوكب لبعض الوقت ثم يلسعنا اللانهائي بإبر الوقت ليقول توقفوا فاللعبة انتهت.

لا فرق نكتشفه ما بين الحقيقة والخيال ، بين الحلم واليقظة ، بين الصحو والاغماء ، ما أعظم المسرح وما أطول العرض بل ما اقصر قامة الحلم وما أسرع مركبة الحياة في الفضاء الخارجي للوهم..

يقف الممثل على الخشبة مدى الحياة ثم ينام من فرط العواء في سرير شائك أو وثير للأبد.

ما بين الأنا المغلق على هلام الذات والعالم- الموضوع ثمة ذات خاب رجاؤها في النسق وتبللت أصواتها بالنايات وبدلاً من الغناء نامت بومة منيرفا في الظلام..

خارج كل الأنساق ثم فلسفة لمرح الذات و خارج التاريخ ثم لا تاريخ ، هاهنا في اللا تاريخ تغني الفلسفة للذات اغنيتها الخالدة.

التاريخ الذي ليس له تاريخ ، الآن الذي يحتفي بالعالم والوجود اللاشخصي واللاثقافي حد الرقص أو الآن الذي لا يدعي أية هوية سوى هوية الفراغ.

لما كل هذا العويل في دروب عودتنا إلى الأبد ؟

لماذا لا يكون لهذه الذات لحم من نهار جديد ، بكل قدرة الشمس على الولادة ؟

كيف صار الوجود رقماً في أثير الافتراض ؟

كيف استحالت الحياة ذبابة على شاشة العالم؟

جرثومة قد تباع في مختبر وتذهب الحياة حينها في إجازة أبدية.

لي حريتي في أن أكون مع إخوتي العبيد يقول كل في نفسه ، لي حريتي في أن أكون نفسي ، لي حرية الانكسار.

ماذا يعني أن يشعر المرء بالانكسار!

ماذا يحدث في شعاب أنفسنا كي تبعث لنا من غور قصي أو حتى من ركح أنفسنا رقصة البطريق برسالة تفيد بأن مذبحة ما قد وقعت لكبريائنا في منطقة مأهولة بالساكنين أغوارنا.

ثم يقول قائل دع العالم يحدث ، دع العالم لا يحدث يقول صوت من غور آخر.

ما الذي ينكسر فينا حقا ، من نحن بهذه الأجساد الخائبة، ومن نحن بغير أجساد مفجوعة بالروح ؟

من نحن وقت الحياة تفضح هذا الأنا المرصع بتقوى الخراب ؟

من نحن بكل ما لدينا من وباء العقل وما خلا بعض العقل فكله وباء؟

هل على من سكن الأغوار أن يبحث عن وطن جديد كي نستريح من أعباء الرحلة؟

لا احد في الكون - غيرنا - يريد للرحلة أن تنتهي ولا تنتهي.

لا يعرف التراب أنني ما له من الأحاجي
لا ولا الماء
لا يجيد الغيم أن يفك أزرار كينونتي
لا يجيد أن يفتح المصاريع
كي تدخل السماء
ولو قليلا
كي تخرج الأشياء
ولو قليلاً
لا يعرف الصلصال أنني حظه
من كل شيء
لست بماء
ولا أنا التراب
أنا الصلصال في كل شيء
أنا الشبيه لكل شيء
منذ أن سافر بي الماء
لم أعد
من أن سافر بي التراب
لم أعد
ولا تعرفني الأشياء
أنا الغريب على طينها
وهي الغريبة في طيني
لا يعرف الحجر أنني أخاه
في الهباء
لا تعرف الرمال أنني الشقيق للسراب
لا تعرف نفسي أنني جرحها من الزجاج.
لا تعرف حبيبتي متى اوبتي
إلى طينها
إلى جرحها
إلى ارتعاش الماء والتراب
لا تعرف حبيبتي أنني أسافر كل آن
في الأشياء ولا أعود
لا تعرف حبيبتي أنني آويت إليها
ولن أعود.

أهذا اليرعم الصغير في أصص العالم
يكون أنا؟
أهذا التراب ال نمت فيه الفصول
يكون أنا؟
وهذا النسغ ال أطعم وحشة الكائن
أيكون أنا؟
ليس من عادة العطر أن يكون أنا
ولا أسماء الزهر تشابه إسمي
ربما كان أكثر ثقلاً من الفوح
وأخف من جبل
هذا الغياب
طفل يبتني الوجود
كرجل الثلج
ويفكر في النار
أول خاطر لاح للنار
كان أنا
ايهذا الكائن من الجمر
دع العالم يقع
دعه يسقط من دخاني
يد تمتد أعلى من الشمس
هي يدي
تعتصر حليبا من الشوك
لا ثمار تساقط
ولا أكاليل
لا أجراس ترن
ولا تآويل
متعال هو النشيد
أكثر من سياف
وأعلى من الريح
متعال هو النشيج
أكثر من دوي الهزيمة
وأعلى من بوق القيامة
هذا أنا
يصعد بي الحلم إلى كواكبها
يصعدرنين أجراسها في رحلتي
أن تاهت بي المحطات
تجدني في كل الجهات
أسافر مفقوداً
لا ولادة ولا موت
فزع من احتمال النرد
تلة لعنة الثمار
وتلة غبطة الملاك
هذا هو أنا
بي شوق إليها
كشوق الدروب للتائهين
كصائد الحقيقة ال يمشي على السحاب
كارتجاف الشمس في الضباب
أيهذا ال ضاع في مدائن الغبار.

رائع أن يكون العالم باقة هائلة من الظواهر المدهشة، ورائع أن أكون أحد جهَّال الوجود رغم ادعاءات عقلي قدرة فائقة على تفسيره وتصنيفه وكشف علل وجوده أو قوانين نشأته وما سوى ذلك من مصادرات العقل النظريّ، كذبة رائعة حاكها العقل في أول نيسانه، مدهش أن يكون العالم سراب، دفق متواصل، ارهاص لولادة مستمرة ولا مواليد غير طوفان الظواهر، وكان عليّ دوماً أن أدخلها معبدي، أعمدها بأسماء سعيدة وحزينة لتلقى رواجاً في سوق المفاهيم.

لم يكن للوردة لغة ولا قواميس ولا كلمات، هي لا تدعي خطاباً ولا تدخل الوجود في أدغال تسميها مفاهيم، هي تظهر أن روح العالم الشذى وأن الوجود محض عبير.

كم يغار عقلي من الورد لكنها عشق روحي، هي مفاتيحي لمغاليق الوجود، أظن أن الوردة سعيدة فلها السلام وعليها السلام أنها وردة، هي لم ترتطم بأي وجود، لم تتورط بأي كيان ولم تفكر بأي قانون أخلاقي يطابق المقدس، لا رجاء لديها يوجعها ولا تنتظر أي شيء من أحد، تولد وتموت بكل صمت أو عطر.

هي لا تعي سوى أن الضرورة هي سفر في العطر، أن الولادة عطر والوجود عطر والرحيل عطر، أن الضرورة عطر وأعلى مراتب الحرية هو الفوح.

أغار من حرية الوردة حتى حينما تسقط لا تموت بل ترحل فقط، لا تفكر بالسلطة أو البقاء أو حتى الخلود.

أغار من فضيلة الوردة فهي المشرع الأعظم، التوسط السعيد بين القانون وروحه، ليست بحاجة للتفكير في السعادة والرجاء والأمل إذ هي صورة ذلك.

لا تحتاج إلى مصادرات كانط ولا جود الوجود الزائد عن فيض خالق محي الدين بن عربي.

لا تفكر في وصل الود بين عقل ابن رشد وأصل الشريعة، كما أنها لا تحتاج مُثُلْ أفلاطون المتعالية ولا تتساءل إن كان العالم حادث أو قديم

لا يعنيها إن كان نيتشه قد ألقى نفسه في النار، إن كان يليق بالإنسان أن يكون وجوده الحق والأعلى على أعلى قمة للخطر.

هي تأبه لوجودي لأنها من كرم الفضيلة وجود الوجود بحيث أنها لا تميز نفسها عني، هي لا تعرف غير أن تحب بعطر.

أنا لا أعرف ما الفضيلة وما القانون الأخلاقي، اعرف فقط كيف أشغل العالم بأسئلتي، ما أنا سوى فضيلة العقل النظري المسجون في المادة والظواهر والتجربة ولا قبل لي بغير المحسوس، ولن أكون خارج النسق وخارج أكذوبة العالم.

العالم حقل إعدام شاسع للأشياء والظواهر إنه عالمي الذي صنعت، من الكلمات، أنا ميت كهذي القواميس مذ صنعت اللغة عالمي المسحور وبدأ العالم مشواره كظاهرة

ما أبدع هذه الكذبة!

ومت أروع الشيء في ذاته حين يكون وحده رجاؤنا في البلوغ إلى المقدس الأخير.

من فرجة في القلب أطالع السماء
لا شيء تغير في طباعها
زرقة البحر
لون الرماد
مزاج متقلب
حقائب مملوءة بالفراغ
أشواك تحك أقدام الأمل
لا شيء تغير
غير أنها تبتعد
صدى أصوات المسافرين موتا
الشهوة الوحشية للأشياء
قاتل يتوق للتعالي
يلتف بإزار القصيدة
يخفق في حمل الهاوية
لا شيء تغير في ألوانها
غير لون الانتظار
للحاملين الموانئ إلى بحار أخيرة
للبراري السعيدة في خيال البحار
للمشاة على رؤوس أصابع أرواحهم
على الحواف
أو في مدى الغبار

الوصايا أضلت طريقها
للعبور على جسر مكسور
للرجاء في فاكهة الغيب
وذلك الأمل كجرح عتيق
في مثل براءة الطفل
فاحش كالمعنى
أبيض كاللعنة
طري كلحم البداية
شاسع كاللانهائي
كالحب
لا شيء تغير
أبوابا تظل مقفلة
اقفال يعلوها الصدى
مفاتيح في غيابة البحر
سكاكين تثلم الطريق
حجارة تفج اليأس
حجارة لجدران الأمل
قصيدة لا أروي غليلها
حكاية تشبه الحريق
هي السماء

ماذا لو كان العالم روائح
كقوافل المطر؟
وأنت تفكر يفوح منك ريحان الفكرة
لتسأل:
مارائحة الحقيقة؟
تقول لا شيء غير الأبدي في الحب
الذي لا يقاس بغير الصمت
وزخات السكون
مارائحة الكينونة؟
إنثيال القلق البهيج
شكل من احتمال الريح
لرقص الشجر
أن تتأبط العاصفة
ترجم نفسك بنجم بعيد
تصنع لحبيبة لا تعرف أين هي
شالاً من القمر
أن تكون أو لا تكون
هي ذي الروح
أن لا تأتي العالم إلا من جهة الهاوية
تهوي كنجم بكل ما فيك من الخطر
تسأل:

من سرق رائحة حبيبتي؟
أترى لو أهدى الرائحة للشمس
هل يحتاج الكون حينها لعينيه؟
أيهذا العالم الكائن من الشذى
أي عبق يفوح من الحرية؟
لا شيء غير أنك حر
من حزن الجاذبية
من نفسك
من الجمر في لذة التفاح
من اللعنة
من الأعالي
من الأعماق
من الوديان
من الجسد المطعون بالروائح
من الذاكرة
جريان النهر
.
.
.
إلى الأبد أو أبعد
وأنت بكامل الريحان
حر من رائحتك.

يد تبحث عني في الفراغ
تجد الفراغ
يد تبحث عن الفراغ
تجد الركام
أين العالم ؟
بملء حلمه
يمد يده ويبحث عني
بحّار يطوف الوقت
بكل قلبه
ملء جفونه
بكل الصهيل
وآلاء الصلصال
يكبو
ينهض
يعلو
عائداً يمد يده ويبحث عني
بكل ما يجري في عروق الرمال

وحيدا
خائفاً
فيه جوع
وفيه شوق
ينتظر الشروق
على باب الشفق
يمد يده لكل شيء
لا يعرف أين يذهب
وحيدا مثلي
وفيه كل ملامحي
وأنا الغائب
لا يجدني
إلا قتيلاً ابحث عنه
خلف كل الأشياء
فراغ يفر
يذهب ولا يعود

أنا شقيق الماء
أسيل على أهداب الموت
كأنني الدمع أحدِّق في عينيه
لا كضحية تودع قاتلها
بل كحبيبين شغوفين بالصمت
أو الصوت
أو صديقين حميمين
يتبادلان هموم الحياة
أيهذا الموت
لماذا كل هذا الشغف بالنهايات ؟
أتبكي لأنك تحيا بموتي ؟
قال لا تجزع
فالعالم يبدأ
وآنا حلمك الطويل
كأنما للتو بدأ اللهب
لا أعرف إن كان الذي في غيم
أم أنه الجرح
سيف شطر الضباب
عالمين
قارتين
سديمين وعلمين مختلفين
واحد ألف به الزيف
واخر يشبه مرور السحاب

أنا النائي شبيه البرد
أنا الناي كليم القصب في العراء
ماذا أقول للربيع؟
إن غابت أنباء العصافير؟
من يتلو اعتذار الحجارة
عن الندى؟
أي فأس شقق عن قلب التراب؟
أيعرف الغبار؟
هل يعتذر الشوك عن الزهر؟
أم الورد عن العطر؟
ماذا أقول عن نفسي؟
أأقول شال الخرز
لف خصر جنية؟
يا بحر ماذا؟
أيشتهي الموج أن يغني لحورية؟
ليس عندي للضوء ما أقول
عن الشمس
غير أسر الليل
في وضح الجرح
كأنما الحصى
يرمي العالم بالكينونة
بقلب يعيدرصف الأساطير
حجر على حجر
يبحث عن وجه طفل يلد الآن

ربما كان أنا
أو القمر
أيهذا القلق ثروتي من ذهب الوجود
لعنتي من الماء
شقيق البلاد أنا
ماذا أقول للبلاد
إذا سفت الرمال
عن جوع الهوية؟
أبيع نفسي للأساطير
في سوق نهاية الأسبوع
كي أشتري البلاد
هل أبيع البلاد
لأشتري الرحيل؟
هي شقيقتي في الجرح
نتقاسم سيفاً يطعننا بالفرح
بالحرية
بالجوع
بالحلم
تهيأ أمنا العشاء
ما يكفي المستحيل
من الحليب والحب
لا نفكر في الهوية
بل نتعلم خفة الوجود
ونطير مع العصافير

مشى الحلم حافياً على الغيم
تقدح رؤاي الشرر
فاشتعل أيهذا الماء
في هشيم الجسد
كن رفيقاً بالنار
إذا حان اللهب
هل هبطت السماء من الغبطة
لتنام الآن في الشغاف؟
أم صعدت إلى الغيم
في رؤى الماء؟
أو تنام يا حلم
وبك يقظة البحر؟
لك شوقه في أن يكون النار
ولي الغرق
بكل شوق السفائن إلى الشطآن
ألوذ بالليل
وأخاف الشفق
في الحلم تكلمت إلى النار
من يكتب انهار الليل بالنار؟
ومن في هذه الساعات يكتبني؟
أيهذا النهار

أترى لو وهبتُ عينيّ للهباء
وأعطيتهُ قلبي
هل يرى ما يرى الأعمى
على سفوح الدخان؟
من بصائر شَيّعتني إلى آخر التراب
أيفوح أكثر من سوسنة تغنّي
ويشدو أكثر من ناي في سَكِره؟
يَطير مع الفراش
يَتلبّسُ كُحل الأجنحة
مجنوناً يُحسّ أنّه العطرُ
رذاذ تجره الروح على السراط
أول الماء
هل يرى إلى الشمس تُشرق مني؟
وهناك في ليل بَعيد
بين أصابعي
تمر أقمار إلى عوالمها وتغيب
هل يرى أني أجرت نفسي للكواكب
كي تسرع في الرحيل
نحو بلاد حلمها الماء
وسماء يمرح بها إله أخير؟
هناك اعدو في أنفاس الشمس
وأدعو السحاب ليتدفأ بين يدي
يسير على هدي دمي
لا أشواك في لحم المدينة
لا أرقام تسفح هوية الغيم
أو شاشة يتدلى منها الوجود
هناك تحملني على أصابع الحب
أنّى ثقفتني السماء.

* * *

الرايات ال خفقت على صليب الروح
تلك رايات المشتهين عبور الحواف
الآيبين في عويل الشهب
مع أجراس المغيب
إلى الهاوية
الذين نذرت لهم من فلوات
لمست طواريفها
عددت ذرات الغبار على دروبها
التآويل في ليل أسفارهم
كانت عظامي ال وهبتها طواحين الرياح
كانوا هنا في وضح السراب
كانوا الملح الواضح اليقين
في الجرح
الفاضح عيون الليل
القناديل المعلقة على ضفائر المشتهى
كانوا سيل اللهب على سفوح الحريق
في الرؤى كانوا التواء الدخان
والخطا ال سالت في المآب
كانت دبيب الروح.

حسين جرود

كاتب سوري، من أعماله: المجموعة الناقصة – سوق الأحد – سمكة في الماء.

اسم الماء

1

أتوع حراشف الأيام
عن جلدي الطري
ارتكبتُ معصية العيش
رغمًا عني
أعتدلُ في ربيعٍ جديد
خالٍ من الزيوتِ والمواد المؤكسدة
وأذكر تلك الساعات
التي كنتُ فيها أجن
لأني أفكِّر
بأنكِ لا تفكِّرين بي
***
الغرفة الموبوءة بي
تتطاير منها نجوم
وبَخور
وأحلام
شهدتْ استمنائي الأول
وقصيدتي التي كتبتها في عمر السابعة عشرة
توقفتُ بعدها عن الكتابة طويلًا
كأني رامبو
أو مراهق عربي آخر

البركة
الزنابق
الأشجار المقطوعة
التي أتبوَّل عليها
ردمها أبي
وألغى المساحات الخضراء
ولم يترك سوى زنابق
لا أعرف اسمها
هل تصدقين أني
لم أكن أعرف اسمكِ
في تلك الأيام
***
شوكتكِ
في قلبي
تستقر وتصطادني
أحاول الهروب بعيدًا
والنجاة
مع أني في جميع الأحوال
أراكِ قريبًا
كحتفي.

2

استمري بالشتات
بالوضوح
باللانهاية
باللحظات..
استمري فيَّ
ولا تغنِّيني
بل اتركي لي هذا الخراب
فهو كل ما تبقَّى
من الماء

***

أنرتُ في الليالي
ضعتُ في الرياح
امتزجتُ بالطين
وسمَّيتكِ عمرًا منثورًا
وحكايةً دون اسم
ورقم:

***

سوداء كالحبر
مكانك الطبيعي قلبي
بعد أن تصفى
منه الدماء..
فمي
بعد أن تتساقط
منه الكلمات..
درجي الأخير
في الخزانة
الذي أبقيه فارغًا
فلا أسرار لديّ

3

عودي إلى قلبي شرارة
جسراً بدائياً
تعاويذاً
خسارة
كوني الرحيلَ
وقصة الموتى
وآلاف الجنود
وموكب السعداء
والماضينَ
والغرقى
وأفواه الجياع
ولوثة الماضي
ودمع اليوم
والإنسان مسحوقاً
على كل الدروب
كوني الصهيلَ
وموعد اللاشيء بي
ودمي الحريق
كوني أنا
فأنا بدونكِ معجزة!

4

استريحي في الجراح الآمرة
ما قيمة الإنسان مسلوباً
وما جدوى الكرة
إن لم نَفِض في الوقتِ والطرقاتِ
أو نُحزِن بقاءَ الماءِ
أو نُقدِم بلا أسباب
أو نعلن ضياع الآه
أو نُسلم لأشرعةٍ فجائيَّة
بلاهتنا الجنونيَّة..
فما معنى الحياةِ
وسعر التذكرة؟

5

افتكرتُ الموج فيكِ
انتقيتُ الليلَ نجماً
إثر صورة
كنتُ فيها الضائعَ المعروفَ
أو ليل الطائرِ الملائكيّ الحزين..
قبل بدء الطوفان كنتُ
قبل حريق روما
قبل اندثار اللغات
قبل زوال مجرتنا
قبل هذا الصدى العقيم العظيم
أنا هنا
أسيل
أسيل
أنا هنا
ومضيتُ
وستمضي ذرات الغبار
المجزرة.

ناريمان حسن

شاعرة كردية سورية. من أعمالها المنشورة: "أشياء يدخرها المرء لنفسه" عن دار رواشن – الإمارات، "غزالة تعرج نحو منفاها" عن دار التكوين – دمشق.

بوابة الزمن

السماء ملبدة بالغيوم

ضباب كثيف يكتنف عقلي

أصوات الرصاص

تخترق حاجز الصمت

الذي بنيته...

يخيفني كل ما يحدث

خلج نافذتي،

وكل ما لم يحدث

هنالك ما ينوب بخفة

كما لو أن ماءً ينوب في الجليد

كما لو أن أقدلراً تنهار

بأيد شريرة وملوثة، طنين خفي ينذر

بحدث مشؤوم

ثمة ما يقف بيني وبين نفسي

ما يريني العالم خراباً. مهما ابتعت أقلام

ملونة

ورسمت. هامش ما لا يمكن إصلاحه

لا يأبه بغير ذاته ككيان مستقل

وما عداه فتات.

أتزين لأصدقاء لا يأتون

أتزين لأيام بقامات مكسورة

أتزين للأفراح

التي لا تحضر

للحبّ الممدد إلى جانبي

للفراشات التي تنمو داخل جسدي

باستمرار..

لرجال يأتون من العدم ويغادرون

أتزين للحنين

الحنين بأشكاله

وأنتظر، ربما يطرق بابي بعد قليل

شيءٌ ما شبيهٌ ببوابة

الزمن.

* * *

سنلتقي في الأيام الماطرة

في مدينة سكانها متعبون

من ازدحام الأيام

سنلتقي لنضيف للعمر إيقاعاً آخر

قد يكون عذباً كالطفولة

أو مخزياً كالحرب.

* * *

النسيم يجرحني

بهبوبه الخفيف،

هذه الليالي تحتمل أعذب الألحان

ولكنها ثقيلة

فيها ما يضيق بالإنسان

فيها ما تنفيه!

* * *

غدًا من الممكن أن أغادر

لإن ثمة جبٌ ما

يواعدني بالرأفة

أكثر مما فعل الضوء..

هذا الضوء المختل الذي ينبع

من أفئدة الوطن.

أوراق القصة

فدوى العبود

كاتبة وناقدة سورية، ماجستير في الفلسفة والأدب، من أعمالها: تلة يسكنها الأعداء.

سينما مصرية

يتبادل حسين فهمي وميرفت أمين قبلة ملتهبة، أراقبهما من نافذة غرفتي التي تطل على غرفة والدي الواطئة، يخاف والدي من الموت اختناقاً فيترك الباب مشرعاً؛ ومن الباب المفتوح أتابع معه كل خميس فيلم السهرة، دون أن يشعر بوجودي. أتابع القبلة حتى منتصفها؛ وحين يقرر المخرج قطع المشهد أُكْمِلها بخيالي...

لا شيء يفسد سكينة الليل، سوى تساقط قطرات الماء في علبة معدنية ونقيق الضفادع في الساقية القريبة؛ والعواء الحزين للكلاب في موسم التزاوج. كان ذلك كله يشكل مع شخير أبي معزوفة لا تتغير. وهي تتألف من نوتتي الشهيق والزفير يُضاف إليهما حصاد الخيبات والخسارات الذي ينتهي بأنينٍ طويل .

أعرف أنه كان ينتظر هذه اللحظة، لكن النوم يخونه كباقي الأشياء في حياته الخؤون؛ فحين زرع في العام الماضي عمّ القحط، وحين عمل في التجارة أغلقتِ الحدود، ولما قرر الاستفادة من قطعة الأرض ببناء يعيش من ريعه مُنِع البناء، وعندما حفر بئراً أُمِمَت الثروة المائية وحين قرر أن يصير صياداً سُيِّجَ البحر...

كان يصل متأخراً إلى كل شيء، وذنبه تتبّع أثر الآخرين، الذين يسبقونه فيضيع... أخيراً قرر الاعتزال، ليس في المسجد على غرار رجال الدين، ولا في الحقل على طريقة المزارعين الهبيين؛ الذين يطلقون شعورهم ولحاهم ويشردون بين المزروعات، بل على طريقة تتلخص فلسفتها في مشاهدة الحياة دون الغوص في طينها. فقد أمضى حياته يعتقد أن البرك الراكدة بحيرات عذبة، وآن له أن يتعلم.

لكن خديعة من نوع آخر سيتلقاها، وهي أن النجوم الوسيمين والنجمات الجميلات لم يكونوا سوى مهرجين وأنهم سيصبحون في وقت لاحقٍ علامةً على تردي الذوق.

اشترى تلفازاً بالأبيض والأسود، وطرابيزة خشبية بأقدام نقشت عليها أشكال فرعونية، وقرر مراقبة الحياة على الشاشة، مثلما يراقب السجناء السماءَ من خلف القضبان، ومنذ اللحظة التي أدار بها زر (الفتح) لم يغلقه .

كان ينتظر ليلة الخميس، حيث يخرج التلفاز عن روتينه المعتاد ليعرض أفلاماً يتم فيها تبادل القبل بسخاء. (على شاطئ البحر، فوق صخرة، أثناء تأدية الأغاني والرقصات، فوق السرير، وفي الحافلة. لحظة التعارف وعند الوداع) لكنه كان يغفو لحظة تبادل القبلة. فهو لم يكن يعلم أن مخرجي تلك الأيام أذكي من متابعيهم، وأنهم يكرهون المشاهد المتعجل الباحث عن البهجة المجانية، حيث عليك تناول طبق الحساء كاملاً حتى تعثر على قطعة اللحم.

بينما والدتي تنظر ببرود إلى إعلانات القُبَل، تحمل العشاء وتنظف فتات الخبز من بين قدميه وحجره الضخم؛ مذكّرة إياه بالنعمة التي يجب الحفاظ عليها.

منذ سنوات لم يكن التلفاز يسمح بالقبلة، فبمجرد اقتراب الشفاه بضع بوصات تظهر دعاية عن الصابون الحلبي الأصلي، أو علكة سهام والنفس الزكي. لكن ومُذ سمحوا بالقبل ولم يقطعوها وضع والدي حظراً عاماً على التلفاز.

بالنسبة لأمي فقد اكتفت براديو صغير يبث بين وقت وآخر أغنية لمطربها المفضل "محمد عبد الوهاب" وهو يردد بلهجته المصرية:

"جفنه (التي تلفظها كفنه) علم الغزل،

فحرقنا نفوسنا.. في كحيم من القبل *"

ونشدنا ولم نزل حلم الحب والشباب

إن عشقنا فعذرنا أن في وكهنا نظر*"

فالقبل التي ينتظرها والدي ونسيتها والدتي، والتي يَعِدُ المخرج الجماهير بها هي ذاتها التي يَعِدُ الإمام بها المصلين الذين يجلسون في البرد ويستمعون له، يعدُهم بقبل -في "الجنة" طبعاً- وليس في الأفلام، بشرط المحافظة على تشقق أقدامهم وجوع بطونهم .

بالنسبة لي فقد تركت لخيالي -وكما تعرفون ينمو الخيال كوردة الثلج فوق مرتفعات الحرمان- أقول: تركت لخيالي أن يتولى مونتاج (قُبَل) تضاهي في روعتها قبل حسين فهمي، أو رشدي أباظة ودون مونتاج أو رقابة .

بصراحة لا أعتقد أن جدي وجدتي كانا يعرفان لذة القبلة، وإن اختبراها ستكون سريعة ودون روح، فشفاههما جافة على الدوام. هذا الجفاف أصاب شفاه والداتي، والتي بدأت تطلب منا أن نفسح لها بيننا مكاناً للنوم، ما جعلني أشعر بالسعادة؛ لا لأني أغار على أبي، فهذا كان ممكنا قبل أن يتضخم؛ بل لأن رائحتها القرنفلية وحدها ما يجعل نومي هانئاً ودون كوابيس

وفي مقابل تضخم والدي، كانت والدتي تهزل وتسعل على الدوام. تشققت شفاهها، وصارت تنز دماً .

لقد سرقت ميرفت أمين وليلى علوي ما كان لأمي، واستردت أنا حقها فبينما يغط والدي في شخيره، أنتظر لحظة اقتراب الشفاه؛ وينزع خيالي بضربة مخلب ليلى علوي فأرميها مهمشة مثل فيل صغير جانباً؛ ثم أندس بين ذراعي رشدي أباظة أو حسين فهمي؛ وسأحتاج لوقت طويل بعد ذلك كي أنتبه للعينين البليدتين لحسين فهمي، أو الشفتين اليابستين لرشدي أباظة تحت شاربه المرسوم بعناية .

حين كبرت قررت أني لن أتزوج دون حب، كي لا أنتهي مع أولادي في غرفة ضيقة وشفتين يابستين، ولن أسمح لسينما مصريّة بدخول بيتي.

لكن أبي الصامت دوماً، والذي يفزع بمظهره الديناصوريّ أصدقائي؛ مات ولم تتح له متابعة فيلم حتى نهايته، ولا معايشة أبطاله الذين صاروا بفضل تلك القبل من أثرياء العالم، بينما هو وكل الحالمين يتضورون جوعاً ...

وجدناه ذات صباح وقد أزبد فمه وجحظت عيناه، غطته أمي بشرشف صغير وقالت بهدوء: نادوا على أقاربكم. بعد دفنه مباشرة، حاولت والدتي إطفاءه من أجل حرمة الموت لكن التلفاز تابع عرض برامجه.

عالج خالي الزر الذي تكلس دون فائدة، حاول ابن عمتي بعضلاته المنتفخة دون جدوى، وبدلاً من وداع الميت تجمهر الجيران حول الرجال الذين يتعاركون في الفناء مع تلفاز ثرثار. في نوبة غضب يائسة صعد عمي السلم وألقى به بين أقدام الناس الذين تركوا التابوت وتابعوا مسلسل التحطيم ...

وبعد موته بدأت أمي تشخر بذات النغمة؛ أما أنا فقد تزوجت الرجل الذي أحببته، وكلما زارتني ننام معًا في غرفة واحدة مع ابنتيّ اللتين نهتاني أن لجدتهما ملمس صدفة سلحفاة .

في الغرفة المقابلة ينام زوجي، يقضي ليله وهو ساهٍ أمام قبل ريتشارد غير وجوليا روبرتس.

زوجي لديه برنامج حديث لتصنيف أفضل القبل السينمائية، وفي قائمتها قبلة كلارك جيبيل، وفيفيان لي في "ذهب مع الريح"، لديه قائمة طويلة (قُبل وسط رشاشات المياه، فوق مرتفعات الجبال والزلاجات الثلجية، قُبل وسط الألعاب النارية الخطرة على طريقة ألفرد هتشكوك)

منذ سنوات صار يرغب بالنوم بمفرده... وصار يتضخم ببطء. وتحول شخيره من ثلاث نوتات إلى نوتتين. أدخل غرفته فأجد أبطاله غارقين في قبلة عميقة على الطريقة الأميركية (قُبلةٌ كتلك التي تحدث في أفلام النصر على الأشرار. كالتي يتبادلها الجنود العائدون من بطولاتهم في العراق وأفغانستان، وفيتنام، قُبل ملحميّة) وهي بخلاف القُبل المصريّة التي كان أبي يشاهدها. تَحدثُ وكأنها نصر مضاعف، بدوافع بطولية لا شخصية محضة، ولا نزواتيّة، يعمل فيها اللسان والأسنان، وشعارات النصر، والجمهوريات، وتحرير الشعوب من ظلامها لتدخل ظلاماً أعتى... متحررة لا يقطعها المخرج، يمكن أن تعيدها من جهاز التسجيل لمرات ومرات... لا تنتهي بانتهاء الفيلم، بل تتابع نموها كوردة سوداء.

أغطيه بالبطانية، أغلق التلفاز، أشعر بحكة في شفتي، أمسحهما براحتي وأنظر للمرآة، فتتلوث بدم قانٍ.

"كان لهما ملمس صدفة"

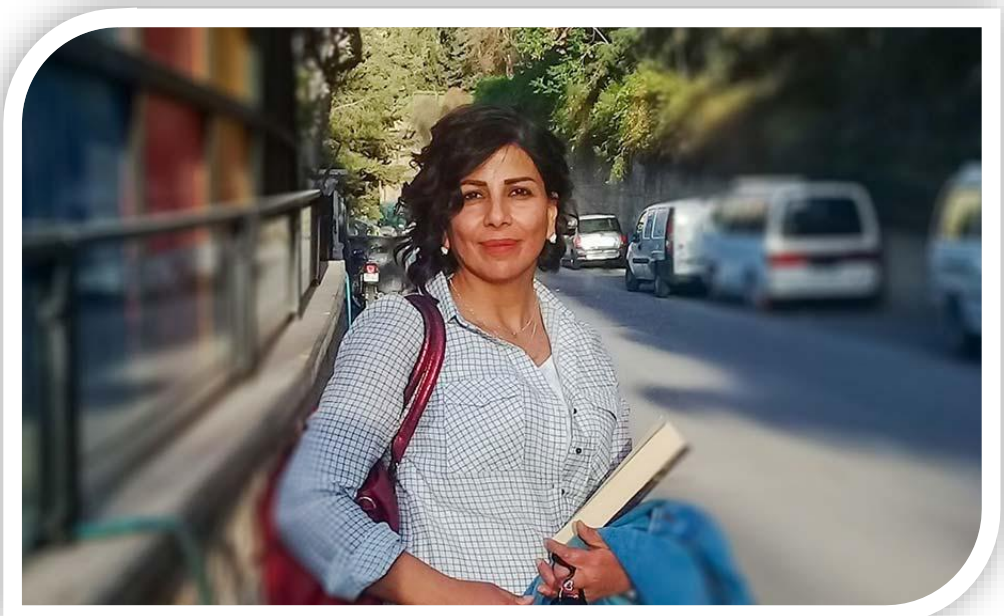

روعة سنبل

صيدلانية وكاتبة سورية في القصة القصيرة والنص المسرحي وأدب الطفل.

حزنٌ برائحةٍ واخزة

منذ سنوات، تُنتهَك أنوثتها بغُلظة، تُجتَثّ أجنحةُ بعض أمنياتها بقسوة، وتُوأد كثيرٌ من ملامح إنسانيّتها بعنف، بين الحين والآخر، تُحتضر الأمنيات والملامح، ثمّ تتبخّر كلّها.

هذه المرّة، تبخّرتْ ثمّ شكّلتْ سحابةً صغيرة، رماديّة من حزن، ظلّت تطوف جوفها أيّاماً، انشطرت سحاباتٍ صغيرةً مؤلمة، غلّفت قلبها ومعدتها ورأسها.

جرّبت لأيّامٍ الحلول التي تعرفها للحزن: فقرأت سوراً من القرآن، وصلّت ليشرح الله صدرها، شربت مغليّ أعشاب مهدّئة، وتجرّعت بعضاً من حبوب مسكّنة، وأخرى مضادّة للاكتئاب، ثرثرتْ في الصّباحات مع جاراتها، وبعد الظّهر أغرقتْ نفسها في أعمال المنزل، فأعادت طيّ الثّياب في الخزائن المرتّبة، وغسلتْ زجاج النّوافذ النّظيف أصلاً، ومسحت السّجاد والأرائك، أعدّتْ وجبات طعام صعبة التّحضير، تتطلّب مهارة، وتستهلك وقتاً .

تعبتْ، لهثتْ، تعرّقتْ، آلمتْها قدماها، احتجّتْ ركبتاها، ولولَ ظهرها !

لم تزدد سحابتها إلّا كثافة وسواداً وثقلاً، حبلى بحزن يركلها، دون أن تتمخّض ولو دمعة واحدة فترتاح، اكفهرّت سماؤها، وغرق كونها في الظّلمة.

لجأت للحلّ الأخير، على طاولة خشبيّة في مطبخها جلسنَ معاً، هي، الكسيرة المقهورة، وهنّ، على اختلاف أحجامهنّ، مكوّرات، محتجبات.

فكّرتْ: كم يشبهن بعضهنّ بعضاً، ويشبهنها!

أعدّتْ ركوة قهوة كبيرة، ارتشفتها بمفردها بهدوء، بينما رحنَ يرقبْنها بفضول.

بهدوءٍ مجرم، ولذّةٍ مريضة، حزّت بسكّينها الحادّة ثيابهنّ، قرأت الرّفض في عيونهنّ المستكينة فازدادت متعتها، عرّتهن باستمتاع: الطّبقة الأولى، فالثّانية .

تجرّعت مرارة قهوتها بسعادة، وبتشفٍّ راحت ترقب انعكاس ابتسامتها على سكّينها، تتأمّل بنشوة استغرابهنَ، ذعرهنّ، ضعفهنّ، استسلامهنّ، والبياض الشّاحب لعريهنّ.

بسكّينها الحادّة نفسها، أخذتْ تخِزُهنّ، تستمتع بمراقبة خدوش سطحيّة مرّة وعميقة مرّة، تخطّها هي عليهنّ، أشفقت لحالهنّ، مسكينات، أنّى لجروحهنّ الالتئام، محرومات هنّ من دفق النّزف، ومن لذّة نكء الجرح نفسه مرّة بعد مرّة، في غمرة شرودها خدشها النّصل، راقبت الدّم

النّازف من جرح صغير في طرف إصبعها، عصرتْه ففرّت القطرات حمراء، خضّبتْ بها أجسادهنّ، شابتهنّ حمرةٌ خفيفة، فصارت جروحهنّ أكثر واقعية، فابتسمتْ برضى.

بسكّينها الحادّة نفسها، بتأنّ شديد وإتقان ملفت، أفرغتْ شيئاً من غضبها المكبوت، وحزنها المكتوم، بأجسادهنّ المذعورة الملتفّة البضّة .

تبعثرت حبّاتُ البصل على لوح الفرم أمامها مكعّباتٍ وأجنحة، انبعثتْ منهنّ رائحة قهر واخز، تحرّض على البكاء، لفّتها الرّائحة، سكنتْ أنفها، حاصرتها، وحين أدركتْ أنّ اللحظة الذّروة اقتربتْ، وآن الهطول، أسندتْ ظهرها إلى الكرسيّ، واستسلمتْ.

هطلٌ هادئ، ثمّ غزير، تبعثرت بعده سحابتها شيئاً فشيئاً، ثمّ تبدّدت.

بكت حتّى تورّمت عيناها، مستعينةً بين الوقت والآخر بعلبة مناديل ورقيّة.

أحضرتْ أكياس مؤونة، شفّافة صغيرة، وضعتْ في كلّ منها حفنة ممّا اقترفت يداها، ثمّ أودعت كلّ كيس في آخر أكبر، أحنت رؤوس الأكياس، ثمّ شنقت أعناقها بإحكام، كي لا تفضح الرّائحة المنبعثة جريمتها.

ألقت أكياس أشلائهنّ في عمق الثّلاجة، وأغلقت الباب.

اختارت تحضير وجبة تتطلّب وجودهنّ، بدا لها طبق "مسخّن الدجاج" مع "شوربة العدس"، خيارين ملائمين.

انقضت نوبة الكآبة مع انتهائها من إعداد الغداء، كل ما يلزمها الآن حمام ساخن جدّاً بصابون معطّر لتتخلّص تماماً من رائحة الحزن!

على الغداء، قال طفلها :

- "ماما! الطّعام طيّب اليوم"

بحثتْ عن نظرة استحسان في وجه زوجها المتجهّم دوماً، هرب بعينيه إلى الورقة المثبّتة بمغناطيس على باب الثّلاجة، قرأ لوازم المنزل، التقتْ عيناها المستكينتان بعينيه اللّتين تقدحان شرراً، ارتعدتْ حين نهَرَها صارخاً باستنكار:

- "بصل! ما قصّتكِ أنتِ؟

منذ يومين أحضرتُ بصلاً، معقولٌ أنّك استخدمته كلّه!".

موسى الزعيم

قاص سوري من إدلب، من أعماله: قمر الليلة الثالثة.

عَربةُ غرفةِ التّحقيق

كأنّ غيمةً من صمتٍ وترقّب، هبطتْ عليّ حين دخلت المبنى الكبير ذا الباب الخشبي الثقيل عبرَ كوّة ضيّقة مَددتُ يدي، ناولتُ الرجلَ الجالسَ فيها ورقةَ الموعد وبطاقتي الشخصيّة، أشار إليّ بيده:

-استرح هناك ريثما يحضر المترجم.

ما في داخلي صار يرتجفُ، يهتزّ وكأنني أتمددُ في مجال قطبَي مغناطيسين كبيرين، كلّ يشدّني باتجاه، فأطرد تلك الهواجس حين أرى ابتسامة الخارجين من البوابة الكبيرة.

لا يعرفُ الهدوء طريقاً إلى روحك هنا، حتى لو كنتَ صاحبَ حقّ وتعلم أنّ حقّك سيعودُ من بين ملفاتهم.

على كلّ حال، ليس لديهم شيء ضدّي، فمنذُ وصولي إلى هنا لم أرتكب جنايةً ولا جنحةً كبيرةً ولا صغيرة.

قلقاً أتململُ على المقعد الخشبي، والوقت كعادته يسري ثقيلاً هنا، أنظرُ إلى الساعة الكبيرة المعلّقة على الجدار، فأعرفُ أنني وصلتُ قبل موعدي بربع ساعة.

النوافذُ عاليةٌ لا مجال للنظر إلى الخارج والباب الكبير كبابِ قلعة موصد، أسالُ نفسي :

هل بتّ متهماً أو معتقلاً عند الأمن الجنائي؟

أتذكر نصيحةَ الطبيب النفسيّ.. اللوحات المعلقة على الجدران محرقةٌ للوقت، إذا رأيتها على جدران المشافي والعيادات وأماكن الانتظار الثقيل، تذكّر أنّ لها هدفاً آخر غير الديكور، عندها أفرغْ ضجرَكَ فيها، تتبعْ خطوط الألوان، واسألِ الفنان: لماذا فعل ذلك؟

بحثتُ في الجدران فلم أجد أيّ لوحةٍ.

أسندتُ رأسي إلى المقعد، بدأتْ ذاكرتي تزحفُ بي شيئاً فشيئاً باتجاه الماضي، كما عادتها في تلك المواقف، تعيدُ توليفَ قصصٍ قديمةٍ مَطويّة في ملفاتها وترسلها إلى ساحة تفكيري إلى أن تحوّلت إلى سيولٍ من صديدٍ مرٍّ، بدأ يضجّ به رأسي.

هكذا شخّصها لي الطبيب النفسي الذي زرته آخر مرّة.

" اِكبَحها"، قالها بالحرف الواحد، "اشكمها بالنظر إلى اللوحات، بالأشجار، صارعها بأحداثٍ جديدةٍ، اقفلْ بابها، إن استطعتْ غنّ، ارقص.. المهمّ لا تتركها تفتح أبواب جهنمها عليك "

وحاولتُ، وفشلت.

* * *

ترتدّ إليّ صورتي حين وقفتُ على باب فرع الأمن العسكري لاستخراج تصريح روتينيّ لدخولي مدينة القنيطرة، وقتها كنتُ أتساءل: هل يحتاج المرءُ إلى تصريح ليزور قطعة من تراب وطنه؟

يومها دخلتُ المبنى وأعطيت أوراقي للمساعد، فطلب منّي أن أنتظر حتى يُدخلها إلى الضابط، عاد سريعاً وهو يقول مؤكداً: "سيادته طالبك."

راحتْ ذاكرتي تقلّب أوراق خيبتي وملفّات شقائي، لا بدّ أنّي ساقط على وجهي هنا لا محالة.

بدأت أتذكّر ماذا فعلتُ منذُ ولدتني أمي إلى هذا اليوم الذي أقف هنا بين أنيابهم، ارتبكتُ خفتُ..

عندها تذكرتُ مقولةَ ضابط أمن اللواء الذي أدّيتُ فيه الخدمة العسكرية. عندما أنهيت خدمتي راح يساومني على توقيع أوراق براءة الذمة، يريدني أن أخبره بملفات الضابط الذي كنت أعمل تحت إمرته وهي أمور تتعلق بالفساد، والرشاوي، وهروب عساكر، واختفائهم. راح يحدثني عن الوطنية والأخلاق وحبّ القائد وغيرها، وهو يحسبني لا أعلم خبث نواياه، كان همّي الوحيد حينها أن أخرج بسلام

فالتزمتُ الصمت.

طردني من مكتبه مرتين وفي الثالثة أمسكَ الورقة ووقّع عليها، وهدر قبل مغادرته المكتب: "بدّي اخرب بيتك وين ما كنت.. انقلع"..

ما زلت أقف عند الباب، المساعد مشغول بالردّ على الهواتف، وصلت إلى قناعة تامة أنّ الضابط الملعون فعلها بي وأرسل تقريره إلى المخابرات العسكرية .

كان المساعد حين ينتهي من مكالمةٍ هاتفيةٍ يرشقني بنظرةٍ حادّة ثم يقول متهكماً: "شو عامل أستاذ؟"

ولا أجد جواباً، فينقذني رنين هاتفه من براثن ابتسامته الصفراء.

أهربُ بعينيّ بعيداً عنه، كي لا تقع في مجالِ نظراتهِ الحادّة، أُشغلها بالنظر إلى السقف والجدران التي تقشّر دهانها ولا لوحات فيها سوى صورة القائد بالبدلة العسكريّة، سيحرقُ النظر إليها ما تبقى فيك من أعصاب، قبل أن تحرقَ وقتكَ في تأملها أكثر .

صارتْ أظافرُ الخوف، تحفرُ في داخلي أخاديدَ، تصيرُ الأخاديد حُفراً. كنتُ على وشكِ السقوط.

أخرجني صوتُ المساعد من دوامتي: "تعال سيادته طالبك "

مشيتُ خلفه، فتحَ الباب، سبقني ووضعَ ملفاً من الأوراق أمامَ الضابط، من بعيد لمحت بطاقتي الشخصيّة فوقها، فأيقنت نهايتي .

بالكاد خرجتْ كلماتٌ ناشفةٌ من حلقي المتخشب: "احترامي "..

ردّ "أهلاً" خاطبني من دون أن ينظر في وجهي، "أنت شو بتدّرس؟ "

"تاريخ سيدي "

"يعني مو رياضيات "

"لا. تاريخ سيدي."

....."عليك وعلى التاريخ "

ثم تمتم "ما استفدنا شيء" ثم رفع رأسه "اعتقدت أنك أستاذ رياضيات أو فيزياء ربما نستفيد منك في تدريس ابني، هو في الثانوية العامة."

أنهى كلامه وهو يمدّ يده بالأوراق: "انصرف"..

* * *

صحوتُ من دوامتي على صوت الرجل الأشقر الطويل الذي وقف أمامي يمدّ لي يده مصافحاً، قال بعربية مُطعمة بالألمانية.

" أنا المُترجم "..

من الدرج الذي يتوسّط البناء، نزلَ رجلٌ نحيفٌ، بهدوء اقترب منّا، خاطبني باسم عائلتي ثم قال لي :

"أنا المحقق" صافحنا وأبقى يده في كفّ المترجم وهو يقول: "اتبعوني" فصعدنا خلفه.

عندما فتح باب مكتبه، اتجه صوب خزانة، تناول منها ملفاً ثم وضعه على الطاولة.

كان أوّل ما أثار خوفي وريبتي في الغرفة حينها حِبالٌ وأكبالٌ رفيعةٌ، سيور من الجلد ومقبضين سوداوين ومجموعة خيوط متينة تتوسطها قطع خشبيّه طولانية كالعصيّ الغليظة مثقوبة تمرّ خيوطٌ خضرٌ رفيعةٌ منها وكأنها منحوتة باليد، كلّ ذلك معلّق على الجدار المقابل لباب الغرفة، على الجدار الثاني؛ كانت مجموعة من الصور بالأبيض والأسود تتوسطها عصا خيزران طويلة رفيعة في رأسها سوط من جلد أسود .

طلب منّا الجلوس، تردّدتُ، فليس من عادة هكذا أمكنة أن تسمح للمدعوين إليها بالجلوس .

جلسنا متقابلين أنا والمترجم الذي كان بين الحين والآخر يسألني عن أسماء مدنٍ وبلداتٍ زارها في وطني.

كنتُ أعلم أنّ ثقتهم بالمترجم الألماني تفوق ثقتهم بمترجمٍ آخر من اللغة الأم على الأقل فالمحققُ لا يشكّ لحظةً بولاء المترجم. على كلّ حالٍ، لا مكان للثقةِ في هكذا دهاليز.

كان مكتب المحقّق خشبياً عتيقاً، الخزانات قديمة، وحتى الملفّات والأدراج تفوح منها رائحة تاريخ يشكّ من يدخل هنا في براءته .

المُحقق الهادئ ذو الشعر الطويل والخدين الضامرين، يرفع عينيه بعد أن غرسهما في دفترٍ كبيرٍ، يتّجه إلى المترجم ويقول له :

أسأله: هل يعرف لماذا هو هنا؟

يسألني، وأجيب بالنفي!

يقول لي مستغرباً: أنت هنا كشاهدٍ، ألم تقرأ ما كُتبَ في الدعوة؟

أجيبُ أنني قرأت ولم أفهم ما فيها..

يشرعُ في أسئلة روتينية من أين أنت؟ ومتى وصلت إلى ألمانيا؟ ثم تأكد من عنوان سكني.

بدأت أسئلته تشعرني بالاطمئنان حين صار يسألني عن وضعي الصحيّ: هل تعاني من مرض مزمن؟ هل تستعمل نظارة؟ هل أجريتَ عملاً جراحياً...؟

أجبت بأنّ صحتي جيدة والحمد لله، وليس عندي شيء مما ذكره.

ومن ثم راح يسألني، وهو يخرج الكلمات من فمه بتسلسل روتيني بطيء وينظر في عيني :

هل خضعت لفحصٍ طبّي يتعلّق بالأذن عندما وصلتَ إلى ألمانيا؟

نعم أذكر ذلك، كان ذلك في مركز استقبال اللاجئين في "الكامب" ثم أردفت واختبار للرئتين أيضاً .

راح يراودني شكٌّ غريب، لعلي مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ ربما يهدد الأمن القومي للبلاد وعليه يمكن حجري أو ترحيلي.

بدأتُ أرتعبُ، وصرت في رهبةٍ أختلس النظر إلى الحبال المعلّقة على الجدار .

حسناً هل حصلت على جهازٍ لتقوية السمع حينها...؟

لا.. لم أحصل !

أذكر أنّ الطبيب قال لا مشكلة لديّ في السمع وها أنا أسمعك جيداً .

هل تعرف الطبيب؟

لا...؟

هل وقعّت على أوراق حينها؟

ربّما.. نعم.. لا أتذكّر بالضبط..

حتى لو وقعّت في تلك الأثناء، ففي غالب الأحيان لا أعرف ما بها بسبب عائق اللغة !...

شكراً لك هذا يكفي ..

يلتفت المُحققُ نحو المترجم ويتحدّث حديثاً طويلاً ثم يطلب منه أن يترجم لي بهدوء ما قاله

يقول المترجم :

الطبيب طلب منك التوقيع على وصل استلام جهاز خاصّ بالسمع، وأنت واحد من كثيرين فعلها معهم، وأنت لست متهماً هنا، أنت شاهد فقط.

شكراً لشهادتك، لكن في المرّة القادمة لا تضع توقيعك على شيء لا تعرف مضمونه

ثم أخبرني المترجم أنّ التحقيق انتهى، وإن كان لديّ تساؤل، يمكنني طرحه

أجبت بالنفي..

ثم مدّ لي ورقة وقال :

وقّع هنا..

ابتسمتُ وقلتُ إنني لن أوقّع حتى أعرف ما بها

ابتسم المُحقق وهتف هذا جيد، بدأتَ تفكّر بشكلٍ صحيحٍ ..

قال المترجم: إنّه تصريح بأنك لم تتعرّض للتعذيب هنا أو لم تنتزع منك الاعترافات قسراً .

كما يفعل المُمتنّ، مددت توقيعي نحو اليمين ونحو الشمال كما لم أفعل من قبل

يقول المُحقق: تستطيع أن تذهب، ثم بدأ بخوض حديثٍ سريعٍ مع المترجم عن صورة معلّقة في الجدار .

انتهزتُ الفرصة، وقلتُ للمترجم: هل يسمح لي السيّد بسؤال خاصٍ؟

ردّ المترجم: سؤال خاص؟ ليس مجاله هنا ..

قلت: عفواً أقصد خارج سياق الموضوع الذي جئنا من أجله .

هزّ برأسه: إسأل !...

في ريبة أشرتُ إلى الحبال المعلّقة على الجدار وقلتُ: ما هذه؟

ابتسم المحقق، واتجه مباشرة نحوها، كانت ابتسامته قد أزالت قليلاً من جليدٍ تعلّق على روحي ..

اقترب حتى كاد يلامس الجدار ثم أمسك بمقبضين متباعدين، شدّهما، فَرَد ذراعيه فتشكّل وسط الغرفة هيكلُ يشبهُ عربة الخيول على شكل شبكة من حبالٍ رفيعةٍ تتدلّى في آخرها كتلتان من حديدٍ يقارب وزن كلّ واحدةٍ منها الكيلو غرام يتدليان كبندولين كبيرين حتى يلامسا الأرض .

التفتَ إليّ وقال:

هذه عربتي، أنا أحبّ الخيول والعربات وكلّ ما يتعلّق بها .

ثم أمسكَ مجموعة من الحبالِ الرفيعةِ، شبّكها بين أصابعه، شدّها ثم راح يحرّك أنامله كمن بدأ العزف، صار يشدّ ويرخي إلى أن توازنت الكُتل وصارت متساوية ككفتي ميزان، ثم نقل الحبال إلى يده اليسرى وتناول بيمينه المِهماز المعلّق على الجدار وراح يهشّ على فرسيه في الهواء وانطلق.

بعد قليل، أرخى الحِبال، فعادَ كلّ شيء إلى مكانه ملتصقاً بالجدار.

التفتَ إليّ وقال :

عندما أعاني من التوتر وضغط العمل، أفرغُ ذلك كلّه هنا في هذه العربة، فيعود إليّ توازني وأشعرُ بالهدوء .

بعدها أشارَ إلى صورٍ ولوحاتٍ معلَّقة على الجدار، ليشرحَ لي أنَّه فارس وقد نالَ جوائز كثيرة في سباق عربات الخيول..

ثم نظر إلي وخاطبني مباشرةً، من دون أن يستعين بالمترجم هذه المرّة :

أنا أفهمك تماماً، نحنُ لسنا في بلدك الأم، وأشارَ صوب النافذة.

انظرْ إلى الشمس، نحنُ في الطابق الثالث ولسنا تحت الأرض!

عماد كوسا

كاتب وقاص سوري، صدر له عدد من المجموعات القصصية ورواية.

ضباب

قبل ثوانٍ معدودة هويتُ بجسدي على المقعد داخل سيارتي وقبضتُ بيدي اليسرى على المقود فيما كانت يدي اليمنى تعبث بمفتاح السيارة لتشغيلها بسرعة. وأدركت أنه يجب وضع المفتاح في مكان ما حتى يدور المحرك. بحثتُ بجهدٍ عن المكان المناسب الذي يتطابق مع المفتاح غريب الشكل، حتى وجدته. ترتعش يدي بتناغم مع دقات قلبي، وبانسجام تام مع صفير الهواء على جوانب السيارة ووقع الأقدام على الأرض. يعلو الصخب ويخبو كموج بحر يرقص على إيقاع ريحٍ صرصر.

لكنّ السيارة لا تدور، إنها لا تزال صامتة مثل كل شيءٍ بداخلي، ليس لدي الوقت الكافي لأتحمّل عبئها، إذْ يتوجب عليّ الإسراع نحو مدرسة ولدي سعد لألتقطه من بين حشود الأطفال الصغار الباحثين عن أهليهم بحث الخراف الصغيرة عن أمهاتها. سعد سيشعر بالقلق والهلع، قد يبكي ويملأ صراخه الأجواء، إذا لم يجدني في انتظاره.

هل عليّ أن أدير المفتاح؟ سأحاول، لكن في أي اتجاه؟ إلى الأمام أم إلى الخلف؟

تمرّ في مخيلتي صورٌ من أيام الطفولة، حينما كنتُ أقعد خلف مقود سيارة أبي، يختفي جسدي الصغير خلفه وبالكاد أستطيع رؤية الطريق. كنتُ أدير المفتاح بعفوية، أضحك من نفسي الآن. بعد خبرة أكثر من خمس وعشرين سنة خلف المقود لا أعرف في أي جهة أدير المفتاح .

ضبابٌ في الخارج يخفي كل شيء، غبشٌ على الزجاج الأمامي من الداخل، فراغٌ في رأسي. كل شيء يبدو بنصف وجه، حتى وجه سعد، أشعر كأني بنصف تاريخ. صدقًا ليس لدي الوقت للضحك والاستهزاء، أعرف سعد جيدًا حينما أتأخر عليه قليلًا .

ها قد وجد الخوف فرصته ليكتسح قلبي في لحظة ضعف، ولا أملك ما أواجهه به، ترتعش يدي أكثر ويكاد يسقط المفتاح أرضًا، كما سقط كل شيء من حولي. ينقبض صدري وتزداد دقات قلبي ويسيل العرق على جبيني متحدرًا على وجنتي وعنقي. قشعريرة باردة تهدد وجودي. هناك شيءٌ ما ليس في مكانه الصحيح. لستُ على ما يرام. يصعد الدم بعنف نحو رأسي الذي صار مثقلًا. بدا كرأس من الكُرُنب لا ينفع للتفكير، للتذكر، لأخذ قرار ما. ابني سيخرج من مدرسته بعد قليل. وجهه كما القمر الساطع وسط غيوم الربيع، شعره المذهب المسترسل يتدلى على حاجبيه فيخفي نصفهما، عيناه البنيّتان الواسعتان كعيني ظبية تبرقان أملًا وبراءةً، كعيني أمه حين التقيتها للوهلة الأولى، تقرأ في بؤبؤتيهما قصصًا لا تنتهي، تفيض كنهر منبعث من أعالي الربيع تخرج مياهه عن مجراها الأزلي، وتنحدر عبر الأهداب الضعيفة المتباعدة إلى حواف مجهولة بعيدة عن كل شيء نعرفه،

خدوده المتورمة المحمرة دائمًا كأنها صارعت للتو صقيع الشتاء، أو مرت عليها كلمات تأنيب من أمه، يكاد فمه يكون مهملًا لصغره، لا تشعر بوجوده لولا احمرار الشفتين من تحت أنفه الجميل، كأنّ أمه قامت اللحظة بسرد حكايتها عليه فتركت على مجمل ملامحه خوفًا وترقبًا لمصيرٍ مجهول. سرعان ما ستنسكب الدموع رقراقةً وتسيل على مآقيه المحمرة، لا أدري كيف أعالج فيه خصلة الخوف من الضياع، الخوف من كل شيء يحيط به، الخوف من بُعده عني وعن أمه. آه ليتني استعنت بأمه في رحلتي هذه، كانت ستشد عضدي، وترشدني كيف أدير المحرك، وسط تعليقاتها الساخرة التي كانت ستبدو ألطف من هذا التوتر الذي ينتابني بشدة.

على كل حال اتخذت قراري وبدأت أدير المفتاح إلى الأمام. أنتظر برهة مترقبًا سماع صوت المحرك الذي سيبدو وكأنه يفيق بصعوبة من نومٍ عميق. تمر لحظات دون ان أسمع أي شيء صادر من سيارتي. لم يتحرك المفتاح قيد أنملة، لم يدر للأمام، وبطبيعة الحال أدركت أني أدرته في الاتجاه الخاطىء، وسرعان ما شرعت في إدارته نحو الخلف، مفعمًا ببعض الأمل. لكنه لا يتحرك أيضًا، يبدو عالقًا لا يريد أن يتزحزح كهذه الكتلة الضاغطة على صدري. هل أفتح الباب وأنادي أحد الجيران؟... ماذا أقول له؟

- من فضلك هلّا ساعدتني في تشغيل سيارتي .

كيف سأبدو أمامه؟ ... سخيفًا؟.. أحمق، أبله؟ أم سيعتبرني أمازحه فيزدريني وينأى بجانبه عني وهو يرشقني بكلمات لا أسمعها جيدًا، أو أتظاهر بذلك. أحاول تذكر الأمر.

ماذا أفعل إذًا؟ هل أعود فأخبر زوجتي؟ لن أخجل من توبيخها، سأتجاوز عن سخريتها أيضًا، تلك المرأة التي تكمل فيّ جوانب النقص، تمسك بذراعي حين أكون على وشك التلاشي والضياع، أحنّ إليها كثيرًا، ليتها تأتي الآن كما اعتادت أن تأتي كلما وقعتُ في ورطة. أسمع صوتها تخاطبني:

- لا تتأخر على سعد، لا تذهب به إلى أيّ مكان، عودا إلى البيت فالغداء جاهز.

لقد قضيتُ سنواتٍ طوال من عمري وأنا أدير هذا المفتاح بعفوية مطلقة دون أن أفكر في الأمر كيف يتم. ولم أتلكأ ثانية واحدة في تشغيل هذه السيارة الجامدة. تغيب الصورة أمامي، كلُّ شيءٍ مارسته عبر تلك السنوات خلف هذا المقود ضبابيٌّ بالكامل .

أشعر بخفقان شديد داخل صدري الذي صار كبالون تضخّم من الهواء البارد اللاذع، أشعر بتوتر شديد.

لا بد أنكم بدأتم تظنون أني فقدت ذاكرتي، إنكم مخطئون، وإنّ بعض الظن إثم، فهأنذا أطرح على نفسي أسئلة كتلك التي يلقيها الطبيب النفسي على مريضه:

(ما اسمك؟ تاريخ ميلادك، اسم أبيك وأمك، تاريخ اليوم. أسماء إخوتك وأخواتك، أصدقائك. ماذا تعمل، ماذا تحب، تكره.....)

كلها أسئلة فطرية أجيب عليها بعفوية بالغة، وأجد من السخافة أن أخبركم بالإجابات.

أحرف رأسي نحو اليمين بحذر لأرى وجهي في المرآة.. أرى ملامحي، نعم هذا أنا بالضبط كما تركت نفسي ليلة أمس.

كيف ستتحرك هذه الملعونة؟ لقد استغرقتُ وقتًا طويلًا داخل سيارتي لا أعرف كيف أديرها، بدأت أتلهف حقًا على سعد، يصيبني الذعر، هل يمكن أن يضيع؟ أن يحاول العودة إلى البيت وحده فيتوه في شوارع المدينة. هل يتوه حقًا؟ فأفقده إلى الأبد. هل أحرم من عينيه وشعره، هل أنسى رائحته كما نسيت للتو كل شيء يتعلق بسيارتي. بدأت تنتابني هذه الهواجس المرعبة. وقد صارت يداي ترتعشان فوق المقود والمفتاح. كل جسدي يرتعش.

اسمع أصواتًا تقترب مني، هل هم الجيران؟ لن ألتفت إليهم.

- ماذا يفعل هنا؟
- دعه وشأنه، إنه يخرج كلَّ يوم في هذا الوقت من الخيمة ويعبث بهذه الخردة على أنها سيارته، وفي النهاية يخرج منها مذعورًا وهو يصرخ: إنها لا تدور. لقد تأخرت على ولدي.

ماذا يعني هذا الهراء؟

عمّن يتحدثون؟

أظنُّ أنّ وجهي قد احمر خجلاً، أو حنقًا، فأنا أشعر بالدم ينضح في وجنتيّ، أكره أن أخرج وأطلب المساعدة من أحدهم، ما اعتدت على طلب المساعدة من أحد.

ينقشع الضباب وأرى أمامي منظرًا غير مألوف لعشرات الخيم الممزقة، أفتح باب السيارة وأخرج منها مذعورًا وأصرخ بأعلى صوتي :

- إنها لا تدور، لقد تأخرت على ولدي.

أتلفّت بانتظار من ينتخي ويساعدني، أرى الضباب يتلاشى، تزداد ضربات قلبي عنفًا، أشعر برغبة عارمة في البكاء والصراخ مثل سعد، أتذكره وأمه، ألتفت خلفي إلى السيارة، أرى وجهيهما تلفّحا بالرعب وهما يصرخان مذعورين، تمتد يداهما نحوي وأنا أهرب.

تنفجر السيارة وتطيح بي بعيدًا و أنا أغيب وسط ضباب كثيف.

أوراق النقد

أنور بدر

رئيس تحرير مجلة أوراق

"اسمي زيزفون" للروائية سوسن جميل حسن

العبور من النص إلى الواقع والمسكوت عنه في ثقافتنا

"اسمي زيزفون" هي الرواية السادسة للصديقة والكاتبة الدكتورة سوسن جميل حسن، التي التقيتها أول مرة في مهرجان العجيلي للرواية العربية في مدينة "الرقة" في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠، والذي كان يُقيمه مدير ثقافتها حمود الموسى، مع كثير من الأنشطة الأخرى التي جعلت من الرقة مساحة مميّزة للثقافة في سوريا، قبل أن تُميّزها داعش بجعلها مركز خلافتها الإسلامية منذ بداية عام ٢٠١٤.

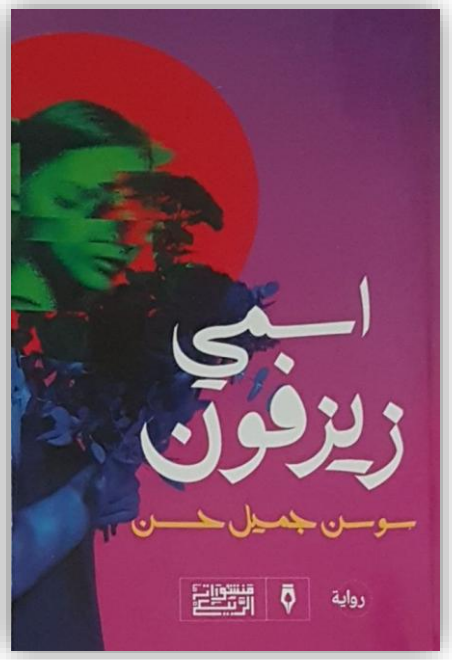

وما بين هذين التاريخين بدأت انتفاضة السوريين/ ثورتهم أو صحوتهم ضدّ نظام الأسد المستبد والفاسد، وانقسم السوريون كما انقسم مثقفوهم بين من انتمى لناسه ولحركة التاريخ والشعب، وبين من خشي سطوة النظام وبطش أجهزته الأمنية فاستكان لواقعه أو صدق سردية النظام حول المؤامرة ضد سوريا، وفي النهاية نعرف كلنا ما حصل في المقتلة السورية من تدمير سوريا وقتل وتهجير السوريين وضياع الأحلام.

حين التقيت الدكتورة الحسن عام ٢٠١٠، كانت تملك في منجزها الأدبي روايتين فقط، هما "حرير الظلام" و"ألف ليلة وليلة"، والآن امتد رصيدها إلى سبع روايات[١]، تركت كلّها بصمة مميزة في المشهد الروائي السوري والعربي، الذي تغير كثيراً في ضوء التحولات الدراماتيكية التي لحقت بسوريا والسوريين عموماً ومثقفيهم أيضاً، حيث هُجّر أو هاجَر أغلب هؤلاء المثقفين والكتاب، كما خاضوا في تجارب شخصية وإنسانية ومعرفية بالضرورة، أثّرت في طبيعة نتاجهم الذي بدأ ينوس بين تسميات أدب اللجوء وأدب المنفى وصولا لأدب الحرب، دون أن تغادر سوريا أبجديتهم وانشغالاتهم، هم ومن بقي من مثقفين وكتاب في سوريا، مع سمة أساسية لأغلب هذا المنتج الأدبي، تكمن في إعلاء قيمة الحرية مقابل الاستبداد الذي قاد سوريا والسوريين إلى أكبر مأساة إنسانية منذ نهاية الحرب الكونية الثانية.

هل هي مجرد صدفة أن المحور النقدي لمهرجان العجيلي للرواية قبل ثلاثة أشهر على اندلاع انتفاضة السوريين/ ثورتهم، جاء تحت عنوان "المحظورات في الرواية العربية"؟!

بغض النظر عن الإجابة أعتقد أنها كانت مناسبة ليقول أغلب المشاركين شهاداتهم في التعامل مع هذا المحظور في حياتهم وابداعهم، حيث قالت الروائية سوسن جميل الحسن في شهادتها: "تعودت على الكتمان منذ طفولتي، في البيت كما في المدرسة، كما في الجامعة، كما في العمل. كنت واحدة من تلميذاتٍ يَجلُسن على مقاعد الدرس لصق بعضهنّ، لمهمة واحدة فقط هي التلقي، كل ما يقدم لنا كان مسلمات علينا حفظها من دون طرح الأسئلة، كما في البيت، كانت قائمة المواعظ مفتوحة لا تنتهي، وهكذا حتى صار الصمت هو سمتي الكبرى، والحوار وطرح الأسئلة يستبدان بي في عالمي السري. فكان أول محظور أخترقه، هو سكوتي القسري بفعل سلطات عديدة، ومباشرة أول حوار بيني وبين الآخرين، عن طريق روايتي الأولى: حرير الظلام".

في تلك الرواية بَنت الكاتبة حكايتها حول شخصية "أعمى" أو كفيف البصر، محاولةً الغوص في نفسية هذه الشخصية وآلية وعيها وطريقة تشكيلها للمعاني والمفاهيم والأشياء، في غياب أي منظور لتحديد الشكل أو اللّون أو الجمال بعيداً عن الدلالات التي تصل عبر الحواس كالتذوق والشم واللّمس وصولا إلى اللّغة وسماع الأصوات وما تحمله من معاني يَجهد الأعمى لتشكيل معادل مفهومي لها في وعيه، غير أنّ الكاتبة اتكأت على هذه الشخصية المحورية وعجزها في الرواية لتُظهر أهمية المرأة في حياته، كما عبّرت في إحدى الحوارات معها: "تظهر المرأة بصورة الأم التي تحبه وتتفهم

---

[١] - صدر للكاتبة السوريّة سبع روايات بالترتيب:

١- "حرير الظلام" دار الحوار ط١ ٢٠٠٩، ط٢ ٢٠١١.

٢- "ألف ليلة في ليلة" الدار العربية للعلوم ناشرون عام ٢٠١٠.

٣- "النباشون" دار الآداب عام ٢٠١٢.

٤- "قميص الليل" دار نون للنشر في الإمارات العربية المتحدة عام ٢٠١٤.

٥- "خانات الريح" الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة: إبداع عربي عام ٢٠١٨.

٦- "اسمي زيزفون" 296 صفحة، دار منشورات الربيع بالقاهرة ط١ ٢٠٢٢.

٧- "وارثة المفاتيح" ٢٣٠ صفحة، منشورات دار الربيع، ط١ ٢٠٢٥.

حالته، وتأخذه إلى منزل العائلة الريفي قرب النهر، ليمارس هواية تشكيل الأجسام بالصلصال، ما نمّى إحساسه بالكتل والقياس الخاص به، وليتعلّم عزف العود، ثم يتزوج وينجب، ويعرض تماثيله في معارض، إلا أنّه يستعيد النظر بعد تطور العلم، ليتفاجأ بأنه متأخر ٤٠ سنة، وليشعر بالوحدة والوحشة، ولا يندمج مع محيطه في المجتمع ونظمه القيميّة، وبأن زوجته التي كان يراها من منظوره فائقة الجمال، قبيحة، ويجد تماثيله بشعة، وأخذت الحواجز تنشأ بينه وبين ابنه، ويحاول العزف فلا يستطيع، ليصاب بنوبة غضب ويبدأ بتكسير كل شيء، العود والتماثيل، ولينتحر أخيراً".

المرأة الأم والحبيبة أو الزوجة هي العنصر الفاعل في هذه الرواية، وهي التي تدعم شخصية الكفيف وتمنحه المساعدة والحب والولد، لكنه هو نموذج الذكورة في مجتمع تسلطي بات متخلفاً عن الحياة والعصر أكثر من أربعين سنة، لدرجة أنه يُدمّر كل شيء جميل في حياته ثم ينتحر، فهل تكون الذكورة بدلالتها السلطويّة عمياء في مجتمعنا، ومستعدّة في نوبات غضبها لتدمير كل شيء كما فعلت لاحقاً؟

الرواية لا تتحدث عن السلطة، بل اكتفت بتقديم أشخاصاً محدّدين بسمات وأسماء وهويات، ومنحتهم فرصة التعبير عن ذواتهم ومخاوفهم ومشاغلهم بعيداً عن أي تحميل سياسي أو أيديولوجي، لكنّ الأدب ومن خلال كل ذلك يشي بالضرورة بما وراء النّص الثقافي، أو بمجاله العام إن صحّ التعبير، وفق اقتراح الروائي والناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو، في كتابه "التخلي عن الأدب"[٢]، لتتعدى القراءة "إلى الواقع والخلفية الثقافية التي تَشكّل فيها النص أو تُرجم، أو انتقل في حوضها اللغوي من الشفوي إلى المكتوب"، فالحكاية تبدأ في الواقع وتنتهي فيه بالضرورة، وهذا ما يمنحنا تلك القدرة على طرح علامات استفهام بالحد الأدنى في قراءتنا لأي نصّ جيد، دون أن نتعدى على دور الروائي الذي أتاح لنا قراءة نصه وبناء منظورات خاصة بنا لفهم هذا النص، وهو ما يعني قدرة كُل قِراءة وكُل قَارئ على إعادة إنتاج النص أو دلالاته وفق وعيّ وذائقة خاصة بهما، حتى لو لم يكن القارئ ناقداً.

في روايتها الثانية "ألف ليلة وليلة" قامت الكاتبة باستعادة هذا العنوان الأشهر الذي قدمته الثقافة العربية إلى العالم، والذي يَعتبره البعض مدماك الفن الروائي الأول، ومن خلاله استعادت شخصية المرأة الراوية "شهرزاد"، لكنّها لم تكن شهرزاد زوجة الملك شهريار التي تدافع ضدّ موتها عبر الحكاية، بل جاءت شهرزاد معاصرة باسم "ديمة" الصيدلانية التي تعاني من العنف الزوجي، وهي تدافع عن أحلامها الموؤدة في هذه الحياة، أحلام المرأة بالحب والآخر الذي سمّته "مولاي"، تعبيراً عن إرث الثقافة والمخيال الذي عَبرَ مِنَ النّص الأصلي وبعد قرون من الزمن إلى وعي ديمة والتي مازال الواقع يَخذُلها كثيراً، ومازالت المرأة ترزح تحت وطأة السلطات الأبوية المتعددة دينيا واجتماعيا

[٢] - "كيليطو، عبد الفتاح" "التخلي عن الأدب"، مشورات المتوسط – إيطاليا، ط١ ٢٠٢٢.

وسياسيا في واقعنا، وهو ما يَمنح شهرزاد المعاصرة مشروعية خوض معاركها من أجلِ مستقبل أفضل لها ولكل النساء وللعالم.

***

بالعودة إلى رواية "اسمي زيزفون"، تستعيد الكاتبة التيمة الأساسية لشهرزاد الحكاية، مع شخصية الراوية الأنثى، التي بدأت في "ألف ليلة وليلة"[٣] قبل قرون من اكتشاف غوستاف فلوبير لشخصية الراوي، وفق رأي الروائي البيروفي ماريو بارغاس يوسا، ناسباً إليه "ابتكار الرواية الحديثة"، مضيفاً "زاوية التركيز دائماً هي عمل الراوي شبه الإله، الذي يُظهر الشخصية أو يخفيها وفقاً لتقلبات القصة المختلفة. ضمن هذا الإطار، يمكن معرفة كل شيء وإخباره، حتى الصمت الحكيم الذي يفرضه الراوي في سياق السرد"[٤].

لكنّ حضور الراوي في منجز الرواية السورية المعاصرة جاء باعتقادي بعيداً عن ابتكار فلوبير، وأقرب إلى الضرورة التي قادت شهرزاد في "ألف ليلة وليلة" كي تبدأ مسيرة السرد دفاعا عن حياتها، فيما جاءت زيزفون "الراوية" تدافع عن حكايتها أو شهادتها على هذا الواقع وضده بذات الوقت، إثر صحوتها من غيبوبة التَبسَتْ مع حالة "الموت الغشاش"، فبدأت مع هذه الصحوة الأخيرة تُسجل عبر دفترها شهادة أو يوميات تشهد على حياتها، والتي جاءت بمعنى ما شهادة على حياة مجتمع وثقافة أجيال من السوريين عاشوا ما بين خمسينات القرن الماضي وبدء انتفاضة السوريين/ ثورتهم أو صحوتهم في آذار ٢٠١١. أي لمْ تأتِ من باب الحفاظ على النسب مع شهرزاد الحكاية، بقدر ما جاءت استجابة لشرط الواقع السوري الذي استمرّ من الاستبداد إلى الحرب وأشكال الصراعات القائمة، هذا الشرط الذي ألغي إمكانية الحوار بين الأفراد وبين المجموعات أيضاً، حيث يتحوّل المجتمع بالنهاية إلى مجموعٍ من أفراد وأنوات متشظية ومستقلة عن بعضها البعض، كلٌّ منها يعيش هواجسه ومخاوفه من الآخر ومن الحياة أيضاً، أفراد يكاد يُدمرها الاحساس بالعجز عن بلورة ذاتها ضمن الكيان الاجتماعي الأوسع الذي يُدعى "شعب" أو "مواطنين".

وهذا ما يُفسر طغيان الرواية السيريّة لدى الكثير من الكتاب السوريين في زمني الاستبداد والمقتلة تحديدا، كاستجابة لواقع غياب مساحة للحوار بين الأفراد وحتى المكونات، فتطغى في رواياتنا وحكاياتنا مونولوجات متشظية، أحالت كلاً منا إلى راوٍ يمتلك حكايته الخاصة، بديلاً عن الديالوغ والتفاعل بين الأفراد والحكايات والأفكار حول ما هو ممكن في مواجهة أزماتنا، ويبدو أن

---

[٣] - عبد الله بن المقفع، "ألف ليلة وليلة"، مطبعة بولاق الأميرية في مصر، ط١ ١٨٦٠م.

[٤] - حسين جرود، "ماريو بارغاس يوسا: كلُّ الأشياء ممكنة: الشباب الأبديّ لكتابة فلوبير"، مكتبة تكوين، رابط:
https://takweenkw.com/blog/46309/single#:~:text

الروائية الحسن سَعتْ ضمن هذا الشرط لإنتاج "راوٍ ديمقراطي" وفق تعبيرها، لا يحتكر الحقيقة بذاته، بل يسمح للشخصيات بالتعبير عن ذواتها عند اللزوم.

تبدأ الراوية إثر صحوتها من الغيبوبة، تُسجل في دفترها ذاكرة طفلة في الصف الثاني الابتدائي، حين أُغلِقت المدرسة وسِيقَتْ مع باقي الطلاب إلى مظاهرة حاشدة أمام السراي الحكومي في مدينة جبلة، حيث يهدر هذا الحشد بشعارات وعبارات لا تفهم تلك الطفلة دلالتها: "يا بغداد ثوري ثوري خلّي عارف يلحق نوري" والمقصود عبد السلام عارف الناصري الانتماء، والذي تحالف مع البعثيين في العراق أثناء انقلاب ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣، لكنه لم يلبث أن اختلف معهم، فأصبح بالنسبة للبعث في سوريا بموقع عمالة نوري السعيد الذي صنع حلف بغداد مع الانكليز وتركيا في شباط ١٩٥٥، فكيف لهذه الطفلة ونُظرائها من أطفال تلك المرحلة أن يعرفوا تلك التفاصيل ودور هذه الأسماء، أو يعرفوا من هي الرجعية التي يشتمها الخطيب على المنبر وهو يتوعد بالقضاء عليها وعلى "أذناب الاستعمار" أيضا، بينما كادت تلك الطفلة أن تتبول في ثيابها خشية ألا يصل والدها إليها في هذا الزحام ليُعيدها إلى المنزل؟ لكنّها عادت مع باقي التلاميذ عبر عربة ذات ثلاث عجلات تدّعى "طرطيرة"، كانت تقل الطلاب إلى مدارسهم، وتعيدهم إلى قراهم الموزعة في هذا الريف الشاسع.

وقد نجحت الكاتبة بوضع شخصية زيزفون في بيئتها وضمن سياق زمني يتسق تطوره مع تطور هذه البيئة، وتطور كل الأحداث والشخصيات الأخرى في النص، ففي خمسينات القرن الماضي ولدت زيزفون في مكان يُعرف ب "المقص" أو "دكان أم جهيدة"، والمقص تسمية شائعة لتقاطع طرق الريف مع الطريق العام الذي يربط مدينة اللاذقية بالعاصمة دمشق، حيث سكنت أسرتها في بيت صغير من ثلاثة غرف ولاحقا أصبحت إحداهن "دكان أم جهيدة" وخلف البيت أقيم "تنور" لصناعة الخبز، ثمّ تحوّل الدكان إلى استراحة للمسافرين القادمين إلى ريف هذه المنطقة، أو للمغادرين باتجاه مدن جبلة أو اللاذقية أو دمشق، وكما يتطور الزمن من الماضي إلى الحاضر كانت تتطور الشخصيات وتتعدد الحكايات، حيث نعرف أنّ والدا زيزفون هما من عشيرتين مختلفتين من عشائر العلويين، وهذا كان سبب رفض العائلتين لهذا الزواج، ومن ثم نزوحهما باتجاه المقص وتأسيس منزل سيغدو محطة أو استراحة للمسافرين.

يمكننا أن نلاحظ في الرواية الانقسام بين زمنين، الأول هو زمن الكتابة الذي لمْ يَتعدَ أياما أو أشهرا قليلة بعد صحوتها من "الموت الغشاش"، وبين زمن الرواية الذي يمتد منذ ولادة زيزفون عام ١٩٥٨، بل وعبر الاسترجاع إلى ما قبل ذلك بكثير، لتشكل الرواية تاريخا لمنطقة الساحل السوري منذ تَشكُّل الدولة السورية تقريبا وحتى الآن، وهو بالضرورة تاريخ الطائفة العلوية التي سكنت تلك الجبال في مرحلة ما من التاريخ، وهو تاريخ الانقسام المذهبي في المنطقة بين اسلام سنة وإسلام علويين، دون الحديث عن مكونات وطوائف أخرى، وهذا الانقسام يرتبط بصيغة ما بالتوزع

الجغرافي للريف والمدينة وبتداخلهما فيما بعد، حيث يجري الخلط غالبا بين ما هو ديني أو مذهبي وما هو سياسي.

فما يُميّز هذه الرواية أنها مع أعمال قليلة أخرى التقطت بشكل ذكي ومبهر واقع الطائفة العلوية في الساحل السوري، ودخلت في هامش الممنوع أو المسكوت عنه، إذا كان النظام السابق يمنع استخدام كلمة الطائفية مع أنّه لعب دورا رئيسيا بتطّييف المجتمع السوري، ودخول الكاتبة لواقع الطائفية في سوريا، لم يكن معنيا بدلالتها الأيديولوجية والإيمانية، بل باعتبارها معطى تاريخي وثقافي موجود تقريبا في كل المجتمعات وفي كل الأديان أيضا، وعلى مرّ الأزمان، وهي يمكن أن تكون تلوين إضافي ضمن تلوينات وهويات صغرى متعددة في مجتمعاتنا تسهم بغنى هذه المجتمعات ثقافيا اقتصاديا وسياسيا، والتي قد تتحول إلى مشكلة صراعية بين هذه الهويات والطوائف.

فالمشكلة ليست في أي طائفة بذاتها، بل المشكلة في الطائفيّة التي يرى أصحابها أنهم الفئة الناجيّة فقط، ووحدهم من يمتلكون الحقيقة، وكل من عداهم إلى جهنم وبئس المصير، لذلك تدّعي هذه الطائفيّة امتلاكها حق قتال وتدمير وإلغاء ما عداها من طوائف وهويات أخرى، لكنها في هذا السياق تدمّر مجتمعاتها وتدمّر ذاتها ومنتسبيها أيضا، كما حصل للنظام البائد ومحاولاته تطييف المجتمع السوري. إشكالية هذه الطائفيّة بأنها مصرّة على العيش في سرديات الماضي وأساطيره، ولا تهتم بالواقع وشروطه، لذلك تفشل دائما في بناء دولة المواطنة المتساوية والحداثة المنسوبة إلى العصر.

رغم أن هذا الخروج ليس أمرا سهلا بعد ما جرى في سنوات الاستبداد والمقتلة السورية، وقد أشارت الكاتبة لهذه الصعوبة في حوار سابق معها حين قالت: "لا تنتهي الحرب فقط بصمت المدافع والرصاص، إذ بعد هذا الصمت سوف يظهر ما خلّفه الزلزال الكبير وهزاته الارتدادية، هناك وطن مدمّر، مجتمع مشظّى، كيان متهالك، ملايين من السوريين يعيشون في ظروف لا إنسانية، في الداخل والخارج، باكراً رحتُ أرصد التغيّرات المتسارعة التي تحصل في المجتمع وفي حياة الناس، كيف أخذت الحرب تُصدّع كل شيء، على الصعيد الفردي والمجتمعي"[٥].

نعم رصدت الكاتبة هذا الزلزال وهزاته الارتدادية، وهي تستخدم مهارات الطب في تشريح المجتمع السوري بكل فئاته، وبشكل خاص بيئتها هي "الطائفة العلوية" المحسوبة على النظام، الذي جيّش وسعّر كل الانتماءات ما قبل الوطنية، سواء كانت دينية أم طائفية أم قومية وصولا للحساسيات القبلية والعشائرية وحتى التجييش المناطقي أو استغلال حساسيات الريف والمدينة أيضا، لذلك

---

[٥] - بسام جميدة، حوار مع الكاتبة في جريدة عُمان، ٢ حزيران/يونيو ٢٠٢٣. رابط:
https://www.omandaily.om/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9/na/%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D8%A9-%D8%B3%D9%88%D8%B3%D9%86-%D8%AC%D9%85%D9%8A%D9%84-%D8%AD%D8%B3%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A8-%D9%81%D8%AA%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%A8%D9%88%D8%A7%D8%A8-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%8A%D8%A7%D8%A9-%D9%88%D8%A3%D9%85%D8%AF%D9%86%D9%8A-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D9%85%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%8A-%D8%A3%D8%A8%D9%86%D9%8A-~:#%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%87%D8%A7-%D9%86%D8%B5%D9%88%D8%B5%D9%8A

لم تتردد الكاتبة في فضح سياسة النظام واستغلاله الطائفة ومفهوم الأقليات كبيئة حاضنة له في المستويات الاجتماعية والاقتصادية، تلك السياسات التي أدت إلى تفكيك المجتمع بل وحتى الأسرة الواحدة، فأخيها الضابط شعبان لا يتردد بتفجير منزل العائلة لحرمانها من امتلاك البيت الوحيد والصغير الذي بنته بجهدها، مع أنه يملك الكثير من البيوت الفاخرة والعقارات الكثيرة لكنه الجشع، وغياب الاحساس بالمسؤولية تجاه الأخت التي تركت التعليم واشتغلت لتساعد في تعليمه وفي إعالة العائلة بعد عجز الأب ومرض ثم وفاة الأم.

وهي لا تفكك البنية الطائفية بكل دلالاتها وترفضها فقط، بل تفكك البنية الذكورية الطاغية بدلالتها السلطوية المستبدة بدءا من الوالد القابع في عجزه وتردده، واستمرارا بأخيها شعبان وكل الشخصيات المسيطرة في هذا النظام باختلاف انتماءاتها الدينية والجغرافية، حيث تُظهِر نسوية طاغية في شخصيتها وفي منجزها الروائي في مواجهة الثقافة الذكورية التي أنتجت نظريات نقدية ولغة إقصائية تمّ تعميمها لتشكل حاملاً لتقاليد وأعراف المؤسسة الذكورية الاستعلائية.

فقصة الأب الذي رفض ذهاب أليات المؤسسة التي يحرس مستودعها لتشتغل عند أحد النافذين، لا يلبث أن يتلقى عقابا وضربا مبرحا أورثه إعاقة وفصل من العمل، وبعد وفاة زوجته تصبح جهيدة هي المسؤولة عن رعايته، ومع ذلك وتمسكا بالتقاليد البالية يرفض أن يورث ابنته أي شيء، هي التي ضحت وما زالت تُضحي بكل شيء للاهتمام به!

أرادت زيزفون أن تقول لنا أن الاستبداد خَانَةٌ تَضم كل المنتفعين منه، وبغض النظر عن خلفيتهم الدينية أو المذهبية، فعبد الجليل هو الذي وشى بحمّادة وغيبه داخل السجن، مع أنهما محسوبان على ذات الجهة الطائفية "السنّة"، فيما الشيخ أديب هو الذي شيّع على زيزفون علاقتها بالأستاذ "عابد" القادم من دمشق، وعرضها لفضيحة اختبار الشرف وفق تقاليد المنطقة عبر المرور من فتحة في جدار "مزار أبو طاقة"، لكنها ورغم شهادة البراءة التي حصلت عليها، أصرّت لاحقا على إحراق "مزار أبو طاقة" بكل دلالته المقدسة، فتخبرنا: "أنا زيزفون التي خلعت عنها جلد جهيدة، نعم حرقت المزار أبو طاقة في تلك الليلة الخريفية".

سْعيّد ابن القرية والذي رفض الإذلال الذي تعرض له في الكلية الحربية، وسُجِن ثم سُرِح بدعوى الاختلال العقلي، وينعته كثيرون بالمجنون، اكتشفت زيزفون مؤخرا مع اندلاع انتفاضة السوريين/ صحوتهم ونزول الجموع إلى الشارع تطالب بالحرية والكرامة، أنّه الحب الوحيد لديها كان أبا ومرشدا ومعلما منذ أن أفلتَ كلابه على شيخ المقام لإنقاذها من خدعة "مزار أبو طاقة"، لكنه في النهاية وجدّ مقتولا مع كلابه بالرصاص الحي في البرية!

ويبدوا أن الراوية اهتمت بكل الشخصيات المهمشة في بيئتها، وكان في طليعتهم مْنيّر الذي يقضي وقته في البراري يصطاد الأفاعي من أوكارها، لكنه في أوقات الجَدْ تراه مدركا للكثير من التفاصيل، بل يمكن أن يساعد في القضايا المهمة كالتستر على أبن الأستاذ "عابد" الدمشقي، والذي لم يجد

مكانا يختبئ فيه من المقتلة إلا قرية "المقص" عند زيزفون، وبمساعدة مْنيّر، والذي أمّن له طريقا للفرار خارج سوريا. ومْنيّر هو الذي يُخبرها أن أهل القرية كلهم رفضوا الذهاب إلى تعزية أخيها شعبان في قصره بوفاة والدهما، فيما هم جَاؤُوا إليها معزين.

في الكتابة حول الرواية والأدب عموما نواجه دائما مستويين للقراءة، الأول يتعلق بالحكاية أو القصة التي يسعى الكاتب/ة ليرويها لنا، وبالأفكار والقيم والمفاهيم التي يجري العمل في مناخاتها أو التفكير من خلالها، والمستوى الثاني يتعلق بالأسلوب وكيفيّة عمل الكاتب/ة على صياغة الأفكار أو محاولة توصيلها إلى القارئ/ة، وكنت دائما أتمنى أن لا يسرقنا الاهتمام بالمستوى الأول ونقاش الأفكار، من الاهتمام والتفكير بالمستوى الثاني للنص باعتباره الحامل لتلك الأفكار، كمبنى وأسلوبية ولغة وشخصيات وأحداث تنوس كثيراً بين الواقعي والمتخيل والعلاقة بينهما، وتُسهم بطريقة أو بأخرى بإعادة تشكيل الموقف من الموضوع.

وها نحن الآن، وبعد قرابة أربعة أشهر من سقوط نظام الفساد والاستبداد البعثي، ومحاولات إعادة تشكيل سوريا المنهارة اقتصادا واجتماعا، والمنهكة نتيجة صراعات وانتماءات وهويات صغرى وكبرى، نشهد بروز تناقض مهم بين من يحلم بدولة المواطنة والحريات الديمقراطية، وبين من لا يستطيع التفكير خارج إرث المظلوميات التي رعاها النظام البائد كثيرا لتسهم بتأبيد سلطته من خلال تطييف المجتمع وتجزئته، وبالتالي عرقلة تطوّره وتحديثه، ولذلك أجد ضرورة التوقف مليا مع المستوى الأول دون إهمال المستوى الثاني والأهم لقراءة الرواية، إذ أشعر الآن أنّ هذه القراءة باتت ضروريّة في سياق الجدل الدائر في حياتنا بين ما كان وما يُمكن أن يكون، متشجعا بموقف كيليطوا لطرح أسئلة جديدة تتعلق بالضرورة "بما وراء النّص الثقافي أو بمجاله العام إن صحّ التعبير"، حيث اشتغلت الكاتبة على فضح سياسة النظام واستغلاله الطائفية باسم الطائفة ومفهوم الأقليات كبيئته حاضنة له في المستويات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، تلك السياسة التي نجحت بتفكيك المجتمع بل وحتى الأسرة الواحدة.

والحسن لم تهتم في هذه البيئة التي التقطت تفاصيلها بفضح الطائفية التي اشتغل عليها النظام بل اشتغلت بشكل موازي بحثا واهتماما بكل الهوامش في تلك البيئة وفي مستوى الشخصيات، لتبرز كل ما هو مضاد لتلك الثقافة الذكورية المسيطرة في مستويات المقدس والجنس واللغة أيضا، ولا تتردد بكشف دوافعها للكتابة، حيث تقول: "سأعيد حكاياتي على كل النساء اللواتي يسكنّ داخلي، على كل واحدة ظنّوها تعيش خيبتها وهي التي كانت تضحك من خيباتهم".

صبري رسول
كاتب وقاص سوري

رواية "لالين" مسألة الهَوِيّة والتّنوع

أطلّت علينا الكاتبة وجيهة عبد الرحمن بنصّ سرديّ، يحمل إشكالية المجتمع المتنوّع دينياً ولغوياً وقومياً، معنونٍ بـ«لالين» مع عنوانٍ فرعيّ مكمّل «حدث أن تزاوجت دور العبادة» صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ٢٠١٦م. تتضمن الرّواية فصلين، الأول غير معنون ومؤلف من ثلاثة عشر مقطعاً مرقماً، الثّاني معنون بـ«لالين... سليل نهايات الحروف» عبارة عن ستة مقاطع.

ملخّص الرّواية:

تروي هذه الرواية «لالين» حكاية امرأة مسيحية كاترين تأتي إلى مدينة هولير ضمن وفدٍ مسيحي لزيارة المعالم السّياحية للدّيانة المسيحية، وتنشأ علاقة حبّ بينها وبين الدّليل السّياحي زارا من الديانة الأزيدية أثناء زيارتهم إلى معبد لالش، وسرعان ما تتطوّر العلاقة العاطفية بينهما لتصل إلى ممارسة حبٍّ لتُثمِر لاحقاً، بعد عودتها إلى بلادها، طفلاً تسمّيه الأم لالين، نسبة إلى الاندماج الاسمي بين أول ثلاثة حروف من «لالَش» المعبد المقدّس لدى الكُرد الأزيديين وبين آخر حرفين من اسمها «كاترين»، ويرتقي الحبّ بينهما إلى درجة سامية فتطلب كاترين الشخصّية المحورية في الرّواية من زارا تعميدها في المعبد وفق تقاليد الديانة الأزيدية.

تواجه كاترين تحدياتٍ كثيرة، دينية واجتماعية بعد ظهور أعراض الحمل لديها، فتصرّ على إبقائه، ما دعا زوجها إلى طلاقها حسب الشّريعة المسيحية، لأنّها ارتكبت خطيئة كبرى يحقّ له الطّلاق منها، تكتب وصيةً تضعها في صرّة الطّفل مطالبة بعدم فتح الورقة إلا بعد بلوغه عشرين عاماً، وتضعه أمام إحدى الجمعيات الخيرية للأيتام في مدينة الحسكة، فتتبناه أسرة «سوزان وجورج» لعدم إنجابهما أطفالاً، فيعيش في كنفهما معزّزاً مدللاً، وبعد بلوغه العشرين وفتحه الوصيّة يُدرك أنّه ليس ابناً لسوزان وجورج، فيبدأ برحلة البحث عن أبيه وأمّه التي توفيت قبل ذلك، يسافر إلى إقليم كردستان مع إبقاء علاقته مع الأسرة التي تبنته ورعته.

عنوان الرّواية:

لالين، هذا الاسم مركّب من الحروف الأولى للمعبد المقدّس لدى الديانة الأزيدية، لالَش، والحرفين الأخيرين من اسم الشخصية المحورية للرّواية كاترين، "لال + ين" للدلالة على قوّة التّشابك بين الديانتين، الأزيدية والمسيحية، هذا ما يطرح سؤالاً: لمّ التّشابك بين اسم المعبد واسم الإنسان، لِمَ لمْ يكن بين اسمي الشخصيتين العاشقين، زارا وكاترين؟ أو بين مكاني العبادة لدى الديانتين؟

دلالة العنوان تجرّ القارئ إلى قراءة النّصّ، لمعرفة مسارات الحدث الذي تدور حوله الكتابة بوصفه العتبة الأولى للدّخول إلى عوالم النّصّ، هل حقّقت الكاتبة الهدف من ذلك؟

الاسم الغامض، الواضح، المركّب من اسمين هو النّافذة التي يدخل إليها القارئ إلى هذه الرّواية القصيرة أو «Novelle» إذا صحّ المصطلح، التي تعالجُ فكرة أهمية قبول التّعددية الدّينية والقومية، والحبّ الذي يسمو على حدودهما. وتؤكّد أحداث الرّواية على أنّ أحداثها تدور في فلك هذا العنوان.

«إن أهمية العنوان تنبثق، ليس بوصفه إعلاماً عن محتوى الكتاب وإخباراً له فحسب، بقدر ما أنّ فعل القراءة يتوقّف عليه، فالكتاب يحقّق كينونة بفعل القراءة، وعدمُ القراءة، يدفع الكتاب أو النّص إلى حافة المجهول. ومن هنا الوصف بأنّ «العنوان» نافذةُ النّصّ على العالم، ودليل القارئ إلى النّصّ، أي أن وجود النّصّ من وجود العنوان»[1].

فعنوان الفصل الثّاني «لالين... سليل نهايات الحروف» يدلّ على التّشابك بين النّص وحروف الاسمين الذين يشكّلان العنوان كتعريف مختزل ومبسّط للنّصّ، وحمّلته الكاتبة وظيفة شرح النّصّ كله «ليصبح نقطةَ التقاطع الاستراتيجية التي يَعْبُر منها النّصَ إلى العالم، والعالم إلى النّصّ، لتنتفي الحدود الفاصلة بينهما، ويجتاح كلّ منهما الآخر. ومن خلال ما تقدّم، نتلمّس الوظائف الآتية للعنوان:

١- التسمية.

٢- تعيين محتوى النص أو الإيحاء به..

---

[1] حسين، خالد، في نظرية العنوان، دار التكوين، دمشق، ط١ ص٤٩٣

٣- إغواء القارىء وإغراؤه»[٢].

إشكالية الفكرة المطروحة:

تطرح هذه الرّواية إشكالية الهُوية النّاتجة عن اختلاف المعتقدات الدينية واللّغات والثقافات، حيث تختلف القيم الدّينية المسيحية عن الأزيدية، والإسلامية، ما يجعل بعض التّقاليد والشّرائع التي ترسم مصير المرء مصدراً لخلافاتٍ اجتماعية وثقافية، هنا يمكنُ القول: إنّ الفكرة التي طرحتها وجيهة عبدالرحمن في روايتها وعلى مدار ١٣٣ صفحة تمسّ جوهر القضايا الإنسانية المتعلّقة بهويّة الانتماء الدّيني والقومي، والصّراع الدّاخلي الذي يُرغم المرء لمواجهة الواقع المعاش الرّافض للأفكار الإنسانية التي تسمو فوق المفاهيم الدينية الضّيقة، هي محقّة بهذا الطّرح نظراً للنزاعات الدّاخلية في مجتمعٍ متنوّع. لكن تشوب الرّواية بعض الأمور الفنيّة كانت يمكنها تلافيها بقليلٍ من التّدقيق اللّغوي في المفردات والتّراكيب، ولم تستعجل في طباعتها.

الخطاب الرّوائي والسّرد:

إضافة إلى المباشرة الواضحة والسّطحية الشبيهة بالتّقرير، يجد القارئ ركاكة منتشرة في مفاصل السّرد، بسبب زجّ أفكار سياسية غير دقيقة ومشاهد جنسية فجّة في متن النّصّ، «حالما التقت عيناها بإحدى تلك الأيقونات المعلقة بالحائط المواجه لوحدتها فتذكّرها بأنّها تخون زوجها مع زوجها» ص١٠ يُلاحظ القارئ بأنّ العبارة ركيكة.

الدراسات النقدية للرّواية لا تقف أمام الشّكل والمضمون على حدّ سواء، بل «تعطي الأولوية للشّكل باعتباره الهدف المركزي للممارسة النّقدية» ولا يعني هذا الأمر الانتقاص من الفكرة المطروحة في الرّواية، ففكرة التعدّد الثّقافي قومياً ودينياً وضرورة التّجاوُز لحدود الديانات المنغلقة في تعاليمها، وتخطّي التّعصب القومي والانتقال إلى إيجاد مساحة مشتركة للتعايش بين البشر، في مساحة جغرافية واحدة كما هو موضوع هذه الرّواية أمرٌ في غاية الأهمية، لكنّ الدراسات النّقدية، وكذلك الرواية، لا تحقّق جدواها من دون السعي «إلى بلورة الوظائف الجمالية والغايات الفنية المتجسّدة في البناء الشكلي للرّواية»[٣].

في المقطع الأول من الفصل الأول تبدأ الرواية بصوت «الرّاوي»، الكاتبة، فاستخدمت الضمير الثّالث الغائب «هو، هي» أما في المقطع الثاني والثّالث من الفصل الأول تكون الشخصية الأساسية في الرّواية، كاترين، هي «الرّاوي»، حيث الضمير الأول المتكلّم. لكن تنتقل مهمّة الحكي إلى الرّاوي (الكاتبة) في الفقرة الأخيرة من الترقيم الثّالث. «في ذلك الصّباح خرجت باتجاه سوبرماركت البرّاد الآلي، لتبتاع بعض الحاجات اللازمة لوحدتها الغارقة في الكآبة» لالين.ص٣٨.

---

[٢] حسين، خالد، شؤون العلامات، من التشفير إلى التأويل، دار التكوين، دمشق ط١ ٢٠٠٨م ص٤٧

[٣] بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط١ ١٩٩٠ص١٧ص٢٢

«فالخطاب المنقول يتكلّم فيه الرّاوي بخطاب الشخصية، أو أن الشخصية تتكلم فيه بصوت الرّاوي، لذلك فإنّ الفعلين السّرديين يختلطان»[٤].

كيف يمكن معرفة الخطاب الرّوائي في النّص، هناك الشخصية المحورية التي تتحدّث بضمير المتكلم في رواية لالين، وبين الأحداث التي وقعت، وهي النقطة المركزية التي تريد الكاتبة تقديمها في الرواية؟ زيارة الوفد السياحي وحدوث اللقاء بين الشخصيتين، كاترين وزارا، فالخطاب الرّوائي يشمل «حكي الأقوال، وحكي الأحداث [...] على اعتبار الأول خاصّاً بالشخصيات والثّاني بالرّاوي»[٥].

المعرفة الدّقيقة للكاتب بين السّرد والعرض، تقود القارئ إلى الأماكن المركزية لفهم الفكرة المطروحة، إلى حيث مفاتيح النّصّ وجوهره، لكن قد يلتبس الأمر على الكاتب فيسلك، وهو على عجلة من أمره، إلى المزج بين «العرض، والسّرد»، وهذا ما وقعت فيه وجيهة عبدالرّحمن، فتارة لجأت إلى أسلوب «الرؤية مع»، التي أكّد بويون أنّنا «هنا نختار شخصية محورية، ويمكننا وصفها من الداخل، بتمكننا من الدخول بسرعة إلى سلوكها وكأننا نمسك بها. إن الرؤية هنا تصبح عندنا هي نفس رؤية الشخصية المركزية» كما جاء في المقاطع المرقّمة (٢ -٣-٥) من الرّواية.

وتارة أخرى إلى الرؤية الثانية «من الخلف» والراوي في هذه الرؤية حسب توصيف بويون «ليس خلف شخصياته ولكنه فوقهم، كإله دائم الحضور، ويسير بمشيئته قصة حياتهم»[٦] كما في الفقرات (١-٤-٦-٧) من الفصل الأول. لم تترك الكاتبة لشخوص الرّواية حرية التّصرف واتخاذ القرارات، كانت تسيّر الشّخصيات من عليائها وترسم لها أقدارهم، وإلا لا يمكن تفسير انقطاع الاتصال والعلاقة بين كاترين وزارا بذاك الشّكل، حيث لم يبادر أحدهما بالاتّصال بالآخر رغم طلاق كاترين ووحدة زارا الذي يستقيل من عمله لانزعاجه بينما لا يبادر إلى الاتصال بكاترين.

كثيراً ما يقع الكاتب الرّوائي في فخّ الاستعجال لإصدار عمله، فتكثر الأخطاء الكتابية، ويخرج الخيط السّرديّ عن مساره، ومتأرجحاً بين «الرّؤية الأولى والثّانية»، فوقعت الكاتبة في هذه الرّواية في هذا المطب، لأنّ ذلك الانقطاع يخالف منطق الحياة، ومنطق المخيال.

كان يمكن للكاتبة الإمساك بمادتها الحكائية، وسردها بسلاسة انسيابية، من دون زرع بعض الانتقالات المفتعلة كما يبدو للقارئ المحايد.

البدء بالضمير المتكلم، على لسان الشخصية، وثمّ الانتقال إلى أحداثٍ أخرى مع تغيير المتكلّم، مرة على لسان الشّخصية وأخرى بلسان الرّاوي. لأنّ بناء فنية النّصّ القوي يتعلّق «بكافة العناصر البنائية والأسلوبية الداخلة في تكوين الرّواية والتي تمكن الكاتب باستعمالها من الحصول على عمل فني متناسق ومقنع بمادته وطريقة تأليفه»[٧].

---

[٤] تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت ط٣ ١٩٩٧م ص١٧٩.

[٥] تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت ط٣ ١٩٩٧م ص١٩٤

[٦] تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت ط٣ ١٩٩٧م ص٢٨٩

[٧] بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط١ ١٩٩٠ ص١٧

هنا تختلط على الكاتبة في مسألة الحكي، الرّاوي: «المعرفة المطلقة للرّاوي، المعرفة المحايدة، الأنا المشارك، المعرفة المتعدّة، والمعرفة الأحادية»

هنا لابدّ من الوقوف مع مصطلح «الرّؤية، الرّؤيات» وأنواعها ١- الرّؤية مع، الرّؤية من الخلف، الرّؤية من الخارج، كما أطلق عليها جان بويون في كتابه "الزّمن والرّؤية"[٨].

الجانب المعرفي لدى الرّوائي[ـة]:

في المعلومات السياسية:

الرّوائي يجب أن يكون واسع الاطلاع على الفكرة التي يتناولها، ملمّاً بتفاصيلها، فالذي يتناول حدثاً تاريخياً يجب عليه أنْ يحيط بدقائق الحدث، حتى يقع القارئ في حيرة واعتقاد أنّ السّارد مؤرّخ، وكذلك في أي أمرٍ آخر. فالرّواية في مسيرتها الطّويلة استفادت من أساليب شعرية، كتوظيف الصّور والكنايات والتراكيب، ومن الفنّ المسرحي، كالحوارات، ومن السّينما وتقنياتها الفنية، ورسم الشّخصيات وغيرها من الفنون. كذلك تعالج في مختلف أوجه الحياة، السياسية والاجتماعية وغيرها، لأنّ «الرّواية ظلّت تستمدّ قوتها من حريتها المطلقة، أي من انفتاحها واتساعها اللامحدود»[٩].

الكاتبة وجيهة عبد الرحمن امرأة كردية، وترعرعت في وسط اجتماعيّ وسياسيّ يهتمّ بالشأن الكردي يومياً، ثم ترتكب أخطاءً في التّاريخ السياسي الكُردي تُحسب عليها، وليست لها.

«وحصل الكرد على الحكم الذاتي لإقليم كردستان، بعد حرب طاحنة مع نظام صدام حسين وكل من سبقه، وسيتولى شؤون الإقليم كدولة صغرى غير منفصلة عن جسد العراق، حزب الاتحاد الوطني الكردي وحزب الديمقراطي الكردستاني[...] وسيتولى مام جلال طالباني رئاسة حكومة العراق فخرياً في عام ٢٠٠٣، بعد تحرير قوات التحالف العراق من حكم صدام حسين، ليتولى بذلك أول رجل كردي رئاسة حكومة كانت بالأمس تقطع أوصاله...» لالين، ص٤٩

فالحقوق الكُردية التي وردت في دستور العراق الجديد وفق المادة ١١٧ هي حقوق فيدرالية «يقر هذا الدستور عند نفاذه إقليم كردستان، وسلطاته القائمة إقليماً اتحادياً» بينما وردت في النّصّ الرّوائي لرواية لالين «وحصل الكرد على الحكم الذاتي لإقليم كردستان» وأصبح مام جلال الطالباني أول رئيس منتخب للجمهورية العراقية بعد الدستور الجديد عام ٢٠٠٥، وليس رئيساً لحكومة العراق كما ذكرت الكاتبة في روايتها، حيث هناك رئيس الجمهورية، وهناك رئيس الحكومة، لأنّ نظام الحكم في الدولة العراقية جمهوري نيابي، بينما وردت في الرّواية «وسيتولى مام جلال طالباني رئاسة حكومة العراق فخرياً في عام ٢٠٠٣» فرئيس الجمهورية يُنتخَب وفق الدّستور وإن كانت مهامه بروتوكولية.

---

[٨] تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت ط٣ ١٩٩٧م. ص٢٨٩

[٩] بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط١ ١٩٩٠م ص١٣

واسم الحزب: حزب الاتحاد الوطني الكردستاني وليس (الكردي). من جهة أخرى لا أعرف كيف لا تميّز الكاتبة بين النّظام السّوري والدّولة السّورية، في سوريا استلب حزب البعث السلطة السياسية، ومؤسسات الدولة وفق المادة الثامنة من الدستور الذي وضعه الأسد الأب منذ انقلابه واحتكاره السلطة ١٩٧٠، ثم استلب الأسد البعث والدولة واختزلهما في شخصه، ونتيجة التراكمات الطويلة في قمع الحريات العامة قام السّوريون بالثورة ضد النّظام السّوري، لاستعادة دولتهم المُستلَبة وحرياتهم العامة، السّوريون لم يقوموا بالثّورة ضد الدّولة بل ضدّ النظام، بينما جاءت في مقطع التّالي «ثمّ انشقّ العديد من الألوية والسّفراء ورئيس مجلس الوزراء، الذي كان انشقاقه طعنة في خاصرة الدّولة». ص٦٩ هل كان انشقاقه طعنة في خاصرة النّظام أم في خاصرة الدّولة؟

في مقطعٍ آخر وفيما يتعلّق بالشّؤون السّياسية الكُردية، ارتكبت الكاتبة أخطاء أخرى. معلومٌ لكلّ الكُرد أنّ المجلس الوطني الكُردي استقطب شريحة واسعة جداً من الشّعب، فكانت مظاهراته بالآلاف، وربما زاد العدد في أسبوع «المجلس الوطني الكُردي يمثّلني» عن خمسٍ وعشرين ألفاً، في المقابل لم يكن يمتلك حزب الاتحاد الديمقراطي بضع عشرات من الأنصار، فكانوا ينخرطون في مظاهرات المجلس، وبعد التّصوير ينسلون منها.

«بسبب هيمنة حزب الاتحاد الديمقراطي الـ (pyd) مدعوماً من قبل قوى التحالف وروسيا، بخلاف باقي الأحزاب الكردية التي شكلت ما يسمى بالمجلس الوطني الكردي، والذي لم يواز حزب الاتحاد الديمقراطي في الهيمنة؛ لأن الأخير كان الأكثر شعبية تقريبا، بفضل الجناح العسكري الذي تصدى لداعش، وبين الحين والآخر اصطدم مع النظام السوري من خلال معارك وصفت آنذاك بأنها مسرحيات تمثيلية؛ ليبعد عنه تهمة تحالفه مع النظام السوري، الذي سلمه في وضح النهار المناطق الكردية ليستأثر بها لأسباب ظلت مبهمة»ص٧١

يرد في متن السّرد أن النظام السّوري «كان فاقداً للشّرعية لدى دول الاتحاد الأوربي ومجلس الأمن»ص٧٠. وهذا خطأ سياسي آخر أيضاً لأنّ مجلس الأمن لم يستطع اتخاذ قرار سحب الشّرعية منه بسبب الفيتو الرّوسي، وبالتالي كان فشل التوصّل إلى أي قرار من هذا النوع حمايةً للنظام.

كان النّصّ السّرديّ مرتبكاً في عدة مواضع، لم يكن في مستوى الفكرة المطروحة، «أهميّة التّلاقح الفكري والدّيني، والتّنوع الثقافي، ورفض الجزر الاجتماعية التي تكوّن جماعات منفصلة في رقعة جغرافية واحدة» ولم تكن هناك مبررات في انقطاع الصّلة بين الحبيبين رغم توفّر وسائل الاتصالات الكثيرة. السّرد غارقٌ في التّقريرية. هنا مقطع سردي أتركه دون تعليق:

«الغريب في أمرهما أن كليهما لم يحاول الاتصال بالآخر، بالرغم مما استبدّ بهما من شوق وما ألمّ بهما من حزن دون أن تثير تلك القطيعة حفيظة أحدهما، التزما الصمت كلاهما حيث كان، ولكن بالنظر إلى حالهما كلٌّ على حده، فقد زارا روحه المرحة، استقال من عمله كدليل سياحي، وحتى يتجاوز محنته بالنسيان والابتعاد عن كل ما يجلب له الألم، فتح معرضاً للشرقيات الأثرية لئلا

يبتعد عن أجواء عمله السّابق، بذلك بات متواصلا مع السياح، أما كاترين فقد واظبت على الذهاب إلى عملها كمدّرسة لمادة اللغة العربية، كانت وحيدة، تجلس دوماً في ركن معزول خاص في غرفة المدرسين لتقرأ كتاباً تلو الآخر، كانت القراءة تبعدها عن الاختلاط بالآخرين»ص٨٢.

أخطاء كتابية ونحوية:

هناك أخطاء كتابية نحوية وإملائية كثيرة، كان يمكنها إجراء مراجعة سريعة لتلافيها، مثل:

«أي عطر تضعين» همسن. المتحدّث هو زارا.ص١٦، الأمر الذي أثار استغرب (استغراب) الزوج المغلوب على أمره ص١١، هل تعلمين أن ميان خاتون لم ترتاد (ترتد) مدرسة أو تتلقى تعليماً ص٣٣، لم يتحتضرا (يحضّرا) للاحتفال به كما يجب ص١١٦، فهما الذان (اللّذان) منعاني ص١٢٢، فقد كان خالياً من الروح التي كانت ستملؤه به امرأة أخرى إذا ما كان متزوجاً بإحداهن. ص٣٤، قطّبت جبينها سوزان كإشارة استهجان (تأخير الفاعل خطأ نحوي) ص٦٧.

التّراكيب غير الدّقيقة:

يواجه الكثير من الكتّاب صعوبة في إيجاد المفردات والمصطلحات الدّقيقة لتوظيفها في الجمل وتحميلها المعنى المراد، ما يجعل النّصّ مترهّلاً أحياناً، فالفكرة، مهما كانت سامية، غير كافية لجعل السّرد ناجحاً، فلا بدّ من النّصّ القوي المتماسك الذي ينقل المعاني السّطحية والعميقة إلى المتلقي، والابتعاد عن التّقريرية في السّرد، وهذا ما وقعت فيه الكاتبة. سأبيّن بعضاً منها: وردت في النّصّ «ممسكاً بثديّ بين كفيه الاثنتين» ص٣٥، هذه العبارة جاءت في رسم مشهد غرامي بين كاترين وزارا، لم توفّق الكاتبة في استخدام المصطلح الدقيق، فالثّدي كلفظ يستخدم لرضاعة الطفل، أما من أجل صياغة مشهد جنسي، فالأصح استخدام النّهد، أوّ الصّدر النّاهد، أو كناية تفي بالمعنى، فيقال: صدرها النّاهد، والنّاهِدُ: المرأة التي نَهَدَ ثديُها، فتاة ارتفع ثديُها وبرَز (...) معجم المعاني. فالسّاردة التي تحكي بضمير المتكلم كان يمكن أن تقول: «فأمسك بصدري النّاهد. أو تسلّقت أصابعه ربوة النّهدين».

في عبارة أخرى في المشهد ذاته تقول: «حين ولج شيئه في فتحة الطّهارة لديّ، شعرتُ بأنّ السّماء تتشظّى» ص٣٦، أعتقد أنّ نقل المشهد الجنسي هنا صِيغ بشكلٍ فج، فقد أخفقت الكاتبة في صياغة المشهد. المشاهد الجنسية التي يصوّرها كثير من الكتاب، في نصوصهم السّردية مثيرة جداً، وجريئة جداً، لكن رغم وضوح المعنى والمُراد فيما حصل بين العشيقين، إلا أنّ مصطلحي «شيئه، وفتحة الطّهارة» غيرُ موفقين في تأدية الوظيفة السّردية، لا أرى خطأً حتى لو أسمَت العضوين الجنسيين بالعبارة الصّريحة. فلولا جملة «شعرتُ بالسّماء تتشظّى» التي أعقبت الوصف لسقط المشهد كله في فجاجة الرّكاكة التّعبيرية، هنا يحتاج الكاتب إلى خيالٍ خصب في رسم المشهد الجنسي، مثال: كان

ينظر إلى صفحة فخذي الرخاميتين اللامعتين كلمعان نور القمر على صفحة البحر بنهمٍ، ارتفع صهيل حصانه متجاوباً مع حمم العشق، ...إلخ.

ففي مشهد آخر في الرّواية وصفت الكاتبة عملية اغتصاب ثلاثة صبيان لطفلٍ آخر:

«كان يتخبط بين أيديهم كالخروف المعد للذبح، بعد أن ربطت أطرافه الأربعة وأمسك أحدهم برقبته أوصلوه إلى الخرابة، تعلوهم سحب الشتائم والتهديد، وهناك قام ثلاثتهم بالتناوب على نكاحه...كان يتألم ولكنّهم لم يعطوه حق الصراخ، حين كانوا يدخلون شيئهم في شرجه الصغير، كان يشعر بالسكاكين تقطع كبده» ص ٤٠.

هنا أخطأت الكاتبة في وصف المشهد السّردي، فما حصل هو عملية اغتصاب قام بها ثلاثة صبيانٍ لصبيّ آخر، الفعل «نكح» يُستخدَم لعملية الواقعة الجنسية بين الرّجل والمرأة، فالنكاح كمفردة ترد في نصوص عقد الزّواج، وتدلّ على حصول ممارسة الحب، أو ممارسة الجنس بين رجلٍ وامرأة، وبرضى الطّرفين، واستخدامها في عملية اغتصاب لا يفي بالمعنى المُراد، «وهناك قام ثلاثتهم بالتناوب على نكاحه». فصُورُ عملية الاغتصاب واضحة في أذهان النّاس، والاغتصاب عملية اعتداء سافر على شخصٍ آخر، سواء حصل الاعتداء على الذكّر أو الأنثى، لذلك غرق مشهد الاعتداء في عملية الاغتصاب في تراكيب مبتذلة «كان يتألم ولكنّهم لم يعطوه حق الصراخ، حين كانوا يدخلون شيئهم في شرجه الصغير».

في الختام، رغم أهمية الفكرة المطروحة، وصياغة بعض الفقرات التي تضجّ بصورٍ شعرية جميلة إلا أنّ هذا لا يكفي لإنقاذ الرّواية من الأخطاء الفنية في الأسلوب والصّياغة وكان يمكنها معالجتها بقليلٍ من التّمحيص والتمهّل.

خالد نعمة

من مواليد العام ١٩٦١، ناشط سياسي مزمن، مهندس اتصالات تخرج في موسكو، وعمل في العديد من الجهات الحكومية السورية ضمن مجال اختصاصه في دمشق وريفها وفي مناطق دير الزور حتى عام ٢٠١٤، ولدى شركات تكنولوجيا في ألمانيا بعد مغادرته سوريا في ذلك العام. مارس العمل الصحافي سنين كثيرة إضافة إلى عمله الهندسي الأساسي، ونشرت له مئات المقالات والدراسات حول قضايا سياسية واجتماعية وعلمية في العديد من المطبوعات السورية بين عامي ١٩٨٧ و٢٠١٢. له عدة روايات وقصص منشورة مترجمة عن اللغة الروسية. يُدرِّس اللغة العربية في جامعتين ألمانيتين.

قراءة أدبية سريعة في رواية أوراق برلين

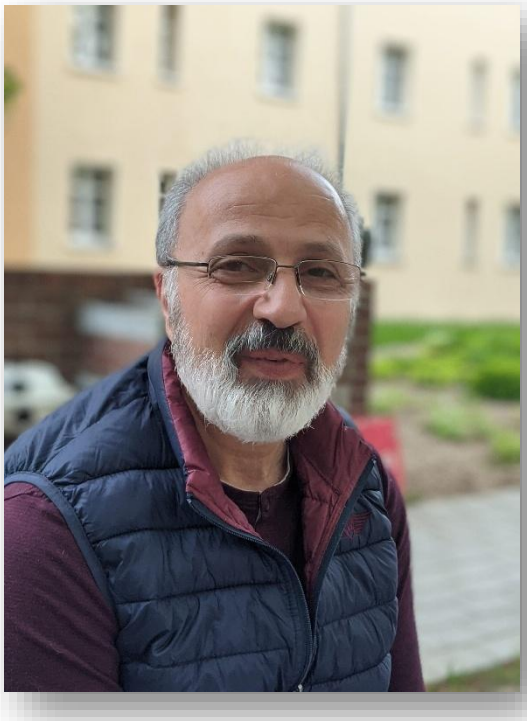

تسلسل الأحداث

يبدأ الراوي بفرد أوراقه من شقته البرلينية في إحدى الأمسيات الكانونية، بينما هو يدخن غليونه جلوساً أمام لوحة لامرأة في وضعية مثيرة ملتقطة في تسعينيات القرن الماضي، حسبما يظهر من طراز الحاسوب المبين فيها، فالتدخين يساعده على التفكير.

البطلة الأولى في القصة هي المصورة (كريستا)، التي سبق أن أهدته اللوحة، والتي سبق لها أن ذهبت برحلة محفوفة بالمخاطر إلى كولومبيا لاستكشاف مناطق بعيدة عن الحضارة وعوالم مجهولة، فتعاني فيها عقابيل عضة حشرة حريش الأمازون، ولتعود بذخيرة من صور بقيت غير منشورة بسبب تغير اهتمامات ملتقطتها، وتحولها إلى المسرح.

ومن حيث لا ندري يدخلنا السارد بسرعة إلى صفحة من رواية (الحارس في حقل الشوفان) لـ(سالنجر)، ثم يخرجنا منها بالسرعة ذاتها، تاركاً لنا فضولاً كي نضعها ضمن مشروعات القراءة المستقبلية.

ثم يخرج بنا إلى ضفاف نهر (هافل)، ليمتعنا بمرأى السفن والبط بينما هو يقضم الكرواسان على مقعد. ودون سابق إنذار يحدثنا عن (شباندا) منطقة سكناه، التي صارت جزءاً من العاصمة رغم إرادة أهلها بالتصويت لصالح بقائها بلدة منفصلة، وعن هدوئها وناسها وجدران بيوتها غير الكاتمة للأصوات، بحث يستطيع سماع صوت جريان المياه في حمام جارته التي لا يعرف اسمها، وإن كان يعرف أن أباها هو من يرعى قطها في غيابها. وفي مجرى سرده يذكر لنا الاختلافات بين واجهات الأبنية، كما في منطقة (شارلوتنبرغ)، كأثر ثانوي للحرب العالمية الثانية، التي تسببت بتدمير نحو ستمئة ألف شقة في برلين وحدها.

ومن خلال رجل يحتسي البيرة على قارعة الطريق، نتعرف على (بيكس) الماركة التجارية لأحد أنواعها، ومن ملصق على عمود إنارة يخبرنا السارد بأن التقاط براز الكلاب من الشوارع بأكياس بلاستيكية سوداء للتخلص منه هو واجب أصحابها.

في جولته الشباندواوية يحدثنا الراوي عن كنيسة القديس نيكولاي، وعن ملجأ ساحة فولدريش، وعن ارتياده هذه الكنيسة أسبوعياً أيام الخميس للاستماع إلى موسيقا الأورغن.

وفجأة يستقل راوينا قطار الأنفاق ليذهب إلى بيت كريستا، التي لم تكن في منزلها، فتستقبله أمها (هيلدا)، التي تعاني عقابيل جلطة دماغية سابقة تؤثر على تحكمها بنفسها، لذلك يتصرف الراوي في حضورها وكأنه في بيته هو. ومن خلال تتابع السرد نعرف أن الابنة في موعد مع أحد الموسيقيين من أجل مسرحية (كلهم أبنائي) لـ(آرثر ميللر) المكتوبة في حقبة المكارثية ومناهضة الشيوعية، المسرحية التي تنتقد الحلم الأمريكي، وكان (إيليا كازان) أول من أخرجها، في حين تستعد هي لتعيد إخراجها، ثم يستدرج الراوي الأم كي تتحدث عن معايشتها للحرب، فنعلم منه ومنها أنها قد ولدت في عام صعود النازيين إلى السلطة، وأنها لم تشعر بآثار الحرب إلا بعد أن وصل لظاها إلى مدينتها في العام ١٩٤٤، وعن أحوال الناس في تلك الفترة وأجواء الرعب التي عاشوها في ظل القصف، وعن الموت والدمار والجرحى والطوابير للحصول على الطعام، وعن الخشية من اقتراب الجنود الروس ذوي السمعة السيئة، سمعتهم التي سبقت مجيئهم وتصرفاتهم المخيفة، وعن شائعات سلبهم لأموال الناس واغتصابهم للنسوة اللاجئات إلى الأحراش، وعن تبخر أعضاء الحزب النازي وقوات الشرطة عشية هزيمة النازية.

بعد استعادته لتجليات حرب كارثية على المدينة وتناوله للطعام مع هيلدا يخرج الكاتب من منزلها ليقودنا في جولة عبر مناطق مختلفة من برلين وصولاً إلى تقاطع شارعي (أونتر دن ليندن) و(فريدريش شتراسه)، ليجد من خلال الصور واللوحات الإعلانية هناك فرصة كي يحدثنا عن (زيلله) أحد أوائل المصورين الألمان، المصور الذي وثق بصوره شوارع برلين الغنية والفقيرة ولباس الناس أوائل القرن العشرين.

في جولته هذه نكتشف وجوداً لمقهى باسم (رضا)، ومحاضرة لكاتب أردني عن الحب المثلي أغلب حضورها من المثليين العرب، ومكتبة مختصة بأدب المثليين اسمها (برينتز أيزنهرتز) اقتنى منها الراوي كتاباً عن تربية الأطفال، ليقدمه هدية لـ(كاتيا) و(أنتونيا) الامرأتين المثليتين، اللتين تحب إحداهما الأخرى حباً جنونياً، واللتين رغبتا بامتلاك طفل يخصهما، لذلك أقدمتا على أمر غير مسبوق، إذ أقنعتا (توماس) شقيق أنتونيا بالنوم مع كاتيا، كي تحمل منه، فلا يكون ابنهما ابناً بالتبني، وكان ما كان من ممارسة جنسية ثلاثية الأركان، الممارسة التي سار الراوي عميقاً في وصفها بالتفاصيل غير المملة.

ثم يعود بنا الكاتب إلى مقهى رضا، ويحدثنا عن صور المشاهير التي تزين حيطان المطاعم والمقاهي والبارات التي عرفها، ويجري مكالمة مع كريستا التي سبق له أن حضر إحدى بروفات مسرحيتها. وبعد ذلك يأخذنا باتجاه (بانكوف) وتحديداً إلى الشارع المهم (شونهاوزر أليه) في منطقة (برينتسلاوربرغ)، التي كانت بؤرة للثقافة المختلفة في برلين الشرقية، والتي هجرها سكانها الأصليون بعد انهيار جدار برلين، السكان الذين سبق أن عانوا الطغيان، ورخصت أبنيتها كثيراً بعد أن شغرت من ساكنيها، فاشترتها الشركات، لتعيد تأجيرها للشباب الغربي التواق إلى اليوتوبيا، ومن ثم للشبان الثائرين الذين هجروها، إنما بأجور أعلى.

ومن خلال أحاديثه عن زيارته لكاتيا وأنتونيا، يعلم القارئ أنهما قد رزقتا بابنة اسمها (آلاين)، وعمرها زمن القص عدة أشهر، وكيف تتقاسمان العناية بها، ويصير بإمكاننا أن نعرف شيئاً عن فيلم (دوغ فيل) من إخراج الدنماركي (لارس فون تريير) وبطولة (نيكول كيدمان)، حيث يتحول العمل المجاني لقاء الأمان إلى استحواذ وعلاقة أسياد وعبيد، ثم يأتي انتقام لا بد منه ينتهي بقتل البطلة لحبيبها بطلقة في رأسه.

كان التعارف الأول بين الراوي وهاتين الفتاتين في بيت كريستا، وتطور بعد حضورهما لقراءة له في ناد أدبي عن أجواء الحرب في حلب، وبعد إعلانه عن رغبته بكتابة رواية تجمع بين طياتها معاناة أهل مدينتي برلين وحلب في ظروف الحروب. ومن الحوارية الدائرة، نفهم أن ابنة السارد ما تزال بخير في حلب، وأن كاتيا طبعت بضع صفحات من يوميات جد أنتونيا، التي أثارت اهتمام الكاتب،

ففيها تفاصيل دقيقة عن أولى طلقات المدفعية الروسية على قرية (كاروف) في منطقة بانكوف، وعن قبر الزوجة الذي صار حصناً لأوراقه المهمة، وعن سير المعارك، وتتالي سقوط المناطق، وعن الحفر في جدران المنازل للانتقال من مكان إلى آخر والهروب الآمن، وعن القصف الشديد من الطيران والجثث المرمية في الشوارع والناس الذين يفترشون الأرصفة، وعن صعوبات تدبر أمر الطعام، وعن دفن القتلى في الحدائق العامة وجنائن البيوت، وعن تبخر إيمانه بقوة بلاده، وعن حصوله على دراجة صالحة من اثنتين محطمتين، وعن كيف غرق ما تبقى من رجال ألمان في شرب الـ(شنابس) بينما تسلت نساؤهم مع الجنود الروس، إذ ليس باليد حيلة، وعن بيوت مستباحة ومحطمة، وعن عائلة هجرت يجري البحث عن أفرادها دون أن يتكلل بحثه عنها بالنجاح.

الانتقال من حدث إلى آخر في الرواية يجري بوتيرة تجعل أنفاس القارئ تتقطع في سعيه إلى الإمساك بتلابيبها، فها نحن أولاء أمام ذكر خاطف لرواية (فابيان) للكاتب الألماني (إيريش كستنر) عن تدهور الحياة السياسية والاجتماعية والأخلاقية في (جمهورية فايمار)، لكن ذلك ليس إلا البداية، كي نعرف من خلال جلسة صفاء بين الراوي وكريستا في المطعم المكسيكي (تيكس ماكس)، أن غريماً للراوي اسمه (غونتر) ينافسه على قلب كريستاه، فهو حبيبها السابق الموسيقي البوهيمي المتمرد، الذي انفصلت عنه، ولم تستطع أن تنساه، مع أن لديه ابنة رسامة من ممثلة معروفة، وهو يريد من كريستا أن تعود إليه بعد أن وافق على أن يتزوجها لتنجب منه، فيكون أباً لطفلها، لأنها لا تريد لطفل تنجبه أن يعيش تجربة ابن الأم العزباء.

بوحها المؤلم كان لا بد له أن ينتهي بجائزة ترضية له، جائزة نالها كعاشق عابر في حياتها لا نصيب له بأكثر من الترضية في مخدع للعشق بعد خروجهما من المطعم وعبورهما نهر (شبريه) وتسكعهما معاً دون شعور بضخامة برلين لانشغاله بأحاديثها عن حزبي (البديل) و(الاشتراكي الديمقراطي) مع مرور بجانب متجر (إيكيا).

خسارة معركة الحب أعادتنا مع الراوي إلى أوراقه وصوره التي التقطها في حلب القديمة، بينما هو يتنقل من غربها حيث يسكن إلى أحيائها الشرقية حيث تسيطر الفصائل المسلحة لمعاينة الدمار الذي لحق بالمدينة، مع كل ما يرافق ذلك من مخاطر القناصين وإهانات على الحواجز وابتزاز. ونتعرف من خلال ذلك على منطقة ميسلون ومدرستها الابتدائية التي درس فيها الراوي، وطريقا أقيول الفوقاني والتحتاني، ومقبرة جبل العظام، كما نتعرف على الأستاذ ممدوح القصير القامة الذي أحبه جميع التلامذة، وساحة باب الحديد وشارع بنقوسا، وحارة الباشا، وعلى بكري الكردي وصبري مدلل من صحنية جد الراوي الذي نظم جلسات شهرية للموسيقيين والمطربين الحلبيين.

ومن خلال هذه الأوراق نعلم أن والد الراوي تاجر حبوب تركز عمله في جادة جب القبة المعاكسة اتجاهاً لـ(جادة الخندق)، وأن إحدى صوره كأحد الموثقين لجرائم الحروب ملتقطة بوضعية انبطاح لحظة سقوط قذيفة على مبنى في الساحة المكتظة بعشرات المقاتلين، الذين يرتدون ثياباً مدنية ويعصبون رؤوسهم بالكوفيات، وهي الساحة ذاتها التي كانت تتحول إلى مدينة ملاهي في الأعياد الإسلامية، ونعلم من حكايته أن كشكاً للجرائد كان قريباً من البرج نهاية أعوام الخمسينيات، وأن والد الراوي كان من متابعي مجلة الأسبوع العربي والصحف اليسارية، وأن قطعة أرض صغيرة هناك شغلها بائع باع كأس الشاي بخمسة قروش والقهوة بعشرة.

ولأن مصائب قوم عند قوم فوائد، فقد صار الراوي على صغر سنه بالمصادفة البحتة بائعاً لجرائد الكشك بعد أن أوقف صاحبه وقريب أبيه (إبراهيم) ودخل السجن. ومن خلال مهنته هذه استطعنا معرفة أن جريدة برق الشمال كانت تصدر في حلب، وأنه كان يستلمها عند مدخل المطبعة في قبو إحدى بنايات شارع القوتلي، وأن وكيل توزيع الصحف كان من آل(الكيالي)، وأنه كان على عاتق بائع الجرائد الصغير أن يعيل أسرة الموقوف أيضاً من ريع المبيعات.

تداعي الأفكار يجري في الرواية بوتيرة عالية، وينتقل بنا زمنياً من خمسينيات قرن إلى العقد الثاني من قرن تال، فإذ بجيش النظام يستعيد السيطرة على منطقة كانت بيد المسلحين، فيطال التدمير مناطق إضافية عند مقبرة الجبيلة وقريباً من باب النصر، التي كانت إلى حد ما سالمة قبل بضعة أشهر، ولا تنجو منه سينما السعد، التي لها عند الراوي قصص وحكايات عن أفلام وأبطال وأجواء سينمائية ذهبت ولن تعود. وفي هذه الجولة الجديدة يكتشف القارئ أن خالة الراوي (عزيزة) هي أول امرأة في المدينة حملت شهادة طب الأسنان بعد أن تخرجت في جامعة اسطنبول. وفي هذا السرد أيضاً نعيش مأساة تدمير مئذنة الجامع الأموي وسوق حي الجلوم الأثري وحرق أمهات الكتب والمخطوطات القديمة في المكتبة الوقفية وأجزاء كبيرة من أسواق الحبال والسقطية والخيش والعطارين والذهب والسجاد والخانات التي كانت المركز التجاري الأهم للاقتصاد السوري، ونعرف ماذا كان يلفت الانتباه في سوق النسوان، وماذا حصل من تخريب للمطبخ العجمي، الذي كان قصراً لأحد الأمراء الزنكيين، التخريب الذي طال أيضاً الدكاكين المختصة ببيع العطور والألبسة وقلعة حلب التي شهدت تصوير فيلم للمخرج الإيطالي (بازوليني) تحت جدران سورها.

هذه الجولة المكوكية بين برلين وحلب تتكرر كثيراً بين دفتي الرواية، وهي تظهر تشابهات في المآسي، التي عانتها المدينتان في ظل حربين لا ناقة للناس المدنيين فيها ولا جمل. ومع ذلك، كان عليهم أن يتحملوا تبعاتها وكوارثها ومشاهد الموت والخراب والتشرد والألم بسببها.

اختزال الرواية بقراءة مبتسرة فيه إجحاف بحق نص أدبي على غاية من الروعة، وفيه إجحاف أكبر بحق أديب سكب كل معاناته ومشاهداته على الورق فأبدع وأجاد، وهي لا تغني إطلاقاً عن قراءة الرواية مثنى وثلاث ورباع، ففي كل مرة يكتشف القارئ جديداً ممتعاً ومحزناً في الآن ذاته فيها، وفي كل قراءة يسوح في عوالم أخرى مجهولة، لكنها تستحق أن نعرفها بكل تأكيد.

والخلاصة

الرواية تتناول حال شخص يعاني الاغتراب، ويعيش نمط حياة رتيب في غربته مع مساحة للتأمل والتفكير، وتربطه علاقة وثيقة بالأشياء والذكريات، ويعيش مع بعض أبطال الرواية الآخرين أزمة هوية وبحث عن الذات، كما أنه يطرح التأثيرات النفسية للأحداث التاريخية على شخصيات روايته، ويصور تفاصيل الحياة اليومية الدقيقة لأبطالها، ويظهر تقاطعاً وتشابهاً للأحداث بين بلدين في ذروة كارثتين مرا بهما، ويبين أيضاً تحديات الاندماج في مجتمع جديد على ضوء التفاعلات اليومية والذكريات العميقة وتداخل ذكريات الماضي مع وقائع الحاضر ووجود فجوة بين الأجيال تعكس تباين التجارب الحياتية .

وهناك شيء على غاية الأهمية في هذه الأوراق البرلينية، ألا وهو البحث عن معنى الوجود من خلال التدقيق في حياة الآخرين وتجاربهم وتاريخهم الشخصي من خلال الحكايات الصغيرة في محادثات معهم.

وهناك جانب فيها ينبغي عدم إغفاله، ألا وهو الأثر النفسي للحروب على الأشخاص، وقضايا الرعب الشخصي من وحشيتها وهمجية المشاركين فيها، والذي يتبدى في سلوكهم اليومي أثناءها وفي طريقة تأقلمهم مع أجواء ما بعد انتهائها.

الجانب الآخر المهم في الرواية هو مسألة التنوع الثقافي والجندرة ووجود مساحة ومنبر للتعبير عن المختلف، الذي لا ينتمي إلى الأغلبية السائدة والمسيطرة، ومفهوم الأسرة الجديد الآخذ في التبلور، الذي لا يتطابق مع النمط التقليدي المعروف للأسرة تاريخياً.

كما أنه يوجد أمر آخر مهم في الرواية ينبغي الإشارة إليه، وهو أن الماضي لا يختفي بتغيير الأمكنة، بل يبقى في نفوس اللاجئين الفارين منها والناجين من كوارثها وأهوالها.

والرواية بهذا الفهم ليست مجرد قصة شخصية، بل هي شهادة على تاريخ طويل ومعقد لمجتمعين متباينين وعلى تحولات الهوية في عالمنا المعاصر.

وفي كلمة أخيرة أختم بها، فبرلين في هذه الرواية ليست مجرد مكان مستخدم للقص، بل هي رمز أساسي وحقيقي للتحولات، التي يعيشها الأفراد والمجتمعات في هذا العالم العاصف والمتغير بشدة وسرعة لا وصف مهما توسع وطال يحيط بما يجري فيه.

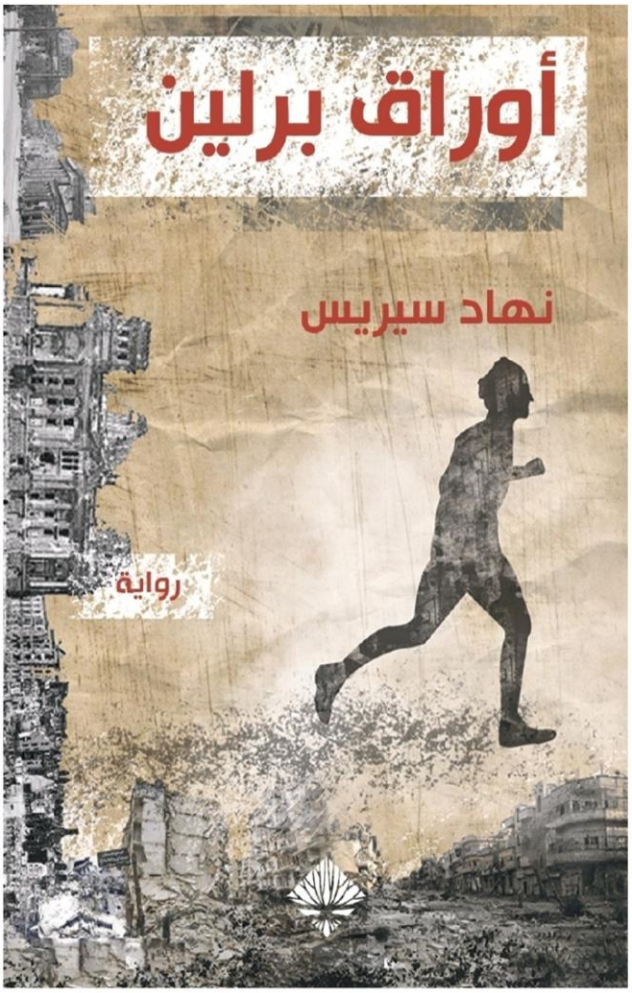

جاكلين سلام

شاعرة، كاتبة ومترجمة سورية كندية مقيمة في تورنتو منذ عام ١٩٩٧. صدرت لها ست مجموعات شعرية، وكتاب حوارات ومقالات وترجمات بعنوان: حوارات على مرايا الهجرة. ولها مقالات نقدية في الثقافة والأدب والمجتمع منشورة في صحف ومجلات عربية وكندية.

مع ألبرتو مانغويل وجها لوجه في مهرجان تورنتو للأدب العالمي

الرقابة الدينية والسياسية موجودة منذ بدء التاريخ ويجب محاربتها

محطات.. لقاءات مع كبار كتاب العالم في مهرجانات الأدب في تورنتو

كنتُ محظوظة أو شغوفة بالآداب العالمية وروادها وكان لي فرصة حضور لقاءات مع كبار المبدعين والمفكرين أثناء زياراتهم إلى كندا ومنهم الإيطالي العالمي أمبرتو إيكو، سلمان رشدي، وول سوينكا، آذار نفيسي، مارغريت أتوود، جون رالستون صول، أليس مونرو، و ألبرتو مانغويل الذي هو محور هذه الورقة.

التقيتُ مع المبدع الموسوعي ألبرتو مانغويل أيام مهرجان تورنتو العالمي للمؤلفين سبتمبر ٢٠٢٣ وكنت مشاركة ومحاورة حول موضوع (الشعر والحرية) ودار بيننا حديث طويل قبل وبعد المحاورة الرسمية في الصالة. كنت أستمع وأسأل وأكتب أقواله في دفتري مترجمة من الإنكليزية إلى العربية. وأقدم هذه البانوراما لأفكار ألبرتو مانغويل لقراء العربية وهو يعلم بأن له حظوة ومقاماً في الشرق الأوسط ويحظى بالتقدير، وقال بلسانه عن نفسه أنه محظوظ، ويعرف بعض المبدعين الجيدين الذين لم يحالفهم الحظ في الانتشار.

هل يمكن لامرأة أن تكتب كما لو أنها وحيد القرن

كنا عدة كتاب من كندا واسبانيا والارجنتين، خلال حوارنا مع ألبرتو مانغويل تحدثنا عن الكتابة، قلت له: أنا أكتب من موقعي كامرأة شرقية، كمهاجرة، كأم، كزوجة، كإنسانة عاشت مخاض الاغتراب وتجربة اللغة الأولى والثانية. كان يسمع بصبر، ثم قال: ألا يمكنك أن تكتبي كما لو أنكِ وحيد القرن!؟

فضحكت ولم أجد جواباً. وكلما رأيت صورة (وحيد القرن- يونيكورن) في قصص الأطفال وعلى ثياب حفيدتي، أبتسم وأتذكر تلك الإشارة الذكية والمرحة .

الفكرة، أن تناقض مقولة (اكتب ما تعرفه)، بل اكتب ما لست أنت، وما لا تعرف كي تكتشف.

حين جاء ذكر الشاعر محمود درويش، وكان قد التقاه في باريس ويعرف سيرته الشعرية ومواقفه. وفي الحديث عن أن الشاعر صوت الأمة قال مانغويل: هم اخترعوا للشاعر هذه الصفة، هو لم يكن يريد ذلك لشعره. وذكر لنا بأنه منذ سنوات حاول مع آخرين افتتاح مكتبة ضخمة مجانية في رام الله، فلسطين، بمعونته الأمم المتحدة، ولكن الحلم لم يكتمل بسبب الخلافات بين أطراف السلطة الحاكمة في فلسطين. تحدثنا عن الترجمة إلى العربية، ذكر بأن مترجمته إلى اللغة الفرنسية، وهي سيدة عربية (سين) ارتكبت غلطاً في ترجمة مادار بينها وبينه من حديث إلى الفرنسية وفهم من كتابتها لمقدمة الكتاب بأن الذي يجمعهما "حميمي" وهذا غير صحيح، والترجمة تخون الكاتب، قالها وهو يضحك.

لفتت نظري أناقته الفارهة ابتداء من حذائه إلى قبعته. وحين سألته عن الخاتم المميز الذي في إصبعه، حدثنا عن أسطورة اقتنائه وتاريخه. يبدو لي لو أنه جاهز لكل سؤال والعفوية لديه نابعة من كنز المعرفة التي في رأسه وهو عاشق المكتبات والقراءة والقراء في الشرق والغرب.

ألبرتو مانغويل يستهشد بجملة لي في مهرجان تورنتو العالمي للمؤلفين

جلسة حوار طويلة حدثت دون تدبير مسبق من قبلي، بل كانت صدفة ثمينة للحديث الكندي الارجنتيني، وكانت الكاتبة التونسية العراقية سمر المزغيني حاضرة معنا حول طاولة مستديرة صغيرة بالمناسبة هو يفضل التعريف عن جنسيته وهويته بأنه كندي وفقط فهو يحمل الجنسية الكندية ويقيم متنقلا بين كندا وبلاد أخرى.

كنا نتبادل الأفكار عن الكتابة والترجمة، عن كتبه ومترجميه إلى العربية، ودور النشر، كالساقي وغيرها. أثناء الدردشة ذكرتُ فكرة وفقرة من قصيدة لي بالانكليزية، وكان ينصت إليّ جيدا. أعاد ما قلته وتوجه إلى الأصدقاء الآخرين حول الطاولة لإيصال تلك الجملة لهم. والتقطنا حينها بعض الصور. إلى أن حان موعد جلسته الرسمية. الجلسة الرسمية لمحاضرته معه بدأت في السابعة مساء، وكانت مشاركة مع كاتب ومترجم شاب برتغالي Joao Reis ويترجم من والى عدة لغات. قلتُ: الحكايات- نصف المحكية، هي التي تهمني وأحاول كتابتها.

الصالة الرسمية وأسئلة الحضور

أثناء الأسئلة المطروحة من قبل الحضور، وسؤال من قبل الصديقة التي كانت جالسة جواري "سمر المزغيني" عن لماذا يكتب ولمن؟ فاجأني في إجابته لصديقتي بالإشارة إلى الجملة التي قلتها أثناء المرتجل قبل ساعة. لم يتذكر اسمي- أول مرة التقي به شخصيا كي يشير إليه. فأجاب: الشاعرة التي تجلس في جوارك قالت: نكتب من الحكايات- نصف محكية. ثم توسع في الرد حول الكتابة من أجل تلك الحكايات غير المكتملة، مع ترك مساحة للقارئ للتخيّل والتأويل.

البرتو مانغويل القارئ العالمي والكاتب الموسوعي، اقتبس جملة مني -جاكلين سلام كاتبة هذه السطور- جملة شعرية رددها بإعجاب عن لماذا نكتب ولماذا أنا أكتب الشعر. كانت تلك بمثابة جرع ثقة، تلقيتها بذهول، وليس الغرور ما شعرت به بل الغبطة، بذلك الإحساس والامتنان للشعر والأدب الذي يبلور جهودنا ويجمّل وجودنا.

بعد نهاية الحوار كان هناك ركن لتوقيع كتبه القديمة والجديدة. اشتريت آخر كتبه هو كتاب بيوغرافي عن سيرة العلامة (بن ميمون). لاحظت أنه يوقع للقراء على مهل وفنية كمن يكتب قصيدة قصيرة أو يرسم صورة بخط اليد وبقلم حبر أنيق. كتب لي الإهداء، فقلت له حين انتهى من التوقيع: أنا أثمّنُ أنك كنت تتحدث عن الكاتب الشاب الذي في الجلسة معك أكثر مما تحدثت عن نفسك، كنت لي مثالا سأذكره في كتاباتي. ابتسم وهو يربت على يدي: "إنها مسألة احترام ولطف ."

كانت فعاليات المهرجان الأدبي في مدينة تورنتو الكندية ابتداء من يوم ٢١ سبتمبر ولغاية الأول من أكتوبر ٢٠٢٣.

* * *

فكرة على هامش التواضع والغرور:

لماذا يتعامل الكاتب غير العربي بلطف شديد وتواضع وخلافاً لبعض الكتاب العرب الذين تلقيتهم في مناسبات شتى في مهرجانات المدينة ومراكزها الثقافية في كندا وخارجها؟!

كان المبدع الكبير دمثاً ومتواضعاً ومحاورا فضولياً يستمع ويجيب. الحديث معه حصل في صالة مخصصة لاجتماع الكتاب أثناء مهرجان تورنتو العالمي للمؤلفين حيث تدور الحوارات والقراءات في صالات عدة منذ الصباح حتى المساء. الصالة تطل على البحيرة حيث يوجد مقاعد وطاولات للاستراحة لمن يرغب بالجلوس هناك من الكتّاب المدعوين للمهرجان. بعد أسبوع كتبت له عبر الإيميل شاكرة له وقته ولطفه ووعدته أن أرسل له بعض كتاباتي المترجمة كما طلب مني. كتبتُ له إيميلا وكتب رداً وكان ذلك في بداية شهر اكتوبر ٢٠٢٣ حين أصيب العالم بجنون الحرب والقتل مرة أخرى، كان ذلك بعد أيام من ٧ أكتوبر ٢٠٢٣. أهديته ديواناً لي بالعربية ولم أرسل القصائد المترجمة حتى الآن.

هامش: هذه المقالة سوف تنشر في كتاب لي يصدر قريبا بعنوان: يوميات القراءة والكتابة، متضمنا تجربتي الأدبية ونشاطاتي في أكثر من ربع قرن في مدينة تورنتو التي تعتبر مركزا حيويا للثقافات الكندية والعالمية.

أفكار جمعتها أثناء حديثنا معا ومحاضرته والحوار المباشر

"على الكاتب أن يعلّم القارئ كيف يقرأ وهذا يسمح للقارئ أن يتابع ويشعر بالمتعة"

"قدر الشاعر أن يتلقى الوحي ويلقيه على الآخر وأحيانا فقط يلامس البعض. أعرف كتابا وشعراء كبار لم يحالفهم الحظ"

"القارئ يتلقى صوت الكاتب ثم يعيده ويفسره كما يريد فيما بعد"

"أغلب الأوقات نحن نعاني من تناقض الأصوات التي تقول لنا إلى أين يجب أن نمضي"

"نحن لدينا دور في هذا العالم، ويجب أن نكمل طريقنا حن ننظر إلى كل ما يجري من حولنا"

"الرقابة تقف ضد الإبداع. يجب علينا تجنب الرقابة، وإذا استمعت إلى صوت الرقيب سوف تتأثر كتابتك. والرقيب يقيم ومنذ بدء الكتابة. الرقابة الدينية والسياسية موجودة منذ بداية التاريخ. يجب أن نحارب كل أشكال الرقابة"

"قد يجد الكاتب صوته إذا قام الناشر والسلطة والحكومات بمحاصرة الرقيب، حينها ينتصر صوت المبدع"

"إذا كان الكتاب الذي أكتبه لا يزعج أحداً فلا ضرورة له. أريد من القصة أن تضربك على وجهك لتستيقظ"

"الأدب لا يعطيك كل شيء ولا يجعلك شخصاً أفضل"

"لا أومن بأي عمل متحيز جنسياً وجينياً. نحن نريد أن ننظّف التاريخ"

"كلمة زنجي كانت مستخدمة في الأدبيات التاريخية فلماذا نريد أن ننظف المكتبات من تلك الكتب التي كانت شاهدا على تلك الفترة والمصطلحات. إذا كان التاريخ وسخا لا تنظفه وتلمعه"

"قارئ الأدب حين يقرأ كتابا مهما يسأل: ما هو هدف الكاتب، وما هي حدود حريتنا في ترجمة هذا القول"

"الأديب يكتب والقارئ يترجم ما يتلقاه إلى لغات أخرى"

"لا يعرف الكاتب الهدف والغاية لأن ذلك يعتمد على المتلقي، أنا أقرأ من تجربتي، حين أقرأ الأوديسة، وأخذ ما يهمني. ما هو مهم بالنسبة لي قد لا يكون كذلك للآخرين"

"يجب أن يكون المترجم مخلصاً للأصل، وقد تكون بعض الترجمات أفضل من النص الأساسي"

"الترجمة طريقة لإبقاء الكتب حية"

"كي تتغلب على الخوف من الكتابة بلغة أخرى، اقرأ بلغة الآخر"

"أدب الكراهية، أنا اسميه أدب الخوف، الخوف من الآخر"

"في حياتي لم يحدث أن قرأت كتب عالمية ذات قيمة وشعرت بالكراهية منذ السطور الأولى"

"أنا أكتب في الصباح الباكر لأن طاقتي جيدة في ذلك الوقت"

"القارئ يريد من الكاتب أن يعطيه ما يحب. القصة تأتي من المسافة بين السطور حيث يستطيع القارئ أن يشارك فيها"

"نكتب كي نجد ما لا نعرف لأن الأدب عكس السجلات الوثائقية.ولا يعطي الأدب أجوبة، بل يفتح الذهن على المزيد من الأسئلة"

"الأدب يسمح لنا أن نذهب في كل الجهات وفي نفس الوقت، والكاتب يوجه القارئ من خلال المفردات، التحركات، بناء السرد، الحلول المبتكرة"

"إذا كان الأدب للإجابة على سؤال واحد بجواب واحد، هذا يعني نهاية الطريق ولا حاجة لنا لمواصلة الكتابة أو القراءة"

"نحن البشر طورنا ملكة الخيال ليعطينا فرصة التجربة، دون أن نقوم بالتجربة"

"الخيال يمثل عضلات السارد كي يقدم صورة عن عالم مكون من إحداثيات، ألوان، أشكال، ومخاوف..."

"في الأدب نحن نخترع العالم. وأثناء القراءة نحن ننجذب لا إلى صوة، صورة معينة، وليس لكل فرد، ونحب الشخصي الذي نحبه نحن لأننا مختلفون، ولا نستطيع أن نشرح ذلك، بل نبتكر، نخلق"

"إذا أحببت صوتاً لأديب، حاول أن تقلده إلى أن تجد صوتك، خاصتك وتتبناه"

"لا يوجد شيء أصليّ بعد، كل شيء قيل وكتب من قبل. ولكن الذي تفعله أنت أنك تعيد نفس القصة بطريقة مغايرة"

"أنا لا أريد أن أتحدث عن كيف تكتب قصة، أنت تكتب والصفحة في متناولك وأنت حر في كيفية تحرير نصوصك دون تدخل الرقيب الذي يقف دائما على كتفيك"

"أنا لا أريد أن أسمع وأقرأ مشاكل الكاتب والعالم، أريد أن أقرأ ما يمتعني كقارئ، وما يجعلني أكتشف شيئاً جديداً"

ميشيل سيروب

كاتب وناقد ومعتقل سياسي سابق

رواية "صيد العصاري"... الحب وخيبة الصيد في حلب القرن التاسع عشر

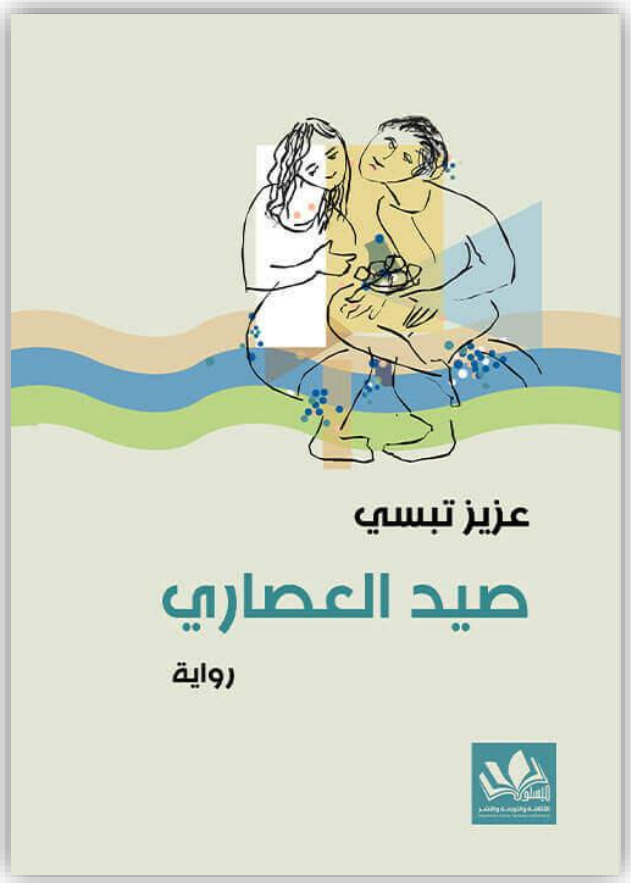

صيد العصاري رواية عن الصراعات السياسية والاجتياحات العسكرية وحروب الآمال العالية والخيبات والانكسارات الموجعة في مدينة حلب بين عامي ١٨٠٠-١٨٧٠، حيث شكلت تلك المدينة مسرحا لأحداث الرواية.

الروائي عزيز تبسي مسكون بأفراح وأوجاع مدينته الأثيرة، وهذه ليست الرواية الأولى التي يتناول فيها أواصر الصداقة والمحبة بين أحياء حلب وسكانها، وأيضاً صراعاتهم واختلافاتهم المذهبية ومصالحهم المشتركة في التجارة والورشات الحرفية. فجاءت روايته الجديدة عملا جديرا بالاهتمام إذ تُلقي الضوء على ماضي المدينة وسكانها منذ قرنين من الزمن، فهل تلامس الرواية حاضرنا الذي تتراكم فيه الخيبات والصراعات الهامشية؟

أهدى المؤلف روايته للمفكر والكاتب التنويري جورج طرابيشي (١٩٣٩-٢٠١٦)، وهذا الإهداء يحمل رمزية كبيرة تشي برغبة الروائي التمسك بالفكر النهضوي كطريق يَكّمنُ به خلاصنا.

- كتبَ نجيب محفوظ عن القاهرة بشغف، كما كتب إبراهيم الكوني عن الصحراء بحب وشوق كبيرين، وأجدكَ اليوم تكتب عن حلب مرة أخرى، إلى أية درجة أنت مسكونٌ بحلب، وما سر العلاقة العاطفية التي تجمعك بهذه المدينة العريقة، هل هي شغفك الأوحد؟

* أهتم منذ زمن بالمدينة العربية وتحولاتها، بكونها حصيلة تراكم عرقي وثقافي واسع وعميق، الحضور الفاعل للمدينة بصفتها مدونة تاريخية مفتوحة على تأويلات متعددة وغنية، وحلب مدينة عريقة، من أقدم المدن المأهولة على الكوكب، يظهر هذا في تعدد أنماط العمارة والتحصينات العسكرية والمساجد والأسواق والخانات والحمامات، نقرأ في كل منها العصر الذي تنتمي إليه من فترة الحكم العثماني رجوعاً إلى المماليك والأيّوبيين.. الخ.

صروح شامخة أمامنا وتدعونا لاستنطاقها والحوار معها، هذا غير القلعة الرابضة كشاهد تاريخي لايزول. جلبت هذه المراحل الشعوب المختلفة العرب هم الأساس التكويني للسكان على مستويي اللغة والثقافة على الأقل، وتحضر الشعوب الأخرى الشركس والأكراد والأرمن والتركمان، انعكس هذا كله في التقاليد العمومية والأغاني وأنماط الطعام والمنسوجات.. كثيرة هي المدن في بلاد الشام التي تحمل هذا الإرث، وقد تحول أغلبها بفعل عوامل متعددة، أهمها الاجتياحات العسكرية المدمرة، إلى بلدات هامشية كبلدة "قنسرين" على سبيل المثال، وإلى متاحف في العراء كأفاميا وبصرى وتدمر.. شروط عديدة كانت وراء وصول مدينة حلب الى مكانتها، لتوسطها الطريق بين اسكندرونة على شاطئ البحر المتوسط وبالس-مسكنة على ضفاف نهر الفرات، على طريق التجارة البعيدة. حلب مدينة المجازفة، فهي أمام خيار وجودي دائم لكونها بلا مصدر مائي.

شكل هذا كله خلفية لاهتمامي، لكن اهتمامي الأساسي بالناس وكفاحهم اليومي من أجل الحفاظ على حياتهم الكريمة، ومواجهة التحديات والتكيف مع المستجدات والطوارئ، رغم مركزية مدينة حلب إلى أطرافها، إلا أنها مدينة طرفية بالنسبة لإسطنبول في مرحلة الحكم العثماني والقاهرة في مرحلة المملوكي. أحلام أهلها بالعدالة والمساواة والكرامة كان وراء انتفاضتهم ١٨١٩-١٨٢٠ وهم من سيصابون بالصدمة يوم فرار حاميتهم العسكرية وباشاواتهم أمام تقدم جيش إبراهيم باشا ١٨٣١، وسيصابون بجرح عميق بعد تحول انتفاضتهم ١٨٥٠ إلى اعتداء على المسيحيين وبيوتهم وكنائسهم. المدينة هي مركز إهتمامي، بحثت لسنوات في تاريخها، وشكل هذا أساساً لكتابتي عنها.. وقد يتحول إلى مدينة دمشق، وهي بدورها ذات جاذبية لا يمكن مقاومتها.

- عطفاً على السؤال الأول: كتَبَ رفاق سجنِكَ: آرام كرابيت وراتب شعبو وياسين الحاج صالح عن تجربة السجن، بينما أنت تجنبت الكتابة، لغاية اليوم، عن تلك المحنة الإنسانية، هل من مشاريع مستقبلية للكتابة عن يوميات سجن تدمر (حمص) وسجن المسلمية (حلب) وعدرا (دمشق)؟

* بغض النظر عن السجن، الذي سرق من حياتي ما يزيد عن خمسة عشر عاماً، تبقى الكتابة عنه محصورة بالتجربة الذاتية.. تسلل السجن، الى كل رواياتي، لكنني لم أقرر بعد تخصيص كتابة مستقلة عنه، وهي بالعموم ستكون صعبة بعد كتابات الأصدقاء والكتابات الأخرى، لأن السؤال الذي سأواجهه ليس الكتابة فحسب، بل مدى وعمق ما يمكن إضافته للكتابات الأخرى.

يحتاج السجن الى تأمل يأخذنا إلى ما بعد التجربة الذاتية، مساهمة في فهم هذا النمط القمعي. بت على قناعة بعد ما حصل للشعب السوري، أننا ولجنا عتبة قمعية مهولة، انحدرت إلى قاع الإبادة، والحقيقة أنني أخجل من الكتابة عن تجربتي وتجربة رفاقي أمام ما رأيناه وسمعناه وشهدنا عليه.

-حملتْ ابتسامتها رسالة موجزة عن جمالها ومشاعرها ومزاجها العميق "مريانا الجميلة في الرواية ضوء خافت سُرعان مايتبدد في زحمة الأحداث، لماذا تعمدتَ إنهاء قصة الحُب تلك بهذه العُجالة؟

=كتب دستويفسكي في إحدى تجلياته التأملية"الجمال سينقذ العالم"،الجمال بالكاد ينقذ نفسه،أمام شروط القباحة التي تحاصره.حملت مريانا المعاني العليا للحرية والكرامة،لم يفهمها حبيبها،أو فهمها لكنه عجز عن الإلتزام بها.مريانا ليست ضوءاً خافتاً،بل هي الضوء الذي أضاء الرواية والحياة من خلفها،ووجهها الآخر هي كاترين،أخت المعلم بشير وأمه أسماء...في الحياة كما الرواية هناك قناديل لايتوقف ضياؤها حتى ينتهي زيتها وتجف ذبالتها.

*قال المتنبي وهو ابن حلب أيضاً: كُلَّما رحبتْ بنا الروضُ ....قُلنا حلبٌ مقصدُنا وأنتِ السبيلُ.

هل كانت السلطنة العثمانية تأتمن جانب المسيحيين المقيمين في حلب؟ وهل كان المسيحيون آنذاك، يعيشون" مُرغمين" مع المُسلمين أم أن الصمت، كنوع من التواطىء، كان قاسماً مشتركاً بين الطرفين كما ورد في الرواية؟

=ما الذي يخيف السلطنة العثمانية من جماعة لا سلطوية وغير مسلحة، تعمل لتعيش وتدفع الجزية وعموم الضرائب والجبايات العشوائية.هناك أخطاء تاريخية،تحولت بفعل العطالة النقدية إلى حقائق،ساهم في ترسيخها الإستشراق الإمبريالي،واستكملتها الرجعية المحلية..منها على سبيل المثال أن المسيحيين عاشوا خارج أسوار مدينة حلب،بينما تؤكد الوثائق والسجلات إلى تواجد المسيحيين تاريخياً بعدة أحياء داخل الأسوار،بنسب سكانية عالية،كأحياء الجلوم الصغرى والعقبة وجب أسدالله والمصابن..المسيحيون لايتعايشون،وإنما يعيشون بسلام وتشاركية،ويعملون بجد ومثابرة للنهوض بأحوالهم،وقسم غير قليل منهم اتجه الى تعلم اللغة العربية واللغات الأجنبية..اضطهاد المسيحيين ممارسة سلطوية،لها أثرها على الثقافة الشعبية.

-هل كان على المسيحيين انتظار المصريين لتحريرهم من عسف العثمانيين؟

=لا قرار للمسيحيين ولا المسلمين في بلاد الشام بحملة إبراهيم باشا، حملته دوافعها الطموح لتوسيع سلطته وإمتيازات عائلته والطبقة الاجتماعية التي يمثلها، حمل الرجل ووالده مشروع

تحديثي سلطوي، شمل توسيع مساحات الأراضي المزروعة وبناء الجيش والإدارات الحديثة والمصانع، وامتدت الى عناصر حقوقية كإزالة التمييز بين المسلمين والمسيحيين باللباس وغطاء الرأس والمشاركة بالوظائف الحكومية، وبخطاب دعا الى المساواة بالحقوق والواجبات بين الرعايا، ما نفذه إبراهيم باشا، سيعكف على تنفيذه الولاة العثمانيون بعد رحيله، وفق إصلاحات السلطان عبد المجيد والسلاطين الذين أعقبوه.

*اليوم الوضع الإقليمي في حلب، وسائر سوريا، يتقاطع مع الأحداث الملحمية للرواية، هل لنا أن نقرأ الرواية على ضوء الصراع الدامي والثورة السورية ومآلاتها؟

=يمكن قراءة بعض فصول الرواية بالتوافق مع أحداث الإنتفاضة الشعبية ٢٠١١، وما بعدها. وأود أن أخبرك بان الرواية جاهزة للنشر من عام ٢٠١٧.

ياسين الخلطي

طالب دكتوراه وباحث بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب، جامعة محمد الخامس- المغرب.

مباحث علم الصرف وعلم الصواتة عند العرب والغربيين

١- المقدمة:

يدرس هذا المقال موضوعين أساسيين في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة، هما علم الصرف وعلم الصواتة، حيث ركزنا فيه على أهم المباحث و المواضيع التي يقاربانها، سواء عند النحاة العرب القدماء، أو اللسانيين العرب و الغربيين المحدثين، وقد أخذنا هذا إلى معالجة مجموعة من القضايا المرتبطة بهما، لوجود فوارق بينهما على مستوى آليات تحليلهما لها. فالصرف العربي القديم اهتم بأنواع التصريف، والفرق بين المجال الصرفي والمجال الاشتقاقي، و كذلك أنواع الكلمات العربية، الشيء الذي جعلنا نشير إلى موضوع الميزان الصرفي. وبعد فراغنا من ذلك مررنا إلى الشق المرتبط بالصرف والصواتة الغربيين، على مستوى الكلمة واللواصق المشكلة لها. كل هذا جعلنا نطرح أسئلة من قبيل: بماذا تتميز الدراسات الصرفية الحديثة عن القديمة؟ وماهي الحدود الفاصلة بين علم الصرف وعلم الصواتة في آليات اشتغالهما؟ وفي ماذا تختلف مقاربة العرب والغربيين للكلمة؟ وماهي المكونات البنيوية والتركيبية للكلمة؟

ومنه قسمنا المقال إلى مبحثين أساسيين: الأول متعلق بالصرف عند العرب، وهو يشمل أنواع الصرف والكلمات العربية، وعلة اختيار الميزان الصرفي. أما المبحث الثاني فقد اهتم بالصرف والصواتة عند الغربيين، من خلال تحديد الأبعاد الصرفية و الصواتية والتركيبية للكلمة، بالإضافة إلى طبيعة اللواصق المشكلة لها.

٢- الكلمات المفاتيح:

الصرف_ الصواتة_ الكلمة_ الميزان الصرفي_ اللواصق

٣- الصرف عند العرب:

٣-١ تعريف علم الصرف:

إن مصطلح الصرف شديد الارتباط بالعلوم اللغوية العربية خاصة عند النحاة القدماء، الشيء الذي جعلهم يعطونه تعاريف عدة، تختلف بحسب المنطلقات المعرفية التي يستندون عليها. وقبل الإشارة إليها، نذكر أن علم الصرف له تسميات عديدة، فهناك من يسميه التصريف أو التحويل، كما أن أول من تكلم عن هذا العلم هو أبو مسلم الهراء (توفي ١٨٧هـ)؛ مولى محمد بن كعب القرظي أحد تلامذة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وكلمة الصرف هي مصدر الفعل صَرَّفَ؛ ومعناه لغة التحويل والتغيير من وجه إلى وجه، أو من حال إلى حال، وهذا ما جاء به القرآن الكريم في الآية الكريمة {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الجاثية:٥)، {وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ}(البقرة: ١٦٤)، {وانْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِقُونْ} (الأنعام: ٤٦). وجاء في القاموس المحيط "صَرْفُ الحَدِيث: أن يُزلد فيه ويُحَسَّن... تصريف الرياح : تحويلها من وجه إلى وجه. وصرَّفْته في الأمر تصريفا فتصرَّفَ، قَلَّبْتُهُ فتَقَلَّبَ"[١]. واستنادا إلى التعاريف اللغوية السابقة، يمكن أن نحدد تعريف الصرف في التحويل والتغيير، والزيادة والحسن، وكذلك اشتقاق الكلام بعضه من بعض، وهذا يعني أن المشترك بين كل هذه التعاريف؛ الخروج من حالة إلى أخرى على مستوى مجموعة من العمليات المؤدية إلى ذلك.

وعند استمرارنا في دراسة هذا العلم؛ أخذنا الكلام إلى الحديث عن معناه الاصطلاحي، الشيء الذي يجعلنا نركز على علاقة التعاريف السابقة بموضوع علم الصرف، منطلقين من تصور النحاة والصرفيين العرب القدماء؛ أمثال سيبويه الذي يقول في تعريفه" أن تبْنِي من الكلمة بناء لم تَبْنه العرب على وزن ما بنته، ثم تعمل في البناء الذي بنيته ما يقتضيه القياس في كلامهم"[٢]، من خلال هذا التعريف يشير سيبويه إلى أن علم الصرف يقوم بالاشتغال على الكلمة، انطلاقا من بنيتها عبر اشتقاق أوزان عربية جديدة، تُغني المعجم قياسا على الأبنية العربية الثابتة المتواضع عليها. يضيف الرضي"التصريف علم بأبنية الكلمة، وبما يكون لحروفها من أصالة، وزيادة، وحذف، وصحة، وإعلال، وإدغام، وإمالة، وما يعرض لآخرها مما ليس بإعراب ولا بناء من الوقف، وغير ذلك"[٣]؛ وهنا يظهر لنا بعد آخر لعلم الصرف، يشمل التغييرات والتحويلات التي تصيب الكلمة تبعا للدرس الصرفي الذي حدده القدماء.

ويقول ابن يعيش "إعلم أن التصريف مصدر وُضع كالعَلم على هذا العِلم للفرق، خصوا بهما ما عَرَضَ في أصول الكلم وذواتها من التغيير كاختصاصهم علم العربية بالتحول. فالتصريف كلام على ذوات الكلم، والنحو كلام على عوارضها الداخلة عليها"[٤] هنا نلاحظ تسمية أخرى للصرف هي التصريف (المصدر)، والتي تركز على العوارض والتغييرات التي تلحق البنى الأصلية للكلم العربي، كما يحدد ابن يعيش الفرق بين علم الصرف الذي يهتم بذوات الكلام، والإعراب الذي يهتم بتغيرات أواخر ذوات الكلم، وهذا ما ذكره أبو حيان بقوله "التصريف معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب"[٥]، بمعنى أن الصرف يقف عند الكلمة في حد ذاتها، في معزل عن العلاقات التركيبية الإسنادية بين الكلمات.

---

[١] القاموس المحيط، الفيروزبادي، ص ٨٢٧

[٢] الكتاب، سيبويه، ج٢، ص ٣١٥

[٣] شرح الشافية، الرضي، ج١، ص٧

[٤] شرح التصريف الملوكي، ج ١، ص ١٨-١٩

[٥] المبدع، ص٤٩

والخلاصة التي نستشفها من خلال تعاريف كل من سيبويه والرضي وابن يعيش وابن حيان، أن علم الصرف يرصد التغيرات التي تلحق الكلمة، عبر مراحلها الاشتقاقية التي تحترم قواعد التحويل المتواضع عليها من قبل العرب، وبعدا عن علاقة الكلمة بالتركيب الإعرابي.

٢-٣ مواضيع ومباحث الصرف عند العرب:

جاء في كتب الصرف عند العرب القدماء أن التصريف يكون على نوعين:

- **تصريف معنوي:** وهو "جعل الكلمة على صيغ مختلفة لضروب من المعاني: نحو ضرب، وضرَّب (بالتشديد للمبالغة، وتضرَّب، وتضارب (للمشاركة)، واضطرب (لوجود الحركة في الفعل). فالأصل في هذه المادة ،ضاد، راء، ياء، ومع ذلك بنيت منها أبنية مختلفة لمعان مختلفة. ومن هذا تغيير المفرد إلى التثنية، والجمع السالم، وذلك بتحويل "زيد" إلى "زيدان" و "زيدون"، وتغيير المصدر إلى الفعل "الضرب"[٦]، والظاهر من هذا الكلام أن تلك التغيرات التي تصيب الكلمة، تؤدي إلى إعطاء معان كثيرة لها نتيجة الاشتقاقات المتولدة عنها، وذلك بحسب الأوزان الصرفية ، وبحسب طبيعة الحروف الداخلة عليها. يضيف ابن يعيش "إعلم أن الألفاظ أدلة على المعاني وقوالب لها، وإنما اعتنوا بها وأصلحوها لتكون أذهب في الأدلة، ولما كان المعني يكون على أحوال كثيرة كمعنى المضي، والحال، والاستقبال، والفاعلية، والمفعولية، وغيرها، وكانت الحاجة إلى الدلالة على كل منها ماسَّةً، لم يكن بدٌّ من لفظ خاص يدل على ذلك المعنى بعينه، فلهذا وجب التصريف، واختلاف الأبنية بالزيادة والنقص، والتغيير، ونحو ذلك، ليدل كل لفظ على المعنى المراد، نحو ضَرَبَن يَضرب، إضرب..."[٧] وهنا يتجلى لنا بعد معنوي آخر للصرف، إلى جانب التغيرات الصرفية لبنية الكلمة من خلال الزيادة والنقص، هو التصرف حسب الأزمنة النحوية، وكذا الفاعلية والمفعولية؛ اللذان يقيمان علاقة ترابطية بين مكونات الجملة.

- **تصريف لفظي:** " هو تغيير الكلمة عن أصلها من غير أن يكون ذلك التغيير دالا على معنى طارئ، مثل تغيير "قَوَلَ" و "بَيَعَ" ب "قال" و "باع"، فهم لم يفعلوا ذلك لجعل هذا اللفظ بهذا التغيير دالا على معنى جديد خلاف ما كان في الأصل قبل التغيير. ومثل ما سبق ما يجري في "غزَو" بقلب حرف العلة إلى ألف في "غَزَا" فلا جديد في المعنى بعدُ على هذا القلب"[٨]؛ في هذا النوع من الصرف نلاحظ أن التغيرات التي تلحق بنية الكلمة، لا تمس الجانب الدلالي والتصوري لها، إنما تكتفي بالجانب اللفظي الصوتي، الذي يقتصر على البعد البدائلي الألفوني للكلمة، استنادا على الظواهر الصرفية القديمة كالإعلال والإبدال والقلب... يضيف عبد اللطيف محمد الخطيب " وقد ذكر المتقدمون أن التصغير والتكسير والنسب والوقف والإمالة مع أبواب النحو، من حيث تعلقها

---

[٦] الممتع ج١، ص ٣١-٣١

[٧] شرح التصريف الملوكي، ص ٩٥-٩٦

[٨] المستقصى، ج١، ص٣٧

بالمركبات، وذهب ابن الحاجب، وطائفته إلى وضع هذه الأبواب مع علم التصريف، ورأوا أنه الأولى"[٩] بمعنى أن النحاة القدماء صفنوا هذه الظواهر الصرفية ضمن علم الصرف في شقه الصوتي، رغم الجانب النحوي الذي يشملها، خاصة في تعالقها مع مركبات أخرى.

٣-٣ بين الصرف والاشتقاق:

عند الخوض أكثر في مجال علم الصرف، يأخذنا الكلام إلى العلاقة بين الصرف والاشتقاق، ذلك أن هناك اختلاف في منهجية توليد الكلمات لكل واحد منهما. فحسب الصرف تأتي بالكلمة الواحدة فتصرفها على وجوه عدة، يقول ابن جني " وينبغي أن يُعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسبا قريبا واتصالا شديدا، لأن التصريف إنما أن تجيء إلى الكلمة الواحدة، فتصرفها على وجوه شتى. مثال ذلك أن تأتي إلى "ضَرَبَ"، فتبني منه مثل "جعفر"، فتقول: "ضَرْبَب"[١٠]، أي تنطلق من كلمة هي القالب والمعيار لبناء كلمات أخرى، تكون على صيغتها. أما فيما يتعلق بالاشتقاق يضيف ابن جني" وكذلك الاشتقاق أيضا، ألا ترى أنك تجيء إلى الضرب الذي هو المصدر، فتشتق منه الماضي، فتقول: "ضَرَبَ، ثم تشتق منه المضارع، فتقول: يَضْرب، ثم تقول في اسم الفاعل:ضَارب"[١١]، فالاشتقاق حسب هذا التعريف، يبتدأ بجذر(بالدال المعجمة) لغوي، ويمر عبر جدع لغوي، ليعطينا العديد من المشتقات؛ كاسم الفاعل؛ واسم المفعول؛ والتصغير؛ واسم الآلة...، كما أن للاشتقاق أنواعا منها؛ **الصغير** وهو هذا الأخير الذي ذكرنا؛ و**الكبير** وفيه يكون بين الكلمتين اتفاق في حروف المادة الأصلية، من دون ترتيب وتناسب في المعنى، رغم أنه لها معنى جامع ضمني، مثل "لَكَمَ" و "مَلَكَ" و "كَلِمٌ"...؛ أو ما يعرف بالقلب، وهناك **الاشتقاق الأكبر** الذي يكون بين كلمتين تتفقان في بعض حروف المادة الأصلية وترتيبها، سواء كانت الحروف مختلفة من الناحية الصوتية؛ مثل" ثلب وثلم"؛ و"نعق ونهق"...، وفي الأخير يأتي **الاشتقاق الكُبَّار** أو ما يعرف بالنحت؛ حيث يتم الجمع بين كلمتين، لتكونا كلمة واحدة؛ مثل "عبدلي" وهي منحوتة من "عبد الله"؛ و "بسملة" من "بسم الله"...

يضيف ابن جني " إلا أن التصريف وسيطة بين النحو واللغة يتجاذبانه، والاشتقاق أقعد في اللغة من التصريف. كما أن التصريف أقرب إلى النحو من الاشتقاق، يدلك على ذلك أنك لا تكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره، والاشتقاق إنما يَمُرُّ بك في كتب النحو منه ألفاظ مشرَّدة لا يكاد يُعْقَدُ لها باب، فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلمة الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة"[١٢]، يشير هذا الكلام إلى الأدوار الأساسية التي يلعبها كل من الصرف والاشتقاق داخل اللغة، فالأول يميل إلى النحو، نظرا للتحولات الزمنية التي تحدثها تغيراته بين

---

[٩] المستقصى، ج١، ص ٣٨
[١٠] المنصف، ج١، ص٣
[١١] المنصف، ج١،ص٣
[١٢] المنصف، ج١،ص٣

الماضي؛ والمضارع؛ والأمر...، أما الاشتقاق فمرتبط أشد الارتباط بعنصر اللغة، لأنه يساهم بشكل كبير في توليد معجمها اللغوي.

٣-٤ الكلمات العربية والصرف:

ذكر العلماء أن علم الصرف يتناول ثلاثة أنواع من كلمات هذه اللغة، وهي:

١- **الأسماء المتمكنة**: "وهي التي يمكن تصريفها واشتقاقها، نحو رجل وفرس..."[١٣] ، أي الأسماء التي يلحقها التحويل في بنيتها، وذلك بإضافة لواصق متعلقة بالجنس والعدد والشخص.

٢- **الأفعال المتصرفة**: بمعنى الكلمات التي تتصرف حسب الأزمنة النحوية، كلَعِبَ، أَكَلَ، مشَى...،

٣- **ما لايتناوله التصريف من ألفاظ اللغة** وقد حصرها العلماء فيما يلي: "الأسماء الأعجمية، الحروف، الأصوات، أسماء الأفعال، الأسماء المتوغلة في البناء، الأفعال الجامدة"[١٤]، هذه الفئة من الكلمات العربية تلزم صورة واحدة، ولا يدخلها التصريف، مثال ذلك:

- **الأسماء الأعجمية**: مثل إبراهيم؛ إسماعيل؛ يوسف؛ يعقوب؛ قال ابن جني " فأما الأسماء الأعجمية ففي حكم الحروف في امتناعها من التصريف والاشتقاق، لأنها ليست من العربية، وإذا كان ضرْبٌ من كلام العرب لا يمكن الاشتقاق منه، ولا يسوغ فيه التصريف مع أنه عربي، فالأعجمي بالامتناع من هذا أولى، وهو به أحرى، بعد ما بين الأعجمية والعربية، ألا ترى أنك لا تجد لإبراهيم ولا إسماعيل ونحوهما اشتقاقا، كما لا تجدهما "لقد" و "هل" و"بل" فالأمر فيهما واحد"[١٥]، سبب انعدام التصريف في هذه الأسماء، يرجع أولا لأعجميتها، والأعجمي الدخيل ليس له ميزان صرفي، والسبب الثاني مضارعتها للحروف التي لا يوجد لها اشتقاق ولا تصريف.

- **الحروف**: " لا يدخل الحروف العربية تصريف، فهي مجهولة الأصل، حالها كحال الأصوات، ولا تقبل بالفاء والعين واللام "فعل" من الميزان، ورأى العلماء أن ألفاتها أصول، وهي ليست زائدة ولا منقلبة عن حرف آخر"[١٦]، يبين ابن جني هنا أن معيار تحديد الكلمات المتصرفة وغير المتصرفة، هو الميزان الصرفي كما حددنا سابقا، وأنواع الحروف في الكلمة هل هي زائدة أو منقلبة، لأنه إذا كانت أصولا تجعل الكلمة غير قابلة للتصريف.

" ومما يدلك على أن الحرف لا يدخله تصريف وجود "ما"، و"لا"، ونحوهما من الحروف، ألا ترى أن الألف لا تكون فيهما منقلبة كالألف التي في عصا ورحى، لأنها لو كان أصلها واوا أو ياء لظهرتا لسكونهما كما ظهرتا في نحو، كي، وأي، ولو، فلو كان أصل ألف "ما" واوًا، لقلت مَوَ، ك "لو"[١٧]، وهذا ما يؤكده صاحب الممتع في الكلام، بإعطاء أمثلة على ذلك، مثل ما، ولا، ولو...، فالألف إذا

---

[١٣] شرح المفصل، ج١، ص ٥٦-٥٧

[١٤] المبدع ص ٥٠

[١٥] المنصف، ج١، ص ١٢٧

[١٦] المنصف، ج١، ص ١٢٨

[١٧] الممتع، ج١، ٣٦

كانت أصلية في الحرف، منعت عنه خاصية التصريف، والظاهر بحسب النحاة القدماء أن الإعلال والإبدال في الحروف أساسيان ومرتبطان بالتصريف.

من التصريف القليل الذي دخل بعض حروف هذه اللغة ما يلي:

"سَوْفَ، وقد قالوا فيه، سَفَ، بحذف الوسط، وسَوْ، بحذف الفاء، وسَيْ، بحذف الأخير وقلب الوسط ياءً؛ مبالغة في التخفيف"[١٨].

"لعلَّ: من اللغات التي وردت فيه، علَّ، لعلَّ، علِّ، بكسر اللام فيهما، وذلك إذا جاء حرف جر"[١٩]

"حتى: وقد قالوا فيها (عَتَّى) وبها جاءت قراءة ابن مسعود في لغة هذيل وثقيف، وأن وقد قالوا فيه (عن) بإبدال الهمزة عَينًا، وهي لغة تميم، وقد حى هذه اللغة قطرب"[٢٠]، تشير النصوص الثالثة إلى أن هناك حروفا خرجت عن القاعدة العامة، المتعلقة بعدم قبول التصريف، وهي فئة من الحروف تقبل التصريف ك"سوف" التي جاءت بلهجات عربية مختلفة ومغمورة، إما بحذف أولها، أو وسطها، أو آخرها، ولعل ،وحتى، وكلها تدخل في دائرة الشواذ لا الإطراد.

-أسماء الأصوات: " ومما لا يتناوله تصريف أسماء الأصوات، مثل تِغْ، غاق، عَدَس..."[٢١]

"قال ابن عصفور " لأنها حكاية ما يصوَّت به، وليس لها أصل معلوم"[٢٢]، هذا النوع من الأصوات، يعتبر صدا صوتيا للحدث الذي يقع جراءها، وتسمى كذلك الأسماء المحاكاتية، لأنها تحاكي طبيعة الصوت الي تحدثه، وهي أيضا لا تقبل التصريف.

-أسماء الأفعال: " ومما لايدخله تصرف أسماء الأفعال، مثل، أف، وهيتَ، وصهّ، ومه، وشتان، وإيه، فهي ليست موضوعا لهذا العلم، وما يدخل بعضها من التنوين أحيانا إنما هو تصرف في حالة واحدة للفرق بين التعريف والتنكير، نحو، إيهٍ، وصهْ، وصهٍ، وهذا لا إطلاق فيه، ولا علاقة له بعلم الصرف"[٢٣]، كذلك أسماء الأفعال لا تتصرف، لأن في شق منها خصائص الحروف، والأسماء الجامدة،وهذان الاثنان غير قابلان للتصريف كما أسلفنا الذكر؛ بغض النظر عن التنوين، الذي يأتي فيها لتحديد النكرة والمعرفة فيها.

-الأسماء المتوغلة في البناء: "ومن هذه الأسماء، الضمائر، وأسماء الاستفهام، وأسماء الشرط، والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة، وعلة عدم تصريفها أنها لافتقارها إلى غيرها بمنزلة جزء من الكلمة التي تدخل عليها"[٢٤]، يضيف عبد اللطيف محمد الخطيب، أن أسماء الشرط والاستفهام

---

[١٨] مغني اللبيب،ج٢، ص٣٤٨

[١٩] الجني الداني ٥٨٢

[٢٠] شرح الأشموني، ج١، ٧٣

[٢١] المستقصى ص ٤٣

[٢٢] الممتع، ج١، ص ٣٥

[٢٣] المستقصى ص ٤٤

[٢٤] المستقصى ص٤٤

والموصولة وأسماء الإشارة، والضمائر، متجذرة في البناء، وليس هناك قاعدة تستثنيها عن البناء، لأن دلالتها في علاقتها بغيرها، وليس في ذاتها، وهذا معيار آخر لعدم التصريف في الكلمات العربية.

قال ابن جني ".. ولا يريد الأسماء المتوغلة في شبه الحرف، لأن تلك الأسماء في حكم الحروف، ألا ترى أن كم، ومن، وإذا سواكن الأواخر، كهل، وبل، وقد، وإنما كان ذلك فيها لمضارعتها الحروف، فهذه الأسماء المبنية التي في حكم الحروف، فهذه الأسماء المبنية التي في حكم الحروف لا تشتق ولا تمثل من الفعل، كما أن الحرف كذلك"[٢٥]، كلما تعمقنا في كتب النحو العربية القديمة، ظهرت لنا قواعد جديدة لتصنيف الأسماء المتصرفة وغير المتصرفة، حيث حدد ابن جني في كلامه هذا معيار جديدا، هو مشابهة الحرف الذي يعتبر فيه البناء أصلا، سواء في البنية أو التسكين في الحرف الأخير.

- **الأفعال الجامدة:** "ومما لا يدخله تصريف الأفعال الجامدة نحو: نِعْمَ، وبِئْسَ، وعَسَى، ولَيْسَ، فهي مشبهة للحروف بجمودها على صورة واحدة لا تتغير، ولا يطرأ أحيانا عليها من تغيير يسير لا يلغِي وصف الجمود فيها ومن قولهم في عَسى، عسِيَ، بقلب الألف ياء، وكذا الفعل ليس، فإنه تحذف منه الياء، عند اتصال الضمير به فتقول: لستُ"[٢٦]، كذلك يحدد هذا النص صنفا من الأفعال تظل جامدة على صورة واحدة، لانعدام التصريف فيها، كونها تشبه الحروف في بنيتها.

٣-٥ الميزان الصرفي (التمثيل):

هو مقياس يتم الاحتكام إليه في اللغة العربية لتمييز الكلمات العربية الأصلية، وهو يشتمل على ثلاثة حروف تجمع في "فعل".

"لكل أهل صناعة ميزان يضبطون به ما يضعون، ومعيار أو قانون يصنعون صناعته على نمطه، ليروا قدر ما صنعوا، أو ليجعلوا ذلك أساسا ومنهجا لعملهم، ولم يكن علم الصرف بدعا في هذا، ولا شاذا عن غيره. فقد اتخذ علماء العربية فيه ميزانا يضبطون به أصول هذه اللغة. كما احتاج الصائغ إلى الميزان، ليعرف مقدار ما يصوغه، وبذلك يعرف العلماء حقيقة الكلمة الموزونة اسما وفعلا، وما طرأ على كل منهما من زيادة أو نقص، وما تحرك من أحرفها وما سكن، وما تقدم منها وما تأخر"[٢٧]، الظاهر من صاحب المستقصى، أن الميزان الصرفي، آلية عربية وضعها النحاة القدماء، قادرة على تحديد أنواع الكلم من فعل واسم وحرف، وتمييز الحروف الأصلية و المزيدة في الكلمة، ومراتب هذه الحروف هل هي متقدمة أم متأخرة. لكن السؤال الذي يُطرح فيما يتعلق بالميزان الصرفي، هو لماذا اختار النحاة القدماء ثلاثة أحرف لهذا الميزان؟ للإجابة على هذا السؤال استحضرنا مجموعة من النصوص التي تفسر ذلك. حيث يجيب ابن يعيش "يسمي بعض العلماء

---

[٢٥] المصنف، ج١، ص٨

[٢٦] شرح التصريف الملوكي ج٢، ص٣٥٤

[٢٧] المستقصى ج١، ص٤٧

هذا الميزان التمثيل، وذلك لمماثلة أحرف الميزان لأحرف الموزون في تعداد الأحرف وهيئاتها. ولقد نظر علماء هذه اللغة في مفرداتها، فتراءى لهم بعد البحث والنظر أن أصولها لا تقل عن ثلاثة أحرف، وقد تأتي الأصول أربعة أو خمسة على خلاف بين المتقدمين في ذلك"[٢٨]، يرجح ابن يعيش سبب اعتماد ثلاثة أحرف في هذا الميزان، لعدم وجود كلمات أقل من ثلاثة أحرف وحروفها أصلية، أي أن الحد الأدنى هو ثلاثة، والأقصى خمسة أو أربعة، رغم الخلاف الدائر في ذلك. وفي السياق نفسه، يضيف ابن جني " فإن قال قائل: فلم كانت الثلاثية أكثر أبنية العرب؟ فالجواب، إنما كثر تصريف ذوات الثلاثة في كلامهم، لأنها أكثر الأصول، وهي أقل ما يكون عليه الكلم المتمكنة، حرف يُبْدَأُ به، وحرف يُحْشَى به، وحرف يُوقَفُ عليه"[٢٩]، هنا يشرح بصورة دقيقة ومنطقية ابن جني، علة اعتماد "فعل" على ثلاثة، حيث يُرجع هذا لكثر تحقق الكلمات الثلاثية (نظرا لكون حروفها أصلية) في كلام العرب، كما أشار إلى البنية المنطقية التي تحكم الكلمات، البداية والوسط و النهاية.

" فلما رأى هؤلاء العلماء أن أكثر الكلمات على ثلاثة أحرف وضعوا على هذا الأصل الكثير في هذه اللغة، وأشاروا إليه ب"**فعل**"، أي بالفاء والعين واللام، لوزن هذه الكلمات"[٣٠]، وهذا رأي آخر يدعم ما أشارت إليه النصوص السابقة.

٣-٥-١ علة اختيار "فعل" للميزان الصرفي:

إذا ما استمرينا في تتبع حالات الميزان الصرفي، أخذنا الكلام إلى البحث عن مبرر اختيار مادة "فعل" له، هنا

يرى عمر بن ثابت الثمانيني" أنهم اختاروا هذه الحروف لوزن الأصل، لأنهم لم يمكن أن يجمعوا الحروف كلها، فاختاروا لها ثلاثة أحرف من ثلاث مراتب، حرف من الشفة، وحرف من الفم، وحرف من الحلق"[٣١]، وحسب هذا الرأي، لم يكن في استطاعة النحاة القدماء، أن يأتوا بمادة تجمع كل حروف العربية، لأن هذا يتنافى والمنطق التقعيد اللغوي العربي و العام للغات، القائم على الاقتصاد في بناء القواعد. كما أشار الثمانيني إلى جانب مهم هو البعد الصوتي المرتبط بمادة "فعل"، باعتباره عنصرا مهما في بناء القواعد. أما الرضي الأستربادي "فقد رأى أن تركيب "ف ع ل" مشترك بين جميع الأسماء و الأفعال المتصلة بها، إذ الضرب فِعل، وكذا القتل والنوم، فجعلوا ما تشترك الأفعال والأسماء المتصلة بها في هيئته اللفظية مما تشترك أيضا في معناه"[٣٢]، هنا يظهر لنا بعد آخر في تحديد هذه الصيغة، وهو الجانب الدلالي، المرتبط ببنية "الفعل" الصورية والوظيفية في الكلمات العربية. وهذا وما يؤكده ابن جني بقوله "ومما تقدم ترى أن اختيار العلماء للفعل ميزانا إنما كان لأنه أعم الأحداث، إذ يصدق على كل حدث أنه فعل، وترى كذلك أن لفظ "فِعْل" يصدق

---

[٢٨] شرح التصريف الملوكي، ص١١٢
[٢٩] المنصف ج١، ص٣١-٣٢
[٣٠] المستقصى ص٤٨
[٣١] شرح التصريف ٢٢٣
[٣٢] الإنصاف ٧٩٥

على ما كان من جارحة بارزا للعيان، وما كان من القلب مستورا، وليس غير الفعل كذلك، وقد ذكرت لك ما ذهب إليه ابن يعيش قبل قليل إذ الفهم والإدراك والأدب من أفعال القلوب، والضرب والقتل والصناعة والعمل من أفعال الجوارح، وكل على هذا وذاك فِعْلٌ على اختلاف موقعهما"[٣٣].

٤- الصرف و الصواتة عند الغربيين:

بعدما فرغنا من تحديد مفهوم الصرف عند العرب، سنعكف الآن على رصد دلالته عند الصرفيين الغربيين، حيث يتميز بصيرورة تاريخية أدت إلى تطور معناه من الإغريق القدامى والرومان، الذين لم تكن لهم دراية تامة بموضوعه الأساس كما أشار إلى ذلك أرونوف ١٩٩٤، باعترافه أن الصرافة (الصرف) بمفهومه اللساني عند الغرب، يعود أصلها مباشرة إلى ما ورد في نحو اللغات السامية[٣٤]، وقد أشار عبد الرزاق تورابي إلى أن مصطلح الصرف أو الصرافة ارتبط بالفيلسوف والأديب غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) في القرن التاسع عشر الميلادي، ومعناه الإيتمولوجي هو علم الشكل أو الصورة(form)، وهذا مستعمل في علوم كالبيولوجيا والجيولوجيا، ومعناها الاصطلاحي في هذا التاريخ هو "جزء النحو الذي يهتم ببناء الكلمة والتصريف"[٣٥]، والظاهر هنا أن علم الصرف عند الغربيين، يمتح من علوم معرفية وتجريبية أخرى، تتميز بالدقة في تناول مواضيعها، فالموضوع الأساس هنا هو الصورة والشكل بصورة عامة، والكلمة بصورة خاصة، باعتبارها لفظا يتشكل من عناصر اشتقاقية وتوليدية .

"كما بين أرونوف (١٩٩٤) إلى أن هناك ربطا تاريخيا بين الصرفة والمصورات أو المشكلات (formative)، التي كانت تعني ما يصلح لبناء الكلمات، كالسوابق واللواحق التصريفية أو الاشتقاقية، ويعطيها صورتها"[٣٦] أظهر أرونوف هنا المكونات اللغوية الأساس للكلمة وهي السوابق واللواحق التصريفية، كونها لواصق تكون في أول وآخر الجذر اللغوي، وتعطي معاني مختلفة ومتعددة للكلمة، إلا أنها ترتبط باللغات الخطية. يضيف عبد الرزاق تورابي

"لقد كان هدف الدراسات اللغوية في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي، هو الوصول إلى الأصل البدائلي للغة، لهذا لعب مفهوم الجذر دورا مهما، لأنه أصل الكلمات ومادام الجذر مجردا، أي هيكلا لا يمكن النطق به، فإن المشكلات هي ما يعطي للجذر صورته وتجعله قابلا للنطق"[٣٧] وهذا ما بيناه سابقا؛ فالجذر اللغوي هو النواة والذَرَّةُ الأولى، التي تنطلق منها الكلمة لبناء معانيها، عبر التوليفات والاشتقاقات والسوابق واللواحق كما أسلفنا الذِّكْر.

---

[٣٣] المستقصى ٥١

[٣٤] صرف تركيب اللغة العربية ٢٠١٥، ص٣٣

[٣٥] صرف تركيب اللغة العربية، ص٣٣

[٣٦] صرف تركيب اللغة العربية، ص٣٤

[٣٧] صرف تركيب اللغة العربية، ص ٣٤

٤-١ تعريف الكلمة:

لكي نفهم أكثر البنية التي تتكون منها الكلمة، يعطينا عبد الرزاق تورابي هذا الشرح في شكل أسئلة، بقوله "بتصور التفكير الصرفي عند الغرب، بدأت أسئلة من قبيل، مماذا تتكون بنية الكلمة، أي هل لها بنية داخلية، يمكن أن تحلل إليها؟ إن الجواب المباشر والشائع هو أن الكلمة عبارة عن سلسلة صوتية (أودال) ومعنى (مدلول)، ثم علاقة ترابط بين هذه الأصوات والمعنى"[٣٨]، ومباشرة يأخذنا هذا التصور إلى اللسانيات البنيوية مع فرديناد دو سوسور، التي تشكل مهد الدراسات اللغوية الحديثة، فالكلمة حسب اللسانيات البنيوية' تضم ثنائية الدال (الشكل) والمدلول (الجوهر)، والأول يعني الصورة السمعية الصوتية المختلفة بين اللغات، والتي يمفصلها جهاز النطق عند المتكلم، أما الثاني فهو الصورة الذهنية التي ترتسم في عقل المتلقي أو المتكلم عندما يمارس نشاطه اللغوي، ويكون في الغالب الأعم كليا ومشتركا بين اللغات، هذا وترتبط بين الدال والمدلول علاقة تتسم بالاعتباطية كما أشار سوسور.

لكننا إذا تعمقنا أكثر في موضوع الكلمة، صادفنا إشكالات عدة متعلقة بتعريفها، وهذا ما بينه عبد الرزاق تورابي بقوله "رغم تقدم اللسانيات، فإن تعريف الكلمة مازال يطرح مشكلا مستمرا، وذلك راجع لتعدد تمظهراتها، من جهة، واختلاف المستويات التي تتجاذبها. يمكن تقديم أهم تعاريفها كالتالي:

- ✓ **التعريف الخطي:** الكلمة سلسلة من الصوتيات الموجودة بين فراغين، وهذا التعريف ليس دقيقا لأن وضع الفراغ يكون اعتباطيا، ولا يراعي بالضرورة التقطيع الدقيق للسلاسل الصوتية إلى كلمات. ونمثل لهذا بالمؤلفات أو الكلمات المركبة التي تتكون من أكثر من كلمة. فسلسلة مثل حضر موت أو "صرفية أو ما صدق" قد تكتب بدون فصل بين جزأي المركب بفراغ، وقد يفصل بينهما مثل الدار البيضاء...فهذا التعريف لا يترجم المعرفة الذهنية التي يملكها المتكلم حتى في اللغات غير المكتوبة للتعرف على السلاسل التي تكون الكلمات"[٣٩] بالنظر إلى هذا التعريف، كذلك التوضيح الذي أعطاه عبد الرزاق تورابي ، يبين عدم دقة وعلمية اعتبار الكلمة سلسلة من الصوتيات الموجودة بين فراغين، لأننا إذا رصدنا كلمات اللغات بصفة عامة، وكلمات اللغة العربية بصفة خاصة، وجدنا أن هناك كلمات عديدة لا تستند على مبدإ الفراغ بين صوتياتها، لأن الفصل بين هذه الأخيرة اعتباطي ولا ليس له أي مبرر منطقي، وإنما هو تواضع لغوي فقط.
- ✓ **التعريف التركيبي:** الكلمة هي الوحدة الصغرى في التركيب والتي يمكن أن ترد مستقلة، وهذا التعريف يطرح مشكلا، لأن هناك وحدات صغرى، مثل لواصق التطابق، ولا

---

[٣٨] صرف تركيب اللغة العربية، ص ٣٤

[٣٩] صرف تركيب اللغة العربية، ص٣٩

تعد كلمات. فواو الجماعة في نحو "كتبوا" وحدة صغرى لها موقع في التركيب، لكن يمكن اعتبارها كلمة"[٤٠] كذلك في هذا التعريف نرى قصورا في ضبط معنى الكلمة، ولكن اعتبارها أصغر وحدة صغرى من الناحية التركيبية، يشمل وحدات أخرى كاللواصق (السوابق واللواحق) لا يكمن أن نعتبرها كلمات، (أنظر الفاسي الفهري ١٩٩٠)

✓ **التعريف الصرفي:** وهذا مرتبط بالتعريف التركيبي وشائع، الكلمة هي أصغر وحدة دالة، وينطبق هذا التعريف على كلمات مثل قط وأسد. لكننا إذا نظرنا إلى كلمات مثل ضربتُ، فإننا نجدها تتكون من وحدتين صغيرتين، اللتين هما الجذع ضرب واللاحقة- تُ، ولا يمكن تقطيع هذه الكلمة إلى أكثر من هذا. ونستثني، بطبيعة الحال، ردم الجذع وفصل الجذرعن الصيغة. وتسمى الوحدات الدالة الصغرى صرفيات. وبناءً على هذا، نقول إن ضربتُ تتكون من ثلاث صرفيات هي الجذر "ضَرب" والصيغة "فَعَلَ"، وتأليفهما ينتج الجذع ضَرَبَ، ثم اللاحقة- تُ"[٤١]، نلاحظ أن هذا التعريف قريب شيئا ما من التعريف التركيبي، إلا أنه ذكر أن الكلمة هي أصغر وحداة دالة، أي تحمل معنى، ولكنه حسب كلمة مثل "ضربتُ"، يتضح أنها تتكون من اللاحقة- تُ، والجذر، وكذلك الصيغة (أو الوزن)، والسؤال الذي نطرحه هنا، هل يمكن أن نعتبر هذه الوحدات الصرفية كلمات، إذا لم يتم تركيبها مع بعضها؟.

يضيف عبد الرزاق تورابي بخصوص هذا الإشكال، "هناك فرق بين صرفيات مثل ضَرَبَ، وصرفيات مثل –تُ. فالأولى يمكن أن ترد مستقلة، بينما الثانية لا ترد مستقلة، وإنما يجب أن تلتصق بصرفيات أخرى. وبعبارة أخرى الصرفيات الأولى حرة والثانية مقيدة. ويمكن تسمية الصرفيات الحرة مثل ضَرَبَ ونَمِرَ معجمية، لأنها تمثل لأجزاء الكلام، أي فعل واسم وصفة، وتحيل على أحداث أو تصورات أو خصائص، لأن المتكلم يستعملها للإشارة إلى علاقة الكلمة بالسياق الذي تستعمل فيه، مثل الزمن الماضي والمتكلم المفرد"[٤٢]، حسب هذا التفريق بين الصرفيات الحرة(المعجمية) والمقيدة(النحوية)، نستطيع أن نقول -ولو بشكل نسبي-، أن الكلمة هي تلك الوحدة الصرفية الحرة، التي تحيل أحداث أو تصورات أو خصائص، في ارتباط مع صرفيات مقيدة تشير إلى الزمان وعناصر التطابق وغيرها، (نشيرهنا أن الصرفيات المعجمية ليست كلها حرة، كما أن الصرفيات النحوية ليست كلها مقيدة).

✓ **التعريف الصواتي:** الكلمة هي مجال إسناد النبر، أي تتصرف كوحدة إزاء سيرورات صواتية مثل النبر، وهذا التعريف، وإن كان ينطبق إلى حد ما على لغات نبرية، لكن ليس فيها نبر، أو على الأقل نبر مميز، ومع ذلك فيها كلمات، إضافة إلى ذلك لا تعد المتصلات كلمات"[٤٣]،

---

[٤٠] صرف تركيب اللغة العربية، ص ٣٩

[٤١] صرف تركيب اللغة العربية، ص٤٠

[٤٢] صرف تركيب اللغة العربية، ص ٤٠

[٤٣] صرف تركيب اللغة العربية، ص٤١

يشير هذا التعريف إلى البعد الصواتي للكلمة، وهو النبر، ولكنه باختصار لا يعد معيارا أساسيا لتحديد طبيعة الكلمة، فهناك وكلمات ولغات لا يتحقق فيها النبر.

وللخوض أكثر في الإشكالات المتعلقة بالتعاريف المقدمة للكلمة، نستحضر تصور عبد القادر الفاسي الفهري لها، حيث يقول : "قليلة هي الدراسات التي تعالج مشكل طبيعة الكلمة العربية وصورتها، والمبادئ التي تضبط سلامة تكوينها، وهذه الثغرة في علم العربية (من ضمن ثغرات كثيرة في علم هذه اللغة)، يوازيها كثير من الخلط وعدم الوضوح في التنظير للكلمة في البحث اللساني بصفة عامة، وكذلك عدم الاتفاق على مسلمات في خصوص التمثيل لها"[٤٤] وقد وضح بكلامه هذا أن هناك مشكلا في تحديد طبيعة الكلمة وصورتها، خاصة الكلمة العربية، الشيء الذي يطرح مشاكل على مستوى المبادئ التي تضبط بنيتها السليمة، وكذلك على مستوى أعم هو الدرس والبحث اللسانيين، لأنه يؤثر على النظريات اللسانية التي تتخذ الكلمة موضوعا لها. يضيف الفاسي الفهري "الكلمة ذات متميزة بملامحها الصرفية والتركيبية والدلالية والمعجمية والصواتية... ومن أجل رصد هذه السمات وهذا التميز، تعددت النظريات والمقاييس للفصل بين ما يمكن معالجته في التركيب أو المعجم أو الصرافة أو الصواتة، مدرجة معالجة الكلمة داخل هذا المكون أو ذاك"[٤٥] تماشيا مع هذا التصور، نفهم أن الكلمة تتجاذبها مستويات لسانية ولغوية مختلفة، منها التركيب والمعجم والصرف والصواتة –كما سنوضح في المبحث الثاني-، وهذا ما يبرر صعوبة إعطاء تعريف دقيق لها، ولكن الذي سنركز عليه في هذه الأطروحة، هو الجانب الصرفي الصواتي، والذي له علاقة بالبنية الشكلية الصورية للكلمة.

"تحدد النظرية الصرفية ثلاث مجموعات من الذوات الضرورية لقيام أسسها:

أ) **مجموعة من الذوات أو الموضوعات الصرفية (Morphological object)**، وهي الجذور (أو المادة الصامتية الأصلية)، والجذوع (أو المادة المقطعية التي تتموضع في علائق الاشتقاق)، واللواصق (بما فيها السوابق واللواحق والأواسط)، التي تصل بالجذور لتُكوِّن الجذوع، أو بالجذوع لتُكوِّن جذوعا مركبة، أو كلمات تدخل التركيب.

ب) **مجموعة قواعد**، تؤلف بين الموضوعات الصرفية.

ت) **أبجدية لأجزاء الكلام**، هي {-س} (سمة الاسمية) و {-ف} (سمة الفعلية) أساسا، وتمكن من وسم الكلمات مقوليا، وهذا الوسم المقولي هو ما يمثل الصلة بين الصرف والتركيب. وقد اعتاد علماء الصرف أن يفرقوا بين صنفين من أصناف الأنظمة الصرفية، صنف تحليلي (Analytic)، أو سلسلي (Concatenative)، وصنف تركيبي (Synthetic)، أو دمجي(Fusional)، أو غير سلسلي (non-concatenative).

---

[٤٤] البناء الموازي، ١٩٩٠، ص ٣٧

[٤٥] البناء الموازي ، ص ٣٧

فالصفة (أو الاسم) في الفرنسية تبنى انطلاقا من جذع (Radicalأو Stem)، تتبعه خطيا لواحق صرفية مثل الجنس أو الجمع، بنفس الكيفية، فإن الفعل المتصرف يتكون من جذع هو عبارة عن فعل غير متصرف هنا

{Chant}، متبوعا بعنصر الزمن {r }، الذي يدل على المستقبل، متبوعا باللاصقة التي تدل على الشخص والعدد

{-ons}.

وأما العربية فنسقها الصرفي غير خطي أو غير سلسلي، بالنظر إلى عدد من التصريفات، فجمع "دار" مثلا "دور" أو "ديار"، وليس هناك إمكان للجمع خطيا بين جذع "دار" وصرفية أخرى تدل على الجمع، لأن الجمع يكسر بنية المفرد، أي إنه لا يقبل افتراض وجود حركة في المفرد تثبت في مصدر الاشتقاق، وينضاف إليها حركات وصوامت أخرى خطيا"[٤٦] يوضح الفاسي الفهري في هذا النص، الذوات والأنساق التي يشتغل عليها علم الصرف في علاقة دائما بالكلمة، حيث حددها في الجذور والجدوع، واللواصق بشتى أنواعها (السوابق واللواحق والأواسط)، وكذلك المقولات المشكلة لأجزاء الكلمة، خاصة المعجمية كالاسم والفعل، إلى جانب الأنظمة الصرفية، التي تنبني عليها اللغات رغم اختلافها، التحليلية والسلسلية وغير السلسلية والتركيبية والدمجية. بعده قدم نموذجين من الكلمات، واحدة للغة الفرنسية (chanter)، والأخرى للغة العربية (دار)، لكي يقارن بين النسق الصرفي السلسلي الخطي، الذي ينطلق من الجدع حتى يُكون بنيات صرفية أخرى، عبر اللواصق (حال اللغات اللاتينية كالفرنسية). والنسق الصرفي غير السلسلي أو الاشتقاقي، الذي ينطلق من الجذر اللغوي، لتكوين ذوات صرفية أخرى، دون الحاجة إلى السوابق واللواحق، وإنما من النواة اللغوية (الجذر) كما هو حال اللغة العربية. كما لم يغفل عن توضيح المنهجية الصرفية لتوليد الكلمات؛ وهي التركيب والتوليف بين عناصرها.

كذلك من بين الإشكالات التي تطرحها الكلمة، هي علاقتها بالمكون المعجمي، حيث يقول الفاسي الفهري "وقد أفرز البحث في الأنساق الصرفية السلسلية اتجاهات وآراء متعددة نجملها في اتجاهات ثلاثة:

- **اتجاه أول**: يمكن نعته بالتصور الحشوي للصرف (Redundancy View)، ففي هذا التصور، تثبت كل الكلمات المتصرفة منها وغير المتصرفة في المعجم. والقواعد الصرفية تعد ضمن القواعد الحشوية التي تحتسب كلفة إمكان التنبئ، لوجود وحدة معجمية أو عدم وجودها. فالموقف الحشوية لا يقر لوجود مكون صرفي في استقلال عن المعجم، بل إن كل القواعد الصرفية فيه هي قواعد معجمية حشوية.

[٤٦] البناء الموازي ص ٣٩

❖ **اتجاه ثان**: يمكن أن ينعت بأنه تصور استقلالي (Autonomist)، وهو ينكر أن يكون الصرف جزءا من المعجم، أو أن تكون القواعد الصرفية مجرد احتساب لما يتكرر في المداخل المعجمية التامة التخصيص، بل إن دور القواعد الصرفية، في هذا التصور، لا يختلف جذريا عن دور القواعد التركيبية، ولذلك كانت القواعد الصرفية أيضا قواعد إعادة كتابة حرة سياقيا"[٤٧] (أنظر دوسلر وويليز و سلكرك١٩٨٢)، في هذين الاتجاهين يثير الفاسي الفهري إشكالية الترابط بين الصرف والمعجم، حيث يشير الاتجاه الأول يقر بوجود تعالق بينهما، فالكلمة قبل تمثيلها في المستوى المعجمي في البنية السطحية، تأخذ سماتها الصرفية الحشوية كالاسمية و والفعلية. أما الاتجاه الثاني فينكر أن يكون الصرف جزءا من المعجم، لأنه يعتبر القواعد الصرفية مجرد عمليات تتم داخل البنية العميقة، كالعمليات التركيبية التوليدية التشجيرية، بالتالي يرى أن المداخل المعجمية سماتها تامة التخصيص، بعكس الصرف.

❖ **اتجاه ثالث**: يمكن نعته بأنه تركيبي، والأساس التمثيلي الذي يركز عليه هو ليس هناك مكون صرفي (أو مكون للكلمات) مستقل كل الاستقلال عن التركيب (وكذلك الصواتة)، بل إن بناء الكلمة في جوهره بناء تركيبي، يخضع أساسا للمبادئ التركيبية، وما يجعل الصرف خاصا هو أن العمليات الصرفية محدودة في إسقاطات "س′" في الشجرة التركيبية. أي في المكونات ما قبل النهائية، وهذه المكونات تسمى عادة كلمات. ومن جملة مزايا هذا التصور أن القيود التركيبية يتفادا تكرارها في مستوى الكلمة. وهذا ما دعاه بيكر(١٩٨٥) بمبدإ المرآة (Mirror principale)"[٤٨]؛ بين الفاسي الفهري مبدأ المرآة لبيكر الذي يدمج الصرف بالتركيب، ويعتبرهما شيئا واحدا، لأن بناء الكلمة تركيبي، كونها تعكس في كثير من الأحيان بنية المركب أو الجملة، فالاشتقاق التركيبي يعكس الاشتقاق الصرفي، والعكس صحيح، ولكن الذي يجعل العمليات الصرفية مستقلة بعض الشيء، هو محدوديتها داخل عملية التشجير التركيبية.

" أما في الأدبيات عن الصرف العربي، فباستثناء ما يقوم به السغروشني من تقعيد صرفي خارج المعجم، فإن الموقف الوحيد المعبر عنه بهذا الصدد هو موقف مكارتي (١٩٧٩)، فيما نعلم، وهو موقف حشوي أساسا كما سنبين، فمكارتي يعتبر بعد هالي (١٩٧٣)، أن المعجم يضم جميع أشكال الكلمات بما فيها الكلمات المتصرفة. والقواعد الصرفية تلعب دورا في تقييم المعجم أساسا، وإن كان يرجع إليها في توليد وتأويل المولدات (Neologisms). وهي قواعد سياقية أساسا (sensitive-Context)"[٤٩] (أنظر تشومسكي (١٩٧٠) و سلكرك (١٩٨٢) و فاب (١٩٨٤).

" ورغم صعوبة تعريف الكلمة، يرى أرونوف وفودمان (٢٠١١) أن المتكلمين لهم حدس يتعلق بما لا يعد كلمة، أي يُعرّفون الكلمة من خلال ما ليس كلمة. ويتم هذا من خلال اختبار تجريبي يراعي

---

[٤٧] البناء الموازي، ص٣٩-٤٠

[٤٨] البناء الموازي، ص٤١

[٤٩] البناء الموازي، ص ٤١

الصورة المختلفة لكلمة واحدة ترد في مواقع تركيبية مختلفة للدلالة على العدد أوالجنس مثلا، وقد بين الاختبار مايلي:

أ- **الترتيب الثابت للعناصر:** فالكلمة ترد بترتيب معين، ولا يمكن أن ترد بترتيب آخر، مثلا نقول "سألتمونيها" ولا نقول "نسألتهامو"، فهذه الصورة الأخيرة ليست كلمة.

ب- **عدم الفصل أوالإدماج:** ويعني أنه لا يمكن فصل الصرفيات بعناصر نحوية أخرى، مثل "تشاجر"، لا يمكن أن نقول فيها "شاجر لقد ت"، كما أن هناك كلمات "حضر موت"، لا نقول فيها "حضرات موت"[٥٠]، والظاهر هنا أن الكلمة بصفة عامة هي وحدة تخضع لترتيب ثابت لعناصرها، كما يعد لحنا عدم الفصل عندما تكون صرفياتها مفصولة، أوالإدماج عندما تكون صرفياتها مندمجة، لأن الاصطلاح والتواضع اللغويين، هما ما يحددان طبيعة الكلمة وصحتها.

٢-٤ اللواصق وأنموذج الكلمة:

" يمكن تحديد ثلاث طبقات من اللواصق هي: اللواصق الاشتقاقية، وتمكن من توليد صور مشتقة جديدة انطلاقا من الجذر أو صور أخرى بسيطة، واللواصق الصرفية ، وتحتوي الصور المصرفة للفعل والاسم والصفة. وأخيرا المتصلات والأدوات، مثل الضمائر والحروف النحوية المتصلة"[٥١] وهذا توضيح للأدوار التي تلعبها اللواصق في علاقتها بالكلمة، حيث الاشتقاقية منها تولد كلمات انطلاقا من الجذر اللغوي ككلمات مثل تشارك، استقال، انكسر.... أما الصرفية فمثل كلمات أكتب، نذهب، يلعب...، ولها علاقة كبرى بالتغيرات النحوية لبنية الزمن والجهة. وبخصوص المتصلات فمثل سيذهب، والضمائر كهاء الغائب، وكاف المخاطبة...

وللإشارة "هناك بعض اللواصق الملتبسة، وهي التي تكون متشابهة على المستوى الصوتي، وإن كانت طبيعتها مختلفة، مثل التاء التي تكون إما اشتقاقية، وإما صرفية، وتغير بعض اللواصق التي تدخل على صورة معينة من الفعل، كاللواصق التي تدخل على الفعل الماضي ، ولواصق الفعل المضارع، ولواصق الأمر، ثم هناك لواصق أخرى تدخل على وجه (Mood) معين للفعل، مثل الفعل المضارع المرفوع أو المنصوب أو المجزوم أو المؤكد. وفي هذا الإطار، يمكن الحديث عن طبقات معينة (أو نماذج موحدة) من الكلمات التي تأخذ لاصقة من اللواصق وتسلك نفس السلوك كما هو موضح في الجدول التالي"[٥٢] وهذا ما يوضحه الجدول أسفله، كونه يقدم تحققات بعض اللواصق التي يمكن أن ترد صرفية أو اشتقاقية:

---

[٥٠] صرف تركيب اللغة العربية، ص ٤١

[٥١] صرف تركيب اللغة العربية، ص، ٤١

[٥٢] صرف تركيب اللغة العربية، ص ٤٣

السابقة	نوعها	مقولتها	مقولة ما تلتصق بها	أمثلة
تَ	اشتقاقية ف	ف	ف	تشارك
سْتِ	اشتقاقية س	ف	ف	اِستقالة
تَ	صرفية ف	ف	ف	تَقْتُل
أَ	اشتقاقية ف	ف	ف	أَكْرَم
أَ	صرفية ف	ف	ف	أَكْتُب[٥٣]

ونلاحظ في الجدول أن لاصقة التاء، جاءت اشتقاقية في كلمتي "تَشارك" و"استقالة"، إذ غيرت مقولتهما، لأننا يمكن أن نقول "تَشارُكٌ" أي الانتقال من مقولة الفعل إلى مقولة اسم الحدث، أو "استقال" بالانتقال من مقولة اسم الحدث إلى مقولة الفعل. أما في كلمة "تَقتل" فقد جاءت التاء فيها صرفية، لأنها لم تغير مقولة الفعل، كما أنها دخلت على صورة محددة للفعل، هي الفعل المضارع.

والملاحظ من خلال تحديد طبيعة اللواصق التي تلحق الكلمة العربية أن "الجانب السلسلي في بنية الكلمة العربية، وهو الجانب الذي يبنى بإضافة لواصق إلى الحد الأيمن، في حالة السوابق، أو الحد الأيسر، حالة اللواحق، لأصل معين. وهذا الجانب يكون يسيرا حيث نريد تحليل بنية الكلمة مقارنة بالجانب اللاسلسلي للكلمة العربية"[٥٤] وهذا الجانب السلسلي، خطيا وأفقيا، ويحتوي لواصق متعددة ومتغيرة. وبخلافه هناك التحليل الصرفي الذي يكون بتحديد الصرفيات المميزة، وما إذا كانت هذه الصرفيات لها بدائل في سياقات محددة. بمعنى أن تكون صرفية ثابتة مثل الجدع "ضَرَبَ"، وتتناوب عليه مجموعة من اللواحق، ك "تُ" في حالة ضمير المتكلم' و "تَ" للمخاطب، "تُمَا" للمخاطب المثنى...

[٥٣] صرف تركيب اللغة العربية، ص ٤٢

[٥٤] صرف تركيب اللغة العربية، ص٤٤

٥- الخاتمة:

في نهاية هذا المقال نستخلص جملة من المخرجات من بينها أن للصرف تسميات عدة كالتصريف والتحويل، كما أن معناه لغة، التغيير والانقلاب والزيادة والحسن. أما معناه اصطلاحا، الاشتغال على الكلمة، انطلاقا من بنيتها، عبر اشتقاق أوزان عربية جديدة. وهذا يجرنا إلى القضايا الصرفية التي ركز عليها علم الصرف عند العرب، ومنها التغيرات التي تصيب الكلمة، وكذا العوارض التي تلحق البنى الأصلية للكلم العربي وذوات الكلام، كما أن الصرف عندهم له شق دلالي، يشمل التصريف حسب الأزمنة النحوية، كالفاعلية والمفعولية (التصريف المعنوي). وشق صوتي هو الغالب كالإعلال والإبدال والنسبة والوقف (التصريف اللفظي). بالإضافة إلى هذا، هناك تداخل من منظورهم بين الصرف والاشتقاق، رغم الاختلاف النسبي بينهما. لأن الأول في اشتغاله ينطلق من كلمة تكون هي القالب والمعيار لبناء كلمات أخرى، كما يميل إلى النحو. بينما الثاني ينطلق من جذر لغوي، ويمر عبر جذع لغوي، ليعطينا العديد من المشتقات، ومنه نصنف أنواع الاشتقاق (الصغير، الكبير، الكبار...)، وهذا بدوره يميل إلى العنصر اللغوي المعجمي.

زيادة على هذا، حصر النحاة العرب القدماء، الكلمات التي يتناولها الصرف، في الأسماء المتمكنة، والأفعال المتصرفة، وما لا يدخل ضمن الصرف (الأسماء الأعجمية، الحروف، أسماء الأصوات، الأفعال الجامدة...) . ولم يغفلوا كذلك عن تحديد عدم دخول التصريف هذه الأخيرة، وهو مضارعتها للحروف التي يعتبر فيها البناء أصلا. ومن القضايا الأساسية التي اهتم بها الصرف العربي، هي الميزان الصرفي، كون معيار لصنيف الكلمات العربية وغير العربية، والتغيرات التي تلحقها، كما يساعد على تصنيف أنواع الكلم (الفعل والاسم والحرف). ومنه بينا العلة المنطقية لاستناد هذا الميزان على مادة "فعل"، سواء على مستوى البعد الصوتي الدلالي.

وبخصوص مبحث الصرف والصواتة عند الغربيين، نكون قد أمطنا اللثام عن مجموعة من القضايا الصرفية الحديثة التي اهتموا بها، ابتداء بصيرورته التاريخية منذ الإغريق والرومان، ومرورا بتعريفه اللغوي المتعلق بعلم الشكل والبيولوجيا والجيولوجيا. وكذلك التعريف الاصطلاحي، باعتباره علما يهتم ببنية الكلمة على مستوى الشكل والصورة والاشتقاق والتوليد. كما أشرنا إلى تصور أرونوف حول علم الصرف، الذي يرتبط بالسوابق واللواحق الصرفية والاشتقاقية، وكذا الجذر اللغوي الذي يشكل النواة القابلة للتوليف والاشتقاق. وإلى تصور اللسانيات البنيوية، خاصة مع مفهومي الدال والمدلول. بعده حددنا مستويات التعريف للكلمة؛ الخطي والتركيبي والصرفي والصوتي. الشيء الذي جرنا إلى عرض الإشكالات التي يطرحها تعريفها، خاصة على مستوى طبيعتها، مما يؤدي إلى تجاذبها من قبل مباحث لسانية أخرى، كالتركيب والمعجم والصواتة... إلى جانب علاقتها بالمكون المعجمي، المستند على ثلاثة اتجاهات أساسية، هي التصور الحشوي، والتصور الاستقلالي، والتصور التركيبي. وهذا يجعل النظرية الصرفية تقوم

على ثلاثة مجموعات من الذوات: مجموعة من الموضوعات الصرفية، ومجموعة من القواعد، وأبجدية لأجزاء الكلام. وفي الأخير بينا تصور أرونوف وفودمان لتحديد طبيعة الكلمة، حيث يقوم على معيارين، هما الترتيب الثابت لعناصر الكلمة، وعدم الفصل أو الدمج بين مكوناتها.

٦- المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات بن الأنباري، مطبعة السعادة، الطبعة ٤، ١٣٨٠هـ-١٩٦١م.
- البناء الموازي، عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، الطبعة ١، ١٩٩٠.
- الجني الداني في حروف المعاني، الحسن بن القاسم المرادي، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم، دار الكتي العلمية بيروت- لبنان، الطبعة ١.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- المبدع في التصريف، أبو حيان النحوي الأندلسي، تحقيق عبد الحميد السيد، مكتبة دار الغروبة، الطبعة ١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- المستقصى في علم الصرف،عبد اللطيف محمد الخطيب، مكتبة دار العروبة الكويت، الطبعة ١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- المصنف شرح ابن جني لكتاب التصريف، لأبي عثمان المازني، تحقيق ابراهيم مصطفى، إدراة إحياء التراث القديم، الطبعة ١، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.
- الممتع في التصريف، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار المعرفة بيروت، الطبعة ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد، تحقيق محمد محي الدين ومحمد الحسن، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة ه٢ ١٤٠٢-١٩٨٢م.
- شرح التصريف الملوكي، ابن جني، تعليق أحمد الخاني، الطبعة ٢ (بدون سنة).
- شرح المفصل، ابن يعيش ، تصحيح وتعليق مشيخة الأزهر، إدراة الطباعة المنيرية(بدون سنة).
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة ١، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
- صرف-تركيب اللغة العربية، عبد الرزاق تورابي، دار توبقال للنشر، الطبعة١، ٢٠١٥.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، بن هشام الأنصاري، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

ملف تكريم الروائي والناقد السوري نبيل سليمان

يحتوي هذا الملف على ثلاث شهادات حول تجربة الروائي والناقد السوري نبيل سليمان،
هي على التوالي للروائيين عبده خال (السعودية) وعلي المقري (اليمن) ونزار شقرون (تونس).
كما يحتوي الملف على دراستين لاثنتين من روايات نبيل سليمان،
الأولى للناقد المغربي توفيق سخان، والثانية للناقدة السورية (دعد ديب).
وهذه المساهمات الخمس في هذا الملف مع 65 شهادة ودراسة لكتّاب وكاتبات عرب وأجانب، وتتناول جميعاً تجربة الكاتب في الإبداع والنقد والفكر،
وسوف تصدر في كتاب احتفالي بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره.

عبده خال
روائي من السعودية

فتح منافذ الاستنشاق

يحمد للصديق نبيل سليمان الإتيان بمصطلح (المثقف النقدي) إذ أن هذا الدور يصفي النفوس من آثار وخيمة عبرت الإنسان السوري، مع الابتعاد عن إعادة إحصاء حبات (مسبحة) الكره والمطالبة بالثأر، والحمد أن يتحرك الصديق نبيل مع ثلة المثقفين السوريين في هذا الفضاء المتسع للحب، فالحب هو البناء الرئيس لما تم تهشيمه، وترميم بلد مزقته الحرب، وسبق ذلك التمزيق نظام شمولي حجز على منافذ الأنفاس لأكثر من نصف قرن. والصديق نبيل سليمان قضى تلك السنوات تحت كابوس السلطة، ومن خلال إبداعه استطاع تمرير ما يمكن تمريره، فالذاكرة الإبداعية العالمية تؤكد أن الإبداع الروائي استطاع النفوذ من براثن الاستبداد عبر العالم، ولنا في الأدب الروسي أكبر مثال في هذا. والآن وسوريا تتنفس ما هو دور المثقف النقدي يا صاحبي؟

من المتعارف عليه أن المثقف ثائر طوال الوقت، ربما أن ثروته ترضى بحياة تكرم الإنسان وتفتح أبواب المستقبل لأبناء بلده، ومع تغير سقف الحرية في سوريا هل ثمة نضال لأن يتحرك المثقف لتأسيس وتعبيد الطريق؟

أعتقد أن من عاش تحت ظلم نظام قاس يستطيع التحرك نحو بناء ثقافة جادة تنادي بفتح الطريق للمستقبل، خاصة وأن الشعب السوري تضعضع تحت حمولة وقسوة نظام سابق.

وأعتقد أن جلّ الروائيين السوريين سوف يجدون أمامهم كنوزاً حكائيةً تم طمرها تحت غلظة نظام كان يحاسب الناس على استنشاق الهواء، وما تم عرضه من سجون ختمت على أنفس لم يُمكّنها الزمن من مدّ عنقها لاستنشاق هواء الحرية، هذه الأنفسُ بحاجة لان تحيا روائياً، فكم رواية سوف تصدر قريباً عن تلك المجازر التي دفن أصحابها من غير تحية وداع!

الصديق نبيل سليمان أرشّحه لأن يرفع راية الكتابة الروائية لتخليد تلك الأنفسُ روائياً، والتي مضت من غير وداع الأحبة. سليمان أعرف أن كتابتي هذه قد انحرفت عن مقصدها، فكان من الواجب تحية حبيبنا نبيل وتهنئته بعيد ميلاد سعيد، لكن العيد الحقيقي للروائي هو كتابة ما تم تخزينه من ألم لم يستطع كتابته ذات يوم.

علي المقري
كاتب وروائي وشاعر من اليمن

نبيل سليمان إذ يعيش الحياة

يرتبط اسم نبيل سليمان لديَّ بالبهجة، فمنذ أن قابلته أول مرة في صنعاء، شعرتُ أنه "يعيشُ الحياة"، ولم أجد تعبيراً مناسباً غير هذه العبارة. ارتبطتْ قراءتي لنبيل سليمان في البداية بهوى أيديولوجيّ، ربما لأنّ كتبه كانت مُروَّجاً لها من قبل اليساريين في اليمن في نهاية السبعينات وفترة الثمانينات، وهي الفترة التي بدأت فيها تتشكل معارفي الأدبية. ولهذا كانت رواياته مثل "ينداح الطوفان"، "السجن"، "ثلج الصيف"، "جرماتي"، بمثابة مفاتيح لقراءة أحوال المجتمع العربيّ، فنستكشف منها صراع الفلاحين مع الإقطاع، ومواجهة الإنسان المقموع للسلطات في أزمنة الاستبداد والحروب. كانت هذه الروايات مشفوعة بكتابات تنظيرية ونقدية، مثل كتابه مع أبو علي ياسين عن "الأدب والأيديولوجيا"، أو كتابه حول الواقعية والالتزام...

الذي صُدرت طبعة منه في عدن، منتصف ثمانينات القرن العشرين، عن دار الهمداني، على هيئة كُتيِّب صغير كان بمثابة "دليل المناضل الثوري لقراءة الأدب"، حيث كان الاتجاه الماركسي التقليدي هو السائد في النظرة لكل ما ينتج من أدب أو فكر، ومن ذلك جاء كتاب نبيل سليمان "الماركسية والتراث العربي الإسلامي" الذي يعرض فيه لما أنجز من قراءات للتراث الإسلامي في ضوء المنهج الماركسي.

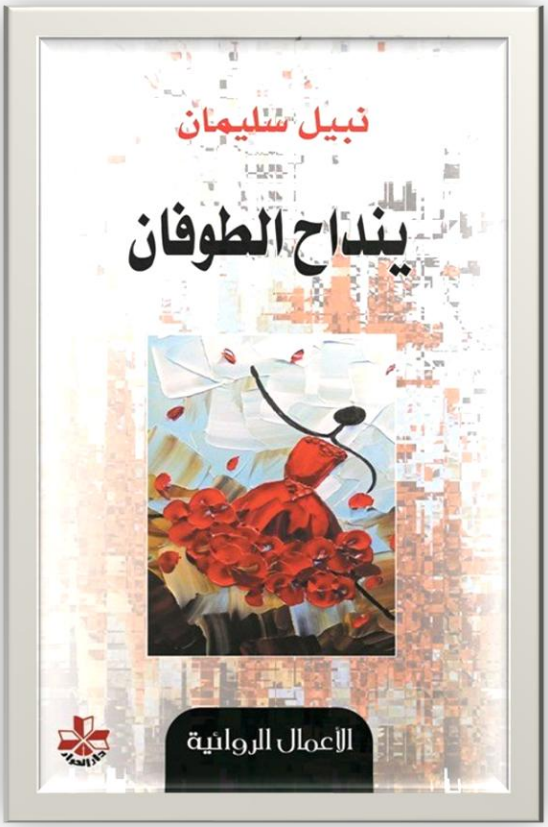

ما يمكن ملاحظته أن نبيل سليمان بقي مخلصاً للمنحى الأدبي الفني في كتاباته، والذي كان في الغالب يطغى على المنحى السياسي المباشر، وذلك من خلال بناء الشخصيات الصراعية التي يُضيئ حياتها من جوانب اجتماعية مختلفة، وهذا ما سوف نقرأه في روايته "ثلج الصيف"، التي كتبها بشكل مبكر من تجربته الأدبية (١٩٧٣) وفيها استخدم تقنية تعدّد أصوات الرواة.

أكتبُ هذه الإشارات وأنا بعيد عن مكتبتي التي احتوت هذه الأعمال وملاحظاتي حولها، مع هذا، من المهم القول إن اهتمامي بأعماله تعزّز أكثر بعد أن قابلته في معرض صنعاء الدولي للكتاب، بداية تسعينات القرن الماضي، وأجريت معه حواراً صحافياً نُشر وقتها في الصحافة اليمنية.

إلى ذلك، تُحفزنا التحولات الأخيرة في سوريا لإعادة قراءة روايات نبيل سليمان، والتي تشكل مرجعاً أدبياً لقراءة المجتمع السوري منذ فترة تشكل الدولة السورية الحديثة في عشرينات القرن العشرين وحتى الآن. وبالذات ما سنجده في رباعيته "مدارات العشق" (١٩٩٣)، والمكونة من أربعة أجزاء "الأشرعة" و"بنات نعش" و"التيجان" و"الشقائق". والتي تبدو لقارئها كأنها تاريخ لسوريا من زاوية أدبية.

هذه التحولات في سورية تذكرني بما حدث لنبيل من اعتداء جسدي في ٣١ يناير ٢٠٠١ "عقاباً على ندوة أقامها في منزله في سياق ما عرف بربيع دمشق". يومها كنت موظفاً إدارياً في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين وعضواً في مجلسه التنفيذي، وكلفتني الأمانة العامة للاتحاد بمتابعة ما حدث لنبيل سليمان مع اتحاد الكتاب العرب في دمشق، وإمكانية عمل بيان تضامني مع الكاتب. وأتذكر يومها مدى الخذلان الذي وجدته من الاتحاد في دمشق، وهو ما عبّرت عنه لاحقاً في مقال في صحيفة "الحياة" أعقبُ فيه على سجال بين علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب والكاتب المصري أحمد الخميسي.

هكذا، ظل نبيل سليمان، سواء في منجزه الأدبي أو في حياته في المجتمع السوري، صوتاً حرّاً يساهم في نشر التنوير الفكري ويُحفّز الناس على مواصلة الحياة بطريقة حرّة، وأقل قسوة.

د. نزار شقرون
كاتب وروائي تونسي

نبيل سليمان، الروائي ناقداً

الذّهاب في اتّجاه النّقد مغامرةٌ شديدة التّركيب بالنسبة لأيّ روائيّ، فهيَ تَضعُ الروائيّ في منزلة بين هويّته ككاتب وبين هويّته كقارئ نوعيّ. تلك المنزلة عايشها الروائي نبيل سليمان، فَعُدّ النقد مقوّما من مقوّمات أدبه، وصفة ملازمة له في مختلف منعطفات مسيرته. لقد قَدِم إلى النّقد من درب القراءة، وأيّة قراءة تلك التي انغمسَ فيها منذ صباه؟ إنّه ولع بالإنصاتِ إلى حفيف الأدب قبل تملّي ما وراء الكلمات من أسرار وما وراء النّصوص من أطروحات ورؤى، وفي الآن نفسه، وبقدرِ بحثه عن فرادة نصّه الروائي، لم يغلق نوافذ عالمه على روائيين آخرين وروايات بدت لهُ جديرة بالقراءة، ومعنيّة بقلمه. إنّه يعيشُ بلا هوادة وسط مشهد روائي عربي يحتاجُ إلى وعيٍ مختلفٍ بالانخراط في حالاته، وليسَ أشدّ في هذا المشهد من حالات الكتابة دونَ نقدٍ، وممارسة النقد على غير منوال سابقٍ، وبعيدا عن المنهجيّة الصّارمة لجرّاحي النّصوص.

لقد بدا ذلك الطريق الذي سلكه وعرا منذ البداية حين ألّف مع بوعلي ياسين كتاب "الأدب والإيديولوجيا في سورية" (١٩٨٥)، في سياقٍ محفوف بتطاول الإيديولوجيا والمناهج المغلقة الشبيهة بالعقائد المحنّطة. نما لديه آنذاك شعورٌ بالحاجة إلى "النّقد" الذي لا يعتقلُ النصّ، فالنصّ الرّوائي "ينطوي على أطروحة أو أطروحات في النقد ونقد النّقد، ممّا لا يأبهُ به عادةً ناقد النصّ"، وفي هذا الوعيِ إشارةٌ إلى قُصور النّقد العربي على الإحاطة بالنصّ الرّوائي، وميله الدّائم في صيغة استعراض ترسانة المناهج إلى الولاء للمنهج قبل النصّ، فقد آمن نبيل سليمان بأنّ النّقد في أصله مستنبط من الرّواية وليس العكس، ومن المهمّ أن يستفيد النقد العربي من أطروحات مفكرين ونقاد غربيين سبق لهم أن بدّدوا صورة النقد المنهجي الآلي، والأهمّ أن ينظر النقاد العرب في الكيفيّة التي يتمّ بها ترديد هذا التلقّي.

في كتبه النقديّة "سيرة القارئ"، "في الإبداع والنقد" و"فتنة السرد والنقد"، وغيرها، يمارسُ نبيل سليمان النّقد من خلال الوعي بأزمة النّقد العربي، فهو يدرك بأنّ تلك الأزمة جزء من أزمة أشمل يتضاءلُ فيها "النقد" في هواء الحياة العربيّة المعاصرة قبلَ أن يتأزّم في الخطاب النقدي الأدبي ذاته، هناك مناخ إبداعي شامل مريضٌ بنقص مناعة النّقد، بل في أسوأ الحالات فقيرٌ إلى ما به يكونُ النقد نقدا وليسَ إجراءً تطبيقيّا واستعراضا لمهارات نظريّة.

وإذا كان النقد لديه "فعاليّة إنسانيّة طبيعيّة وحضاريّة ضروريّة" فإنّهُ لا يتوانى عن المخاطرة بآرائه حول ما يحدث في ساحة النقد العربي إمّا بوضع الخطاب النقدي على المحكّ من خلال نقد النقد، فكتب "النقد الأدبي في سوريا" (١٩٨٠) و"مساهمة في النقد الأدبي" (١٩٨٢) ومباشرة النصوص الروائية بالدرس النّقدي ابتداء من كتابه "وعي الذات والعالم" (١٩٨٥). ويأتي تحرّكه طيلة هذه العقود لانتشال الإنتاج الأدبي من الإهمال ومن الدّرس النّقدي الذي يؤذي النصّ بدل أن يكشف خباياه، فاتّسم نقد سُليمان بمحاورة النّصوص، وليس بتعنيفها أو بفرض إسقاطات نظريّة على بناء عالمها، فهو يستفيد من كلّ المناهج بما يتناسب مع النصّ وليس العكس، ويُعمل معوله النّقدي بأناة كلّما انتبذ مكاناً قصيّاً عن كتابته الرّوائيّة، حيثُ يحلّ النقد في "هدأة" الكتابة. إنّه على امتداد ما كتب في النّقد الرّوائي لا يتورّع عن طرح كبريات القضايا التي تصل الرواية العربيّة بالحداثة والشّعر والهويّة وعلاقة المجتمعات العربيّة بغيرها من المجتمعات، وهو في ذلك النقد يستجمع في ذاته الناقدة وعيا بطرق الكتابة الروائيّة وبما يعيشهُ الروائي أثناء إنشاء عالمه الخاصّ، وكيفَ يقرّب القارئ من النصّ بتوسّل خطاب يبتعد عن "رطانة" المصطلحات لأجل كسب القارئ في خضمّ الخسارات التي مُني بها الخطاب النقدي "المتعالم".

هل استطاع نبيل سليمان تأسيس معالم خطاب نقدي عربي قادر على تخفيف حدّة أزمة النّقد؟

ذلك هو السّؤال الذي دفع سليمان نفسه إلى وصف ممارسته تواضعا بـ"محاولات" نقديّة في أغلب كتبه، وفي حقيقة الأمر فإنّ تلك الممارسة التي شملت مدوّنة غنيّة من الرّوايات العربيّة ستظلُّ مادّة أثيرة لدى الدارسين والكتّاب والنّقاد على السّواء لأنّها تابعت بإنصاف "الروائي" لفن الرواية وحرصه على مستقبلها، سيرورة الكتابة الروائيّة العربيّة في منعطفاتها وارتكاساتها وتجريبيّتها وتفاعلها مع الواقع العربي بما فيه من ظواهر اجتماعيّة وسياسيّة وفكريّة وما يحمله من تطلّعات حضاريّة.

ومن المفيد أن نستعيد مفهوم المراجعة ونحن نعود إلى كتاباته النقديّة المبكّرة، لنمعن في القول بأنَّ ما تلمّسه في ثمانينيّات القرن الماضي ما يزالُ طريّا ومحافظا على حرقة الأسئلة رغم تباعد الزّمن، وكم تحتاج الممارسة النقديّة اليوم في خطابنا المعاصر إلى المعين نفسه الذي حفرهُ نبيل سليمان وهو يمضي في الإنصات إلى الواقع العربي قبل المنهج، وإلى النصّ الروائي في مغامرته خارج حدود مسبقة للنّقد.

توفيق سخان
ناقد مغربي

نبيل سليمان و "تاريخ العيون المطفأة"

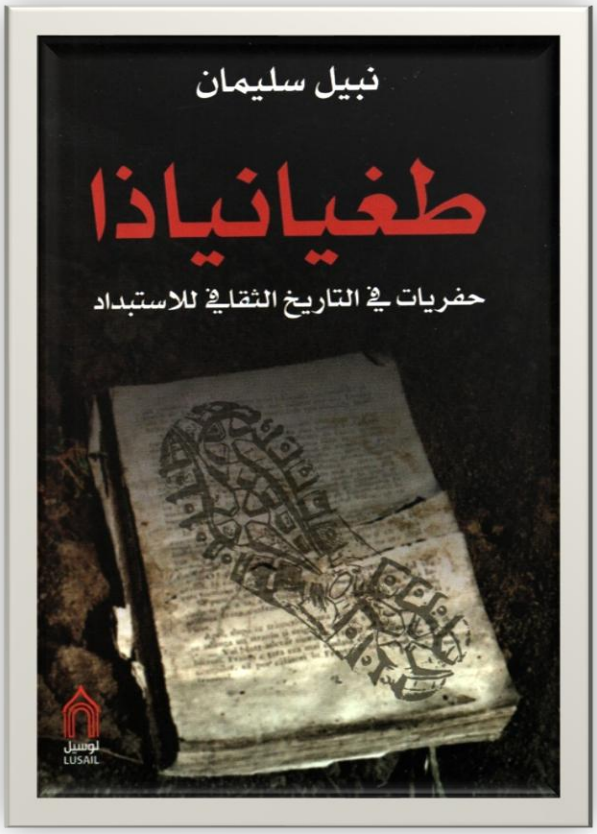

هو ذا التاريخ يتدحرج، كرَّة أخرى، ما بين سطور البياض المُعوجة وظلال المناطق المعتمة، ما بين البدايات الأولى ورواباٍ فسيحة تنهدُ، هنا وهناك، عن سرديات تحتفي بحكاية العتمة وألاعيبها، العمى وبصائره المديدة، قهرنا الأبدي ونهاياته الحتمية. التاريخ هنا، وكل حكاية هي بالضرورة تاريخ، لا يُملي مقاصده وفق منطق متجرد يتنزل من الأعلى إلى الأسفل، من السماوات العلى إلى سواد الأرض، وفق خُطاطة فقهاء الظلام والنور معا، لكنه ينطلق بين الفواصل والهوامش مقهقها في وجه العالم وكل من نصّبوا أنفسهم سدنة له، ويدعو ولو موارية، كما فعل ذات مرة فريدريك نيتشه، إلى "الرقص في الأغلال". إنه تاريخ، كما قال بذلك ميشيل دي سيرتو، "لا يني يطفو من جديد على السطح، يؤرق، يحيل شعور الحاضر بالأمان والراحة إلى وهم، يتوارى في الخلف، يُدون قانون الغير والغيرية"، وبذلك يتوكأ اللغة وأحابيلها ويدفع إلى الأمام بالتواريخ غير المروية فينزاح عن المعتاد ويسدّد سِهامه صوب السردية الوحيدة والمتوحدة بأصنامها ورموزها، عسسها وعيونها، استعاراتها وأراجيحها البيانية. وفي النهاية، يباغتنا، بين الحين والحين، بمحكي مغاير على شاكلة "مدن الملح" لعبد الرحمان منيف، و"الزيني بركات" لجمال الغيطاني، و"قناديل ملك الجليل" لإبراهيم نصر الله، وأخيرا وليس آخر، "تاريخ العيون المطفأة" لنبيل سليمان.

لا يروم نبيل سليمان، وهو الشغوف بحفريات المعرفة وكل صنوف المسح الخرائطي، إلى تقديم تاريخ للعمى، أو لداء البصر، كما قد يلوح للوهلة الأولى، وكما تجري الإشارة إلى ذلك حينا بعد حين عبر شواهد ووقائع تمتطي المجاورة والتعارض مقتربا لرواية تتخذ من "العين" المبصرة منها والكفيفة، عناوين لفصولها الثمانية والأربعين التي تلتئم كلها تحت عنوان عريض هو "كالمتون أو سرح العيون"، لتتركنا في النهاية بين رمال متحركة، هي ما يلقبه الروائي "كالخواتيم" بعد أن كان قد افتتح الكلام المباح بما وسمه "كالمقدمات". يبدو المشهد بالفعل كمن يسوق في الضباب عبر جغرافية متخيلة تتشكل من بلاد هي "بر شمس" و"كمبا" و"قمورين"، بلاد يكتنف الغموض أسماءها كما تواريخها لكنها ترتبط جميعا بالحاضر، بالآن هنا، وبعِلة هي، ويا للمفارقة، علة البصر وليس العمى: داء غريب عجيب، ملتبس المصدر والأصل، سيلاحق أبناءها وبناتها، ناسها العاديين وساستها، مبدعيها ومخبريها كما لو أنه قدر عات. ولعل ما يزيد الطين بلة ضمن هذا المشهد الأورويلي (نسبة إلى جورج أورويل) ما كان ينشب بين هذه الأمصار من حروب ونزاعات سببها أنظمة شمولية تشد الخناق على خيرة مواطنيها فتدفعهم إلى الهجرة إلى أصقاع العالم بحثا لا عن نسيم حرية فحسب، ولكن أيضا عن لقمة العيش التي غدت عزيزة المنال. تبدأ الرواية وفق استراتيجية كتابية من حيث يفترض أن تنتهي فترسم العمى أفقا لا أفق بَعدهُ، نهايةً ما بعدها نهاية، وتشد أحداثها وعلائقها المركبة إلى مسبحة من الدلالات تتأرجح بين خيارين لا ثالث لهما: ثمة، من جهة، "العين التي تقاوم المخرز"، ممثلة في سلامة حاتم، شاب كفيف في الثانية والسبعين من عمره يحمل القنابل للمقاومين، وثمة، من جهة ثانية، شاب آخر كفيف هو حنّا الرياش في الخامسة والسبعين من عمره يتأبط المناشير ويوزعها لمناهضة النظام القائم. والخلاصة أن من ينادي بالسلمية ومن يحمل السلاح يستويان أمام بطش النظام الرسمي: فالكل إرهابي.

في البدء كان العماء

في "كالمتون أو سرح العيون"، يفسح الشيخ حميد ماء العينين وفخر النساء المجال لمولود وأماني، كما تفسح الأقبية المعتمة المجال لمزيد من سراديب الظلام، وكما ستفسح "كَمبا" المجال "لبرشمس": مكان ما عاد يَسع أحلام مولود و"أمانيه" فكان لزاما أن يشد عن الطوق، فتكون هي (أماني) أول محطة للخروج من "عمق الجرف"، ومن أسر حكايات فخر النساء والشيخ حميد ماء العينين. ومع أن أماني كانت مبتدأ هذا التحرر من أسر الوالدين وما يمثلانه من عسف (من منطلق فرويدي)، ومن سطوة كمبا، فلن تكون، في نهاية المطاف، سوى محطة نحو محطات أخرى في حياة هذا "المولود"، لكنها محطة لن تؤشر على ما سيليها إلا حينما "يحوص النظر" ويفشو الفراغ فوق أي شيء آخر، كما لو أنه ثقب أسود سيبتلع ما عداه. تصل علاقة مولود وأماني، كما علاقاته اللاحقة، إلى النهاية حينما يتسلل الظلام، العتمة، العمى بين حناياه، هو الفارّ من كمبا ومن انسداد الأفق. "لو عميت هل تتزوجني؟" (ص.٦١) تقذفه أماني بسؤالها إلى لجة الظلمات والظنون. ولأنه بحاجة دائما لمن يحرضه على الفعل، لمن يسعفه على الانتقال من رحم الظلام إلى أحضان الشمس الساطعة، كانت أماني المبتدأ، الدليل الذي استأنس به، وعكازه عبر عوالم جديدة. يضعف البصر، ويلوح شبح العمى في الأفق، فتهل مَليكة "مثلما يهل الهلال"، وتطبق العينان عليه، "عينان تتشوفان، ترشقان، تحدّجان، ثم تبلوانه بالمرامقة. وفجأة تُرنّق هاتان العينان المعلومتان المجهولتان ترنيقا إذ تخفيان النظر، ثم تعاودان النظر إلى مولود باسترابة، ثم مسارقة، ثم بحياد، فيحار بين المخانة إذ تنظر إليه بارتياب، والتزليق إذ تنظران إليه بسخط، ويجتاحه إحساس عارم بالملاشاة إذ ترميه العينان بالقلقة والحملقة". (ص.٩٤)[1]

هي العين إذن في جميع حالاتها، في تجلياتها الشتى، في انشغالاتها المتنوعة، وفي استبصاراتها العميقة، تلاحقه أبدا فلا يعود يدري لمن تنتمي، أهي لمليكة أم لأماني، لأمه فخر النساء أم للشيخ حميد ماء العينين، العاتب على عقوقه؛ هل هي العين الشُّرفة، الكاشفة لا لظاهر المرء فحسب، ولكن أيضا لبواطنه؛ هل هي العين المجردة أم تلك التي تتجاوز الأشعة السينية، مسبارا للكشف، للرصد، وللمراقبة؛ أم هي بعض مما أكد عليه مرتضى الزبيدي في تاج العروس من المعاني المائة للعين كما نقلها عن شيخه، دون أن يعدها كلها، ومنها، على سبيل التعيين: "أهل البلد، الجريان، الحاضر من كل شيء، السحاب، الربا، الشمس، العز، العلم، المال..." لكن تبقى عين العين، العين التي لا تنام، العين الرحيمة من كل الدسائس والمؤامرات وهذه "الهزات" التي تهز كمبا وقمورين كما تسميها قنوات الإعلام الرسمي و"الانتفاضات" كما تشير إليها الفضائيات المعادية.

[1] جميع الشواهد الواردة في هذه الورقة من رواية **تاريخ العيون المطفأة** لنبيل سليمان، الصادرة عن دار ميم للنشر ودار مسكيلاني للنشر، جوان ٢٠١٩.

هكذا من عين محايدة، عين ترابط على التخوم، ترصد نسيج العلاقات الاجتماعية التي أقحمته فيها أماني، يجد مولود نفسه في بر شمس بين مطرقة الوشاية وسنديان الإبعاد، فيختار الأخير بعد أن تبين له أن ما خلفه في كمبا يلاحقه هنا أيضا في بر شمس: قهر وعمى. غير أن الانتقال إلى المحطة الثالثة ضمن هذه الجغرافية المتناظرة- ما يسميه نبيل سليمان في سياق آخر "طغيان ياذا"[٢]- سيتكشف عن خيبة أخرى وهي أنهم بينما استعاضوا عن السجون بالمصحات النفسية في كمبا، وبالمركز الأمني للوباء وللنساء في بر شمس، ففي قمورين توجد مكاتب صغيرة، وبجانب كل مكتب حفرة لكنها ليست صغيرة. هنا مليكة المنشغلة بالفلسفة والرياضيات، لكن هنا أيضا المعادلة الصعبة وهي خيانة الذات والخسة، والحفرة التي لا قرار لها. يناجي مولود ذاته بعد لقائه اللواء مشرق، المسؤول عن توظيفه عينا على ذويه، وخيبته أمام مليكة: "عد إلى عماك. عد إلى موتك. عيناك صارتا من ظلام، وما بين جنبيك ذوى؛ لملم خزيك واستر عريك وفضيحتك. لا تنظر إلى مليكة وهي تبلع شهوتها، وهي تهون عليك، وهي تمسح دبق عرقك أو عرقها. فتح عينيك الآن. تبدد الظلام. ولكن ابق رأسك خفيضا إلى أن تداعب أصابع مليكة شعرك، وتتمتم مودة بما لن تسمعه، فالخزي لا يعمي فقط، بل يصم أيضا ويقطع اللسان." (١٩٧)

ولأن الوباء وبيل، والعماء عميم، يتوسل نبيل سليمان بأصوات متعددة، بزوايا مختلفة، عسى أن تنجلي الصورة أكثر، ولو في قتامتها وسوداويتها، خرابها وفوضويتها، فيشرك حكواتيين، عميانا ومبصرين، كما سبق وأن مدَّ حبل الحكاية لآسيا التي تسعى لكتابة العمى والانكتاب به، فتكتب لمولود قلقها وخشيتها، وتجمل الصورة على الشكل التالي: "المهم الآن هو هذا الوباء الذي يكاد يصيبنا كلنا. لا أقصد فقط وباء ضعف البصر الذي تحول إلى عمى. أقصد أيضا هذا الخراب. هذه الوحشية والكل فيها سواء، تقريبا. هذا الوباء أدهى وأمر من وباء العمى وضعف البصر". (٢٣٤) بعد حين، تعود مليكة من منفاها الاختياري بباريس بعد أن انقطع الاتصال بمولود، وبعد أن تحسن نظرها، وتجددت اللقيا. يختفي مولود فلا تعلم أهو في قبضة اللواء مشرق أم وقع ضحية أخيها وعد، اختطفه ثم ذبحه. تمور قمورين بالانتفاضات، يلعلع الرصاص، تُخرج الأرض أثقالها، لكن ما هو في حكم اليقين هو أن آخر توليفات هذه "الطغيان ياذا" وهو معاوية ابن الشيخ حميد ماء العينين، أخو مولود، يصير عقيدا وعلى رأس المصحات النفسية/ المعتقلات، فيتفتق عقله المشوش عن فكرة اقتلاع العيون، لينتهي به المطاف وهو يعوي مثل ذئب جريح: "عميت يا معاوية؟" (٣٤٠)

[٢] نبيل سليمان، طغيان ياذا: حفريات في التاريخ الثقافي للاستبداد، ٢٠١٨

ما الذي يصيب أبصارنا؟

ولأن رواية "تاريخ العيون المطفأة" لنبيل سليمان تنتمي، مبنى ومعنى، إلى سلالة الروايات والكتابات التي ترفض كل ما يمت بصلة للخطابات الشمولية، أو للفكر المطلق، فقد جاءت حابلة بكل أمارات هذا العصيان، هذا التمرد، وبالتالي أبت إلا أن ترغب عن الانغلاق والسقوط في كل ما له نهاية حتمية. هي بذلك اجتنبت الوقوع في غواية السرديات الكبرى، كما حدد معالمها كل من إيمانويل ليفيناس وحنة آرندت. وجهات النظر/ العمى هي حق مشروع لا غبار عليه لكل شخوصها، سيان أكانوا من رحم الرواية أو ضمن أولئك الذين يشرئبون إلى الانكتاب بين سطورها وملء فراغاتها. تقول جورية، رئيسة اتحاد الطلبة، في تقريع موجه إلى مليكة بعد أن تحدتها أمام الملأ: "هذه هي العين التي لا ترى شيئا"، وهي بذلك تكشف دون وعي منها أن الأنظمة الشمولية المنغلقة لا تملك الرؤية المطلقة، وبأن هناك أشياء تعجز عن الإحاطة بها. ولعل حادثا مغرقا في الدلالة والرمزية أن مليكة التي ضعف بصرها حينما كانت في قمورين، وكانت على شفا الغوص في جرف الظلام، شعرت بالتحسن حينما غادرتها إلى باريس. في هكذا جغرافيا، يخبرنا الروائي، تنحبس الأنفاس، وتعوض لغة الإشارة اللغة الطبيعية، وتقتلع عيون المعارضين، وتنكمش وجهات النظر ويكون مصير مواطنيها العماء. غير أن حتى هذا العماء ليس مطلق السيادة.

في هذه الرواية، المتعددة الطبقات، الموغلة في الرمزية، نتحسس طريقنا مع نبيل سليمان عبر سراديب هذه "الطغيان ياذا" التي خبرها عن كثب، وثمة أمل أن يُصاقب مصير أصحاب العيون المطفأة مصير الإسبان بعد رحيل فرانكو: قامات شامخة عالية بعد قِصر مكين ووجوه جرى نسغ من البشر في إهابها بعد أن كانت شاحبة كالحة.

دعد ديب
كاتبة وناقدة سورية

نبيل سليمان يتألق في ثمانينه

قلّ أن عرفت الساحة العربية أديباً ومفكراً غزير العطاء امتد منجزه على مساحة واسعة من سنوات حياته مثل نبيل سليمان، عطاء جعل من الأدب شباباً نابضاً بكل ما فيه من زخم وانطلاق كللت مسيرته وازدحمت في نتاجاته التي بلغت إحدى وستون كتاباً تراوحت بين أعمال روائية ودراسات أدبية وفكرية.

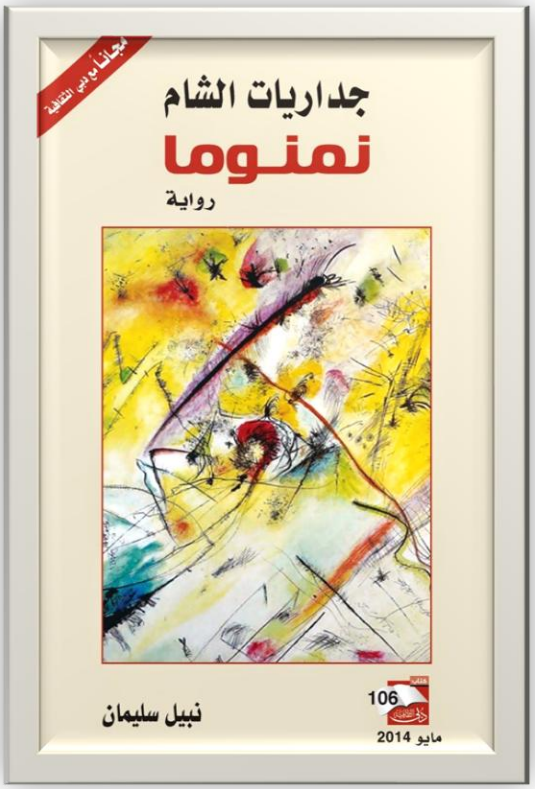

احتشدت جُلّ أعماله بقضايا معرفية تراوحت بين الحياة والوطن والمرأة وكانت الحرية هي النبراس الذي توجها، وعلى الرغم من قوله بأنه لازال باكراً الحديث عن أدب الثورة، ولكنه أفرد للثورة السورية مساحة واسعة في أعماله التي تواقتت معها ومن بعدها ومن أبرزها "جداريات الشرق نمنوما" التي كانت بانوراما تسجيلية أشبه باللقطات السينمائية في تزاوج واختلاط بين ما حصل في الهبات الشعبية في كل من مصر وتونس فتارة مشهد من سوريا وطوراً من تونس وآخر من مصر في تواشج للسرد في المشاهد المُستلة من الربيع العربي وحضور ما يحصل فيه وقد احتشدت الهتافات الشعبية التي جسدت آمال الشعوب العربية بحريتها والخلاص من طغاتها شبيهي الأزل.

بين التوثيقي والتاريخي والمتخيل الأدبي والمرجعي تدور أحداث النص "نمنوما" مستعرضاً مشكلات الواقع السوري الحقيقية على غرار توثيق هبة الأكراد بالقامشلي عام ٢٠٠٤ مبيناً أن إحصاء ١٩٦٢ تجاهل تسجيل تسعين ألف كردي، وقد تجاوزوا الآن المائتي ألف وما يترتب عليه من تداعيات أهمها أن واحدهم لا يتعلم في مدرسة أو جامعة، ومحروم من السفر لعدم وجود هوية يستطيع أن يتحرك بموجبها، بالإضافة لمنعهم من تسجيل أولادهم بالأسماء الكردية والكلام والغناء بلغتهم الكردية مضيئاً على أزمة الجنسية التي ظلت عالقة لأربعين سنة دونما حلّ.

يسرد وقائع الزلزلة وهو يشرف على الجحيم الذي يضطرم في البلاد في عمله هذا جداريات الشام "نمنوما" وقد انغمس في سرد يوميات وتفاصيل الأفكار والمعتقدات التي صبغت شخوصها عبر شبكة علاقات المجتمع السوري المعقدة في مرجعياتها وانتماءاتها والخلاف الحاد بين المؤيدين والمعارضين من خلال الكشف عن البنى النفسية لكل منهما والدوافع الكامنة وراء مواقفها بدءاً من حادثة صفع الشرطي لأحد المواطنين في حي "الحريقة" وابتلاع المشهد والإحاطة به من قبل وزير الداخلية مما جعل الجموع تهتف بحياة الرئيس ومشابهتها بحالة البوعزيزي بتونس والشرطية التي صفعته وفجّرت الأحداث للجموع المنتفضة.

عبر ثنائيات جَسّدت شرائح مختلفة منها ماهي متوافقة مع بعضها ومنها متعارضة وكل ثنائية عبارة عن مرآة يظهر بها الآخر بكل تعقيداته، الثنائية المحورية كانت بعلاقة صباح ونمنوما ضمن إطار علاقة الحب التي تنامت تدريجياً عبر آراء ونقاشات حول ما تمر به البلاد، نمنوما المرأة القوية والمتمردة والمطلقة التي هزتها رياح الحب وقد أتتها في خريف العمر ليكون خيارها العقلاني، وهنا نراه ضمن منظورها العشقي وحاجتها للارتواء الجنسي والعاطفي في تناص مع بعض مفردات نشيد الإنشاد "أنا مريضة يا حبيبي. أنا مريضة بك، والقمر الملعون صار يلطو خلف الغيوم".

ومن هذه الثنائية توالدت في إهابها ثنائيات أخرى مثل نمنوما وواصل أبيضاني؛ ليليا وسراج؛ ليليا وحنيف؛ مميز وانطوان؛ راتب وبنان وبينهما العاصي، تمور بينها صراعات داخلية ومماحكات فكرية وتعقيبات على الأحداث وتفسيرات تخصصت بها نخب وأفراد مستقلين وخلافات ضمن الأسرة الواحدة، فنمنوما الواضحة في رأيها المعارض والمساند للثورة لديها أخيها الكبير "فاخر" الذي يمول صفقات الفساد التابعة للسلطات الحاكمة وأخيها الصغير "يامن" الذي يحب الرئيس ولكنه شخصية هشة وضعيف البنية لا يقوى على مماحكة الرأي بالرأي ويضيق ذرعاً بالجماعات التي تستقبلها أخته في بيتها، وهناك أختها التي تعيش في صراع بالرأي السياسي مع زوجها مما يعكس الشرخ الاجتماعي الحاد الحاصل ضمن البيئة الواحدة والنطاق الضيق بحكم الاختلاف السياسي وكيف يرى كل منهم واقع الأمور من زاويته.

ومن ناحية أخرى تبرز علاقة التناقض الحاد مع طليقها والد ابنتها ضابط الأمن الذي يقود القتال ضد فصائل المعارضة، كذلك ثنائية الصديقين المتناقضين صباح وطيب قشاب وهذا الأخير هو الذراع غير الرسمية للنظام عبر صورة متداخلة لعلاقة يختلفان فيه بالرأي في إطار صداقة سابقة ليقحم الكاتب اسمه الشخصي مع منذر الخدام بأنه هذا القشاب كان على رأس الشبيحة الذين اقتحموا بيته في نوع من قطع انتباه القارئ من الخيال ورده إلى الواقع وإعادته مراقباً للأحداث ومشاركاً فيها في أن ما يحدث واقعاً أكثر منه حدثاً متخيلاً.

في تجسيد الدمار والخراب الذي ألم بالبلد وآلاف الشباب التي اختفت وغيبت واستشهدت وضحت، وقد حملت قلوب طامحة للتغيير في فرصة تاريخية كثفتها التفاصيل الصغيرة في ملاحقة

نمو الشخصيات وتشعب علاقاتها في ائتلاف التناقض بين أحاسيس صباح وهو يرى محبوبته تزور بيت طليقها السابق والد ابنتها والوساوس الناجمة عن الغيرة التي فتكت بأعماقه، ونمنوما التي يكاد يقتلها الترقب والخوف في انتظار عودة ابنتها من المظاهرات وحالات احتجازها في أقسام الأمن والتوتر الأكبر في انتظارها عندما قام طليقها واصل أبيضاني باحتجاز ابنته ليليا في منزله كي يمنعها من الانخراط في المظاهرات قناعة منه بأنه يحميها بهذا الفعل، ولكنه ينسى أن موج الشباب المتمرد وثوريته المتدفقة لا يحد منها سوى الموت، الموت الذي كان نصيب حبيبها سراج الشاب الجميل الذي قضى بالأحداث ومن خلاله تتفرع عدسة السرد لتضيء على تاريخ أسرته في الغوطة ومصرع أخويه المنتمين إلى الحركات الإسلامية على يد النظام في صراع سابق مع التنظيمات الجهادية، أخويه مصطفى وشرف الذين قتلوا باشتباك مسلح مع السلطات وقد مثلوا التيار الإسلامي المقاتل أو التي سميت الجماعات المتشددة في تفسيراتها للدين، أما سراج فهو يمثل شريحة الشباب الثوري المتقد والوثاب بكل فورة الشباب وانطلاقه، عبر مشهدية اشتراكه مع رفقاءه بالمظاهرات مع حبيبته ليليا وهما يحلمان بغدٍ بالغ الألقْ ولكنه يلقى مصرعه كذلك بإحدى المواجهات مع النظام أيضاً.

أيضاً من خلال ثنائية راتب وبنان الذين ينتميان إلى المعارضة في علاقتهم المأساوية عندما يتحدى العشاق الأعراف السائدة وخيارهم الحر وملاقاتهم الفشل بعد ذلك نتيجة ضغوطات الحياة التي تأكل العلاقة تدريجياً لتنتهي بالانهيار فشخصية راتب عدلة كثفت حالة الفشل والاغتراب عن الذات، فهو متخم بأجواء مناطحة الاستبداد لذلك لم يكمل دراسته الجامعية نتيجة الخوف الساكن بالأعماق وخوفه من الاعتقال وهو الذي جربه سبع سنوات وعشرٌ مثلها في التخفي عن أنظار العسس، ومن ثم فشل علاقته مع زوجته لأنه عاطل عن العمل، لذا اختار الهروب من كل شيء من رجال الأمن والسلطة؛ ومن الالتزام بالبيت والزوجة والولد ما يعكس حالة شريحة معينة في معاناة النخب الثورية وإحساسها العميق بالخواء واللاجدوى عندما تهبط من تنظيراتها إلى أرض الواقع.

ولكل شخصية خطابها الداخلي فواصل أبيضاني رجل المخابرات طليق نمنوما ورجل السلطة المبرز الذي تدرج من العمل بالشرطة إلى المخابرات الأمر الذي أكسبه نفوذاً واسعاً قابله عداءً عارماً من ابنته ليليا ونفور متزايداً من طليقته، فهو يُنيمُ ضميره لقناعته بأن عمله الذي يقوم على فك الاشتباك بين المتظاهرين وبين قوات النظام هو لصالح الوطن وهو بالنهاية مجبر على تنفيذ الأوامر التي تأتيه من فوق، وبين الاقتناع والرفض والانسياق لخطاب السلطات يَتمترسُ في موقفه في اتباع مزيداً من العنف، العنف الذي انفلت وخرج عن سيطرة الجميع.

نمنوما تشعر بالذنب لأنها تعطي لنفسها مساحة بالعشق ولديها ابنة صبية أخذت على عاتقها مسؤوليتها بالكامل بسبب من نفور الابنة من علاقتها بأبيها، وتشعر كذلك بالذنب تجاه أسرتها وأمها في حمص، تلك الأم التي تنوء بثقل العلاقة بين أبناءها مختلفي الميول والاتجاهات السياسية، وهذه

الأسرة صورة عن سوريا الكبرى وما يحدث فيها من التشظي والتنافر بين أبناءها، ولكن جيل الشباب الثوري هو الذي يطفو على السطح، الشباب المفعم بالحماسة والتضحية رغم القمع والعوائق التي تخللت مسيرة حركته وحراكه بكل ما فيها عثرات انعكست في ترديد العبارات المسكوكة كاختزال لفكر وعقلية في عرضها لجزء من الخطاب المسيطر "ع الجنة رايحين شهدا بالملايين" –"يابوطي وياحسون شيل اللفة وحط قرون" وفي وصف البعض "اذا سكت جدار واذا نطق حمار"، في هاجس الحمار الذي افرد له نبيل سليمان فيما بعد عملاً كاملاً هو "يوميات الانسان الذهبي".

عبر الاستباق الزمني والاسترجاع يرصد فيها صاحب "مدارات الشرق" شخصيات تتحرك على أرض الواقع في نشاطها وتنقلاتها أكثر منها تصريحات أبطال القنوات الفضائية التي هيمنت على الشاشات محاولة منها صياغة الرأي العام عبر تعبيرهم ما من ثورة ع المسطرة لكي يصادروا الآراء المنتقدة، ولكن هذا لم يمنع نقدها لما جرى ويجري في أماكن مختلفة من البلد، فالقتل الطائفي جريمة وما حدث في جسر الشغور جريمة، كذلك حادثة البيضا في بانياس وكيف يدوس البسطار العسكري على ظهور الشباب وحادث الطفل حمزة الخطيب وكذلك تشريح شخصية العرعور والصوت الطائفي ومحاولات الإخوان الإسلامي السيطرة على الحراك، الهتافات الطائفية التي رُفعت في حمص، ومشهد العنف الطائفي لمسلحين هاجموا باص على طريق جب عباس بحمص وقتلوا إحدى عشر راكباً علويً لينتقم الموالون ويقتلوا في كفر لاها إحدى عشر عاملاً سنياً، لينفلت العنف الطائفي في أحياء حمص ولتبدأ موجة اغتيالات لشخصيات علمية وصوت الثورة الطائفية تعالت على الثورة الوطنية في رؤية توثيقية لما سارت عليه الأمور، فهذه الثورة تتحول إلى معارك وحروب متخمة بالدين والايدلوجية والعصبيات، تقليدية في أيدولوجيتها ولكن ذلك لم يمنع من استخدام التكنولوجيا الرقمية وعملية انتقالها للعسكرة ساهم في المزيد من الكوارث والموت.

ويلاحق سليمان ما آلت إليه الديكتاتورية؛ ديكتاتورية الحكم الفردي الذي يطيح بكل شيء بالعباد والبلاد لدرجة أغرقت البلاد بالدم، ولم يَعدْ معروفاً مَنْ الثائر ومَنْ المجرم ضمن آلة إعلامية تُظهر من تريد وتُخفي من تريد، أيضاً في تعويم الحراك الذي سيطر عليه الإسلام السياسي وامتد ليسيطر على كامل الحركة.

تطغى المباشرة التي لابد منها لواقعية مرجعية الأحداث فيظهر في نصه إعلان دمشق والتفاؤل الذي عم البلاد بما سمي ربيع دمشق وما جرى بعده من انكفاء عن الوعود مما هيأ المناخ لانفلات الاحتجاجات في كل مكان، وكذلك حضور المسلسل "ما ملكت أيمانكن" وطلب الشيخ البوطي إيقافه معللاً بأنه سبب الجفاف الذي تمر به البلاد كإشارة للتجهيل الذي يمارس على العامة.

نص جداريات الشام "نمنوما" يتلاعب بالقارئ فما أن يمضي في أجواء الخيال والرومانسية حتى يعيده الكاتب إلى واقعية الأحداث الماثلة في الذاكرة القريبة والتي عايشها السوريين في مختلف

مدنهم في تأكيد منه على التصاق الكاتب بقضايا بلاده ورؤيته الموضوعية لما جرى ويجري كخلفية استند إليها وجسدها في فحوى إبداعي في نصوصه المتجددة ونتاجه الغزير الثري.

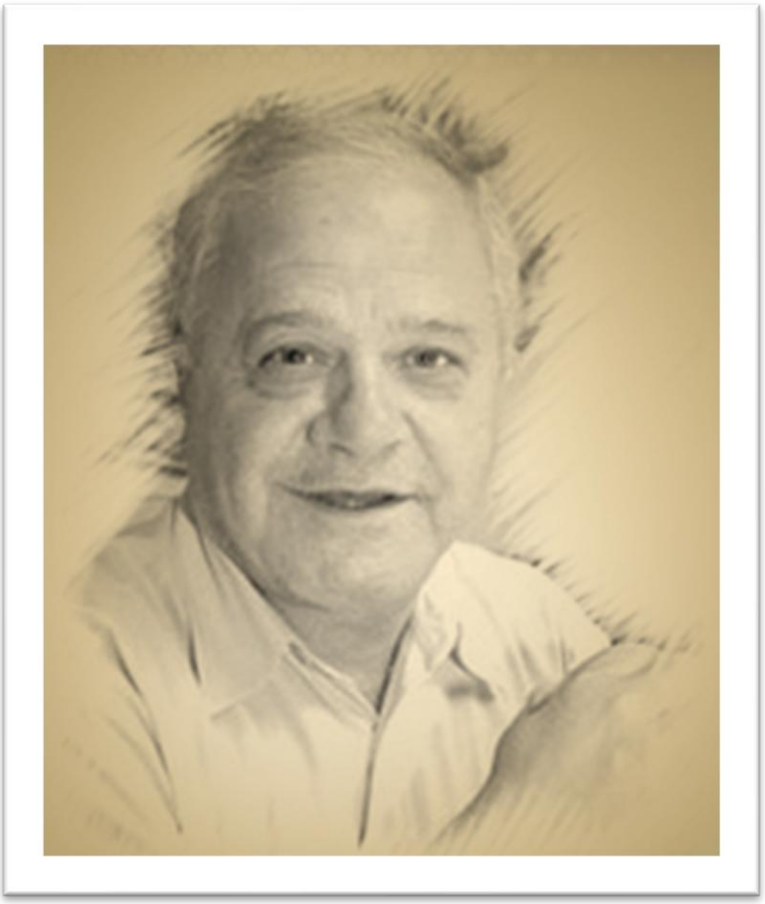

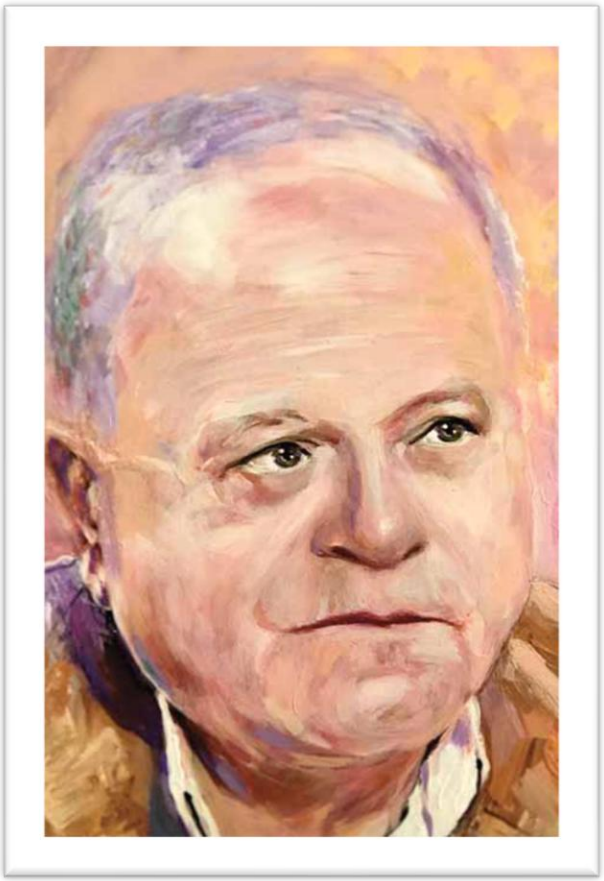

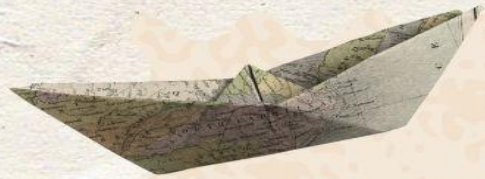

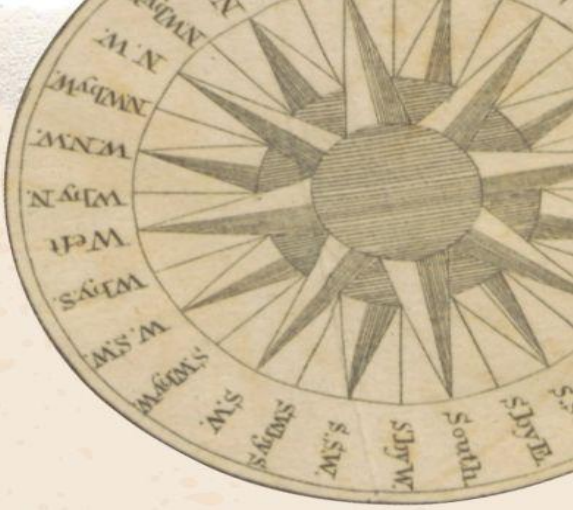

أوراق الحوار

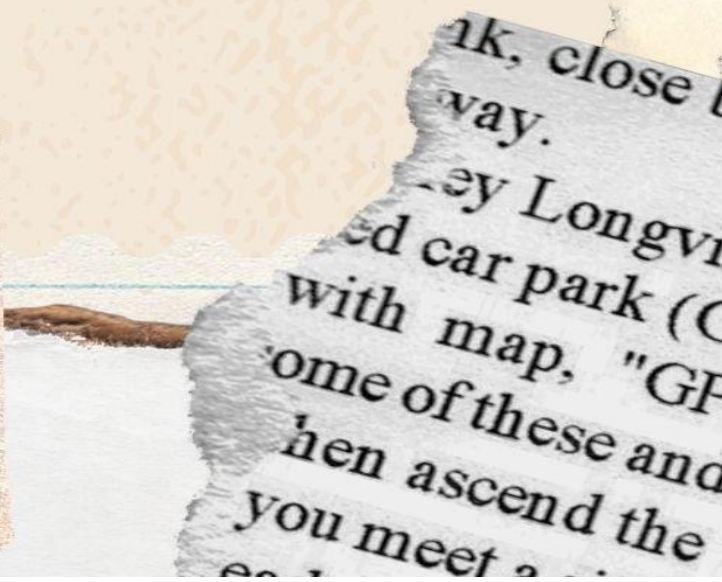

تقديم وحوار عبير خديجة
شاعرة سورية وناشطة في قضايا المرأة

عبد الله الفاضل من السجن إلى الحرية

مسيرة حياة تبحث عن المعنى والهدف دائماً

"الحرية هي أن تفكري في كل ما يخطر في بالك، وأن تمتلكي الجرأة على التعبير عنه دون خوف من الآخرين ودون خوف من الذات. أما ممارسة الحرية فمرتبطة بشروط تحققها"

من الأب الى الرب.. امتلأت الأساطير والتاريخ بقصص عن الصراعات التي تبدأ بصراع الإنسان مع نفسه لتنتهي، أو لا تنتهي بالصراعات الخارجية. وعلى مرّ العصور، فاضت الحياة بالأبطال وصناع التاريخ، مثلما فاضت بالطغاة والديكتاتوريين، وتعددت أنواع التعذيب وأدواته وأساليبه وتلوّنت. كل ذلك في صراع فرض الإرادات. ولم يكف علم النفس عن البحث والتحليل ودراسة الإنسان والمجتمع، كما تنوعت مواقف الأشخاص؛ فمنهم المؤمن بالدفاع عن حريته والقتال من أجلها حتى الموت، ومنهم المستسلم لما هو فيه، وما بين الحالين بحر من المواقف. والسؤال: لماذا يعدّ كثيرون الحرية هدفاً منشوداً، بينما يراها آخرون تهديداً لهم؟ يقول فرويد: في طبيعة الإنسان قوى لا عقلانية ولاشعورية تحدد أجزاء السلوك الإنساني. ولا شيء كالمعتقلات نتوجه إليها لنتعرف على الإنسان في الجحيم.

يقول الرومي: كلّ واحد منا عبارة عن عمل فني غير مكتمل. ويقول ضيف حواري، عبدالله فاضل: أومن بالإنسان الكلّ الذي يظهر في تجليات عديدة.

وبناء على هذه التعاريف، إذن، الإنسان ليس هو عمله، ولا طائفته، ولا دراسته الأكاديمية، بل هو ما يكتنز في جوهره. فعبدالله، الإنسان، هو ابن الماء والهواء، و ابن البراري، ابن الحرية، قبل أن يكون المترجم، أو الشاعر، أو السياسي، أو المعتقل السابق.

له رحلته الخاصة في الترجمة، كما في الحياة. نصير المرأة التي أخذت ترجمات الكتب التي تتعلق بقضاياها حيّزاً و افراً في عمله، مثل كتاب جيرمين غرير "المرأة المخصية" وكتاب بيتي فريدان "اللغز الأنثوي". إضافة إلى ترجمة عدد لا بأس به من الروايات، أولها رواية جورج أورويل "الخروج إلى الهواء الطلق"، والكتب النظرية الأخرى، مثل كتاب حنا بطاطو "فلاحو سوريا.. أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأناً وسياساتهم"، بالتشارك مع رائد نقشبندي، وآخرها كتاب جويل أولسون "إلغاء الديمقراطية البيضاء". وهو يحمل درجة الإجازة في الاقتصاد والماجستير في الترجمة التحريرية.

***

١- لو أردنا أن نعرف من هو الإنسان في عالم الأضداد، بين الجوهر والمظهر، بينَ الحياة والموت، الخيروالشّر، الإنسان والوحش، بين النعيم والجحيم، إلخ. بصفتهِ أصل الحياة وأُسها، في حوار من إنسان لإنسان، اسمح لي أن أبتدئ رحلتي معك عبدالله فاضل بسؤال: من هو هذا الإنسان -بكل ما تحمله الكلمة من عوالم- الخارِج من حياةٍ داخِل المُعتقل وحياةٍ خارجه؟

لا أعرف إن كان هناك جواب كاف واف، كما أقول دائماً: نحن حصيلة تجاربنا. وأنا شخصياً ينطبق عليّ هذا الكلام كثيراً. معظم ما أنا عليه لم أرثه. لا شك في أن السجن ترك فيّ أثراً كبيراً، وقد لا تكون مبالغة إن قلت: أنا بعد السجن مختلف جداً عني قبل السجن، على الرغم وجود خيط لم ينقطع بينهما. السجن صقلني وأسهم في جعلي ما صرت عليه. كان فرصة للتعلم والتأمل في الذات وفي الآخرين.

ربما لم أدرك ذلك حينها. لكن، في السجن تعيشين نوعاً من الحرية لا تعيشينه في الحياة العادية. لا يمكنك إلا أن تكوني ذاتك.

تبلورت ذاتي في السجن. قبل السجن كان الخوف واعتبارات كثيرة تحكمني.

- من هي هذه الذات داخل المُعتقَل؟ وكيف صاغ المُعتقل بكُل ما فيه من وحشية النَّاس حولك؟

هي ذاتك بلا رتوش ربما. ولكن لا يتجلّى الأمر بالطريقة ذاتها عند الجميع. بعضنا أظهر أجمل ما فيه، وبعضنا أظهر أسوأ ما فيه، وبعضنا كان عادياً وبعضنا فريداً. كان بعضنا واسعاً كالبحر،

بعضنا ضيقا كخرم إبرة. وما من أحد إلا وترك أثرا، وما من أحد إلا وعَبَر. بعضنا حملته أحلامه، وبعضنا كسره يأسه. أما عنّي، أظن أنني كنت واقعياً .. في هذا العالم الضيق، ماذا يجب أن أفعل؟ حاول كل واحد منا الإجابة عن هذا السؤال. كلّ بطريقته. كل شخص عبر التجربة بما يتفق مع ميوله.

٢- يخطر في بالي هُنا سيزيف. هل نستطيع القول: إنَّ تجربة عديمة الإنسانية كهذه لها جانب إيجابي على الإنسان رغم علمنا بأن ليسَ كل شخص سيزيف بالضرورة؟ وإلى أي حد يمكن أن يكون الألم والمُعاناة خالِقين؟

ليس الألم إيجابياً إلا من حيث ما يخلقه فيك من رفض. أما الجانب الآخر من تجربة السجن فكان مفيداً على نحو ما. نعم، من حيث عمق التجربة الإنسانية وخصوصيتها وفرادتها وطول مدتها الزمنية. معرفة الذات والآخرين في شرط استثنائي. هذا لا يتاح لك كل يوم. وليس كل من يمر به يخرج بالنتائج ذاتها. ومرة أخرى، يجب ألا أعمم ما أقول، فالسجن الذي عرفته في التسعينيات يختلف جداً عن السجن بعد ٢٠١١. إذ بلغت الوحشية بعد ٢٠١١، حداً يفوق الوصف والتصور. مع ذلك، تضمنت تجربة السجن في ٢٠١٦ تفاصيل إنسانية رائعة مختلفة عن تجربتي الأولى.

- هل لك أن تحدثنا كيف تحضر التفاصيل الإنسانية؟ كيفَ تُستدعى في تجربة وحشية كهذه؟ كيف لهذهِ الثَّنائية أن تجتمع في المكان والزمان نفسه؟ من يَغلب؟

مثلاً، ذات يوم جاؤوا إلى الزنزانة بشاب صغير من دير الزور، عمره نحو ١٦-١٧ سنة. قصته تُحكى، ولكن ليس الآن. أحسست نحوه بشعور أبوي. أنا لم أكن أستطيع النوم لضيق المكان وقلة الهواء .. ولعدم وجود طريقة أبقي رأسي مرفوعاً في أثناء النوم حتى لا ينسدّ أنفي ولا أستطيع التنفس، فكنت في أثناء النوم أبقى جالساً وأضع رأس ذلك الشاب في حضني حتى ينام. ذات يوم استيقظ وقبّلني على ساقي في المكان الذي يضع رأسه فيه. دمعت عيناي. أحسست أن لسجني معنى.. سُجنت لأسند رأس هذا الشاب في ذلك الظرف الوحشي.

في مرة أخرى، جاؤوا بشاب من نفس المجموعة. أنا لم أكن آكل إلا القليل. أعطيته كل حصتي من الطعام وحين أكلها بكى وقال لي: هذه أول مرة أشبع هنا. هذه أول مرة يعاملني بها أحد كإنسان. هل تصدقين؟ كنت أحكي لهم حكايات. أقرأ لهم ما أحفظ من شعر، وأطلب منهم أن يقرؤوا لي ما يحفظون من آيات قرآنية.

كيف تدخلين شيئاً من الطمأنينة إلى نفس شخص بهذا العمر قد يذهب إلى مصير مجهول في أي لحظة.

- الإنسان إنسان حتى لو خانته الحياة بظروفها والوحش وحشٌ بالفطرة هل تتفق معي بهذا؟

أوافق على أن الوحش وحشٌ بالفطرة، لكن الإنسان ليس إنساناً بالفطرة.. هو طيب بالتربية ووحش بالتربية. ولذا ربما كتبت يوماً: إن الكلب كلب بالفطرة، والذئب ذئب بالفطرة، وكذلك العقرب والأفعى... إلا الإنسان ليس إنساناً بالفطرة وإنما بالتربية.

- هذا كلام خطير. ألا تجد فيهِ مبرراً لمجرمي النظام؟

قد يكون مبرراً لصغار المجرمين، ولكنه ليس كذلك لكبارهم. هم مسؤولون عن تلك التربية. وسؤالك عميق جداً: متى نعدّ الشخص مسؤولاً عما يفعل ومتى لا؟ إذ على الجواب عن هذا السؤال تتوقف كل مسألة العدالة.

٣ - يقول الشَّاعِربلاك: أن نرى عَالماً في حبةِ رمل، وجنَّةً في زهرةٍ بريّة. انطلاقاً من هذهِ الرؤية، أود أن تكون محطتنا هنا عن المرأة والجمال والجنس في المُعتقل، فهل الإنسان هو نفسه في كل زمان ومكان وظرف؟

الإنسان نفسه وليس نفسه في الوقت ذاته. أنا على نحو ما استمرار لذات الشخص الذي كنت عليه قبل ثلاثين أو أربعين سنة، ولكني في الوقت نفسه لست الشخص ذاته. الإنسان يتغير بفعل الخبرة والتجارب والثقافة وعوامل كثيرة.

بالتأكيد في السجن وضمن ظروفه يكتسب موضوع المرأة والجمال والجنس بعداً مختلفاً عنه في الحياة الطبيعية. وهذا موضوع يطيب الإسهاب فيه، لكني سأحاول أن أكثف.

لعل أحد أشد جوانب السجن وحشية هو حصر عدد من الأشخاص لفترة زمنية طويلة في عالم أحادي الجنس. حتى الحيوانات حين توضع في مثل هذا الشرط تصبح أكثر عدوانية. السجن ذكورية متوحشة ويسعى السجين مع الوقت إلى كسر ذكورية السجن وتأنيثه على نحو ما. يزرع الورود.. يضع صوراً على الجدران أو على الباب.. صور نساء.. صور حيوانات أو طيور.. صور مناظر طبيعية.. صور أطفال.. حتى أن أحد الأصدقاء وضع صورة حمار. أظن حتى حين يداعب السجين جسده فإنه، على نحو ما، يبحث عن الأنثوي فيه. وحين يمارس العادة السرية (صاروا يسمونها إمتاع الذات)، صحيح أنه يفرغ طاقته الجنسية الطبيعية، ولكنه في فعله ذاك يستحضر أنثاه.. أنثى ما.. الأنثى التي أحبها في الخارج.. أو التي جذبته ذات يوم، أو التي تظهر له على صفحة مجلة أو جريدة، أو يسمع صوتها في المذياع.. يفتح باب خياله على مصراعيه.. الصوت.. الرائحة.. اللمس.. أظن أن تلك الممارسة التي تتم بالأصابع، تجري على نحو أشد ضراوة في الخيال.

- يختلف نيتشه وماركس في نظرتهما للأخلاق. فيقول نيتشه: الأخلاق صنعها الضعفاء ليحدّوا بها من سيطرة الأقوياء. بينما يقول ماركس: الأخلاق ابتكرها الأقوياء ليسيطروا بها على الضعفاء. نحن نتنفس في هواء طلق. وقد تجاوزنا التابوهات أو خرقناها. هل لديك خوف من السلطة. وقد قلنا إنها من الأب إلى الرب. سلطة المجتمع تحديداً؟ ولا تنس أن محاورتك امرأة.

أنا أميل إلى ماركس. وأظن أن البشر لديهم تصورات مختلفة عن الأخلاق. كل شخص، أو كل جماعة بشرية، يخلق لنفسه منظومة أخلاقية تتوافق مع مصالحه وأفكاره وطريقته في الحياة. بعض المنظومات الأخلاقية مخيفة لأنها تتحول إلى قيد أو سيف مسلّط على رقاب البشر. في مجتمعنا يقولون: "اليد التي لا تستطيع عضّها، بوسها وادع عليها بالكسر"، هذه تعكس أخلاق النفاق وازدواجية السلوك. "حط راسك بين الرؤوس، وقل يا قطّاع الرؤوس"، هذه تعكس أخلاقية القطيع. "عسكري دبّر راسك"، تعكس أخلاق الأنانية والفهلوية. وهناك كم هائل من الأمثال التي تعكس أخلاقاً معينة. السلطات جميعها، السياسية والاجتماعية والدينية، تحاول تكريس أخلاقها الخاصة لأنها بذلك تسعى إلى تأبيد نفسها.

بلى، كل سلطة مخيفة، إلى هذه الدرجة أو تلك، إذ حين تخفق السلطة في فرض أخلاقها وأفكارها وأساليبها بالطرق العادية، أو لنقل بالترغيب، تلجأ إلى الترهيب، ولديها من أساليب الترهيب ما يكفي لتخيف البشر. بعد فترات طويلة من الاستبداد وكبت الحريات، يسود المجتمع نوع من الأخلاق المنافقة. وهذا النفاق مخيف فعلاً، لأنه يقسو على الضعيف أو المخالف أو صاحب الرأي، وينبطح أمام القوي أو صاحب السلطة، وينقل الأخلاق من ميدان الفعل والممارسة اليومية والسياسة إلى ميدان الجنس. فيصبح أي كلام في الجنس عيباً أو محرماً، حتى لو كانت الغاية منه التثقيف والتوعية، أو التعامل مع أمور الجسد كما هي دون كذب أو لفّ ودوران، وتصبح ممارساتٌ، كالفساد والرشوة وشراء الذمم وكتابة التقارير والتهرب من أداء الواجب والتملّق والغش في العمل والدراسة، قيماً سائدة. في هذا، أنا لا أخاف المجتمع؛ لا بدّ لنا من بعض الجرأة والمبادرة إن أردنا أن نحدث فرقاً.

يتحدث أبو علي ياسين عن الثالوث المحرّم: الدين والجنس والسياسة. ويبدو أن كل سلطة تحاول ضبط سلوك البشر وأفكارهم في كل ما يخص هذا الثالوث. وفي الحقيقة، في هذه الأمور الثلاثة تتجسّد أكبر ممارسة للنفاق. ومن الطبيعي، أن محاولات البشر للتحرر من تلك السلطات تمحورت حول هذا الثالوث.

- يرى بعض الفلاسفة أنَّ الكتابة أمان، أو كما قال موريس: الكتابة هي الفاجعة. الكتابة، ككل الفنون عمل إبداعي. النَّاس كانت تكتب على جُدران السُّجون مثلما يبدعون في إيجاد طرق للتواصل فيما بينهم، أيضاً كانت لهم أعمالهم اليدوية. ماذا عن الإبداع في المُعتقل من المُحتَّم أنه يختلف عن الإبداع خارجه. ماذا عن المُبدعين في الظَّرف الوحشي، وما أثر الإبداع في الإنسان هناك؟ هل مارست إبداعاً ما، هل ملَكتَ الأدوات؟

لا أظن أنني كنت من المبدعين. لكن كان هناك مبدعون.. فنانون وشعراء وكتاب قصة.. ومبدعو أشياء عملية لتسهيل الحياة اليومية. ربما كنت حالةً وسط في هذا المجال. صنعت بعض المصنوعات اليدوية، ولكن لم أكن مبدعاً.. كتبت بعض الشعر وأيضاً لم يكن إبداعياً.. نظّمت

حياتي ووقتي على نحو يخفف قدر الإمكان من وطأة السجن وقد يأتي ببعض الفائدة. ربما كنت في تلك الفترة أختزن الأشياء التي ستتخمر وتظهر فيما بعد. هل في الحيل الصغيرة التي يخترعها الإنسان من أجل بقائه إبداعٌ؟ ربما.

٤_ العقل، والحرية، والوعي الذاتي، جميعها مسميات لاشتراط واحد: لمخلوق لا يفكر فحسب و إنما يتساءل. ما هي أكبر وأهم التساؤلات التي واجهتك في المُعتقل وبعده؟ ما نوع التساؤلات التي كانت تخطر في بال رفاقك في التجربة، وطبيعتها وتوجهاتها، إن كنت تعلمها؟

أقول لك الحق، لم أطرح على نفسي كثيراً من التساؤلات العميقة. ربما كان ذلك هرباً من ضغط ظروف السجن. انشغلت أكثر بقضايا عملية.. تعلم اللغة.. القراءة.. الرياضة.. الأعمال اليدوية .. إلخ. ولكن أزعم أنني كنت أتأمل.. أتأمل كثيراً في مصائر البشر الذين تعرفت إليهم هناك.. وفي مصيري أنا.. ما الذي يتغير بي. قرأت كثيراً في مجالات لم تكن لدي عنها أدنى فكرة. عرفت أفكاراً جديدة وقرأت كتباً تأخذك إلى عوالم إبداعية لم تعرفها من قبل.

أستطيع أن أتحدث عمّا شكّل أكبر ضغط علي: الزيارة.. الذين يحملون عبء الزيارة.. زوجتي (ولم نكن حينها متزوجين) التي تعيش الحياة، وتتحمل الأعباء والضغوط المختلفة، والزمن طويل، ولا أحد يرحم.

- ميلان كونديرا يقول في أحد كتبه: النكتة مثل قبعة شخص تقع على التابوت في قبرٍ قد حُفِرَ للتو. تفقد الجنازة معناها ويولد الضَّحك. الضحك في أشد الظروف مأساوية هل يكون فعلاً رد فعل طبيعي في المعتقل؟ هل كانت الطرفة طريقة في النسيان؟ ماذا عن طريقة التواصل البشري هذه في المُعتقل؟

بالتأكيد الطرفة هي شكل من أشكال مقاومة السجين لشروطه السيئة. وذلك يتضمن تحويل حتى المواقف الصعبة إلى طرائف أو اختراع طرائف. كل تفصيل مهما بدا قاسياً أو صغيراً أو كبيراً يمكن أن يتحول إلى موضوع طرفة. الطريقة التي ارتبك بها هذا الشخص في الموقف الفلاني. مواقف كثيرة لو بدأت أتحدث عنها لاحتاج الأمر إلى صفحات. يصفع السجان أو الجلاد أو المحقق رفيقك صفعة تلقي به على بعد أمتار، وحين يحكي لك القصة تضحكان:

- العمى بعيونه ضربني كف طيّر الشرر من عيوني!
- إي والله صحيح! وأنا استغليت الفرصة وأشعلت سيجارتي من ذلك الشرر!

- يقول الإمام عليْ: وتحسبُ أنَّكَ جرمٌ صغيرٌوفيكَ انطوى العالم الأكبر.

في ظروف لا إنسانية تنتفي فيها العدالة والحق، قد يكون الإنسان على الحافة بين الكفر والإيمان، فقد يكفر المؤمن ويؤمن الكافر. الدين.. الله.. الإيمان.. أين موقعها منك في المعتقل؟ هل كان الله يحضر؟ ومتى؟ وهل يحضر الله عند السجين كما عند العاشق أو الشاعر؟ موقع العقل والروح والجسد من الحرية؟

نعم، أكيد، هذا سؤال كبير. لا يمكن أن تحصلي على جواب واحد من الجميع. أنا في السجن تصالحت مع فكرة الله. لم يعد يهمني الجانب الديني منها، بل ذلك البعد الروحي الذي قد يلجأ المرء إليه دون التفكير بالبعد الفلسفي للأمر. لا أؤمن بالكثير من الأفكار والصفات التي ينسبها المتدينون لله. في السجن تعرفت إلى الله كما عرفه كازانتزاكيس: "*سألت شجرة اللوز عن الله، فأزهرت شجرة اللوز*". ويصوغ مظفر النوّاب الأمر بكلماته الخاصة: "***تعالَ لبستان السرّ، أريكَ الربّ على أصغر برعم وردٍ، يتضوع من قدميه الطيب. قدماه ملوثتان بشوق ركوب الخيل، وتاء التأنيث على خفيه تذوب***".

هذه صورة لله مختلفة عن صورته المخيفة التي تصوره يعاقب الناس ويحرقهم بالنار. والحق أن المصالحة الأكبر جاءت مع قراءة إريك فروم. يرى فروم أنك إذا وضعت السؤال الفلسفي الأول الذي يختلف حوله المادي والمؤمن عن أصل الكون جانباً، فستري كثيراً من النقاط التي يمكن أن يلتقي فيها أصحاب الأديان الكبرى، بما فيها الأديان غير السماوية، والفلسفات الكبرى التي يجمعها حب الإنسان وتكريمه والسعي لخلق عالم كريم له. تعرفين جملة ماركس الشهيرة: "***الدين أفيون الشعوب***". هذه أكثر جملة أسيء فهمها واستخدامها. فجملة ماركس تعني أن الإنسان حين تشتد عليه الآلام يحتاج إلى ما يسكّن آلامه. والدين هو هذا المسكّن حين تشتد عليه المصائب والآلام في المجتمع، وهو ما تشرحه بقية جملة ماركس: "***الدين زفرة الإنسان المسحوق. روح عالم لا قلب له. كما أنه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح***".

لو أردت ترجمة جملة ماركس في السياق السوري، لقلت إن أصدق تعبير عنها هو ما صار الناس يرددونه بعد:2011 يا الله ما لنا غيرك يا الله!

وقد رأيت تجسيد ذلك في السجن الثاني. حين التقيت بأشخاص بسطاء، وأحياناً صغار العمر. اعتقلوا ووضعوا في السجن وتعرضوا لتعذيب شديد. كيف لهم أن يحتملوا كل ذلك، وهم عراة من كل وسيلة مقاومة، لولا الله؟ لا معنى في ظرف كذاك لنقاش الدين علمياً.. يحتاج المرء إلى ما يسند روحه، والبعض يجد لنفسه عزاء في الدين. وأنا وجدت سنداً لروحي في الشعر. أكثر قصيدة سندت روحي هي قصيدة نزيه أبو عفش "الله قريب من قلبي"، وبيتا أبي فراس الحمداني:

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

تكاد تضيء الناربين جوانحي إذا هي أذكتها الصبابة والفكر.

- ما هي المسافة بين الإنسان والوحش؟

مسافة قصيرة جداً. من السهل أن ينقلب الإنسان وحشاً، وقد أثبتت كل الحوادث الكبرى ذلك، من النازية والفاشية إلى الأنظمة الديكتاتورية المتوحشة في أمريكا اللاتينية وصولاً إلى جلادي صيدنايا وأقبية المخابرات. وقد رأيت ذلك بأم عيني؛ شباب في مقتبل العمر يتحوّلون إلى جلادين

وقتلة وساديين مستعدين لتعذيبك وإهانتك بوحشية لسبب تافه، وأحياناً بلا سبب. كثيراً ما كنت أتساءل: كيف يعود هؤلاء المتوحشون إلى أهلهم؟ إلى أمهاتهم؟

٥- للعَودةِ أشكال كثيرة قد تكون عودة الانسان إلى وطنه، إلى بلده من غربته، من أحلامه، أو إلى طفولته. ماذا تعني لك عودة مُعتقَل سابق إلى سجن صيدنايا، ولكنه حراً هذه المرة؟ لماذا يعود شخص مثلك إلى ما سُميَّ مَسلخ بشري؟

في الحقيقة لم يكن سجن صيدنايا في ذلك الوقت مثلما صار عليه بعد ٢٠١١. مع ذلك يستحق الأمر التفكير.

ربما هي عودة إلى المكان الذي شهد أكبر أحلام، وبُنيت فيه أعمق العلاقات. هو المكان الذي أثبت الإنسان فيه أنه يستطيع أن يؤنسن الوحش ويؤنّث بلادة الحديد والاسمنت. وربما هي عودة رمزية تشهد أن هذا الرمز الأبرز للديكتاتورية هو مثلها هيكل خاو قبيح ينبغي أن يبقى شاهداً على ما ينبغي ألا يعود. وربما هي رغبة دفينة في السير مرة أخرى على درب الآلام.. تماماً مثلما قد يرغب المسيحي في السير على الدرب الذي ساره المسيح إلى الصليب.

٦- أريد أن أذهب قليلاً إلى الإنسان بين التقديس والتدنيس، بين المقدس والمدنس. في بيئة لا تليق بإنسان تُفرض عليه بوحشيه من قبل مجرمين يقدسون إلههم الخاص. ونعرف ميول الإنسان الطبيعية ونزوعه باتجاه الطاهر النقي حتى في انتقاء أنثاه. كيف يحمي الإنسان نفسه من التدنيس وكل شيء حوله مُدنِّس؟ من هو الإنسان بين هذا وذاك؟

دعيني لا أدخل في فكرة المقدس والمدنس على النحو الذي تصوره الأديان ولا على النحو الذي تمارسه الأنظمة السياسية القمعية التي تقدّس زعماءها وتدنّس خصومها، وأنقل الأمر كله إلى خانة الإنسان الطبيعي. ينبغي أن نرفع كل ما يخص كرامة الإنسان الجسدية والروحية وحريته إلى درجة القداسة التي لا يحق لأحد انتهاكها. ونضع في خانة الدنس، الذي يرقى إلى درجة الجريمة، كل ما ينتهك تلك الكرامة والحرية. تربط بعض الثقافات بين الدنس وتلبية الإنسان لبعض حاجاته الغريزية، وهذا، فيما أظن، أسوأ مفهوم عن الدنس، ولا علاقة له بالطهارة.

لعل إحدى الأفكار ذات الصلة بالمقدس والمدنس هي فكرة العيب .والذي يرتبط في ثقافتنا، وفي جانب كبير منه بالجسد، ولا سيما جسد المرأة، حتى لو كانت طفلة. وتسمعين تعليقات مثل: "لا تحطّي رجل فوق رجل ..عيب!" أو "لا تظهري هذا الجزء من جسمك ..عيب!" أو "لا تجلسي متباعدة الساقين ..عيب!" هكذا يرتبط العيب بالجسد، وتخيلي البنت التي تكبر مثقلةً بوطأة الإحساس بالعيب، لا لشيء إلا لأن جسدها جسد أنثى.

وبما أن الحديث كله في سياق حديثنا عن السجن، دعيني أتحدث عن أحد تجليات الدنس في السجن .في سجني الأخير، كان معظم شركاء الزنزانة في سن الشباب. وفي شروط لا تتوفر فيها أدنى أسباب النظافة. وكان يحدث أن يحتلم أحدهم في أثناء النوم ويستيقظ جنباً. والجنابة عند المسلم

نجاسة يجب التطهر منها. وكيف له أن يتطهر في تلك الشروط؟ مستحيل .كنت أرى الضيق والكرب الذي يصيبهم. طبعاً في الاحتلام شيء من الوسخ، ولكن حين يرقى في ذهن المتدين إلى درجة النجاسة يسبب له تعاسة حقيقية. وطبعاً كان من العبث أن تشرحي للشخص أن جسده يستجيب لإملاءات الطبيعة لا لإملاءات قواعد الطهارة والنجاسة.

أما من هو الإنسان بين هذا وذاك، فهو الذي يقول للوحش: تهزمني حين تجعلني مثلك، ولن تنجح. قداسة الإنسان ودنسه ليسا في جسده، بل في أفعاله، وربما أفكاره.

٧- تقول الأسطورة إن زُحَل أكل أبناءه، كيف هي علاقتكَ بزحل إذا ما افترضنا أنَّك أحد أبنائه الناجين الذينَ أطفأوه؟ وإذا عرجنا على بعض المفاهيم، كالنَّصر والهزيمة؛ لقد فرضَ الو اقِع علينا صورة معينة واحدة للسَّجان والمُعتَقل، لكني أظن أن ثمَّة صورة أخرى أريد رؤيتها بصوتكَ كحقيقة صارخة. أريد معرفة شكل علاقتك بالسَّجان مع الكم الهائل لاختلاف المفاهيم بينكما؟ أينَ أنتَ اليوم من الغُفران؟

لطالما كنت متمرداً على آليات وممارسات السلطة البطريركية بكل مؤسساتها، من العائلة إلى الدين إلى السلطة السياسية، وفعلت دائماً ما أردت فعله متحرراً من سلطة زُحل، وربما مجابهاً لها. بهذا المعنى أستطيع القول: نعم لقد كنت أحد الناجين من فكيه.

أيصح أن نقول إن السجان هو إنسان وضعته ظروف معينة في المكان الذي هو فيه ليقوم بالوظيفة التي هو فيها؟ ربما لو نظرنا إليه على هذا النحو لأمكننا التحرر من كراهيتنا له أو حقدنا الشخصي عليه، وركّزنا أكثر على وظيفته وآلية إنتاجه ضمن منظومة قمع وحشية. مع ذلك، لم يكن السجانون نسخة واحدة. بالتأكيد كان بعضهم وحشاً، ولكن البعض الآخر لم يكن كذلك. من تجربتي، أستطيع التحدث عن ثلاثة أنواع من السجانين. النوع الأول، يعتبرك عدوّه الشخصي، هو لا يفهم سياسة، ولا قانون، ولا شيء، يتماهى مع الديكتاتور، ويرفعه إلى مستوى الإله، فتكون معارضة الديكتاتور معارضةً للإله، وهو خادم الإله الوفي. هؤلاء هم أسوأ أنواع السجانين، جلادين، قساة قلوب لا يعرفون الرحمة في تعذيب المعتقل وإهانته، ولا يتورعون عن سرقة أبسط الأشياء منه. النوع الثاني، هو من يمكن أن نسميه السجّان الوظيفي. هو شخص يقوم بوظيفته دون أن يعتبرها قضيته. لا يكرهك، لا يضربك إلا بأمر من رئيسه، لا يهينك، لا يسرق طعامك، حين يحين موعد الطعام يدخل لك طعامك، وحين يحين موعد الحمام يأخذك إلى الحمام... إلخ. النوع الثالث، هو السجان المتعاطف، وهذا سجانٌ بطلٌ لا يقل بطولة عن المعتقل، لأن تعاطفه قد يودي به إلى السجن مثلك. هو سجان يحتال ليعطيك حصة أكبر من الطعام، يغامر وينقل رسالة منك إلى رفيقك في زنزانة أخرى أو إلى أهلك، يفتح باب زنزانتك ليلاً ويعطيك موزة، ويقفل الباب قبل حتى أن تفكري في أن تشكريه (حدث ذلك معي شخصياً، وإذا تمكنت من الوصول إلى ذلك السجان يوماً

فسأقبله بين عينيه: لقد كنتَ بطلاً يا سجّاني!) بعض السجانين صاروا أصدقاء، وحين نلتقيهم نعانقهم كما نعانق أخوتنا ورفاقنا.

قد يبدو ذلك غريباً للبعض، ولكن لنتذكر أن قوانين الخدمة العسكرية في بلدنا قد تأخذ الإنسان إلى أي وظيفة في آلة القمع.

لم أفكر في الأمر مطلقاً من زاوية الغفران. معظم السجانين بشر صغار لا يستحقون أن أكرههم. أن تكرهي شخصاً يعني أنك ترفعين من شأنه، وكأنه ندّ لك. أما المسؤولون عن التعذيب أو القتل، فهؤلاء يجب أن يحاكموا محاكمة عادلة حتى ولو بعد موتهم، ليبقى فعلهم المشين وصمة عار في سجلهم. تماماً مثلما يُعاد الاعتبار لبعض الشخصيات بعد موتها ليبقى سجلهم ناصعاً.

٨- قد تكون الحرية تهديداً حقيقياً للبعض. مع أن الشعوب المضطهدة عبرت بكل ثوراتها عن التوق الكبير للحرية والرغبة بها. لأنها وحدها تحفظ كرامة الإنسان. في كل الدكتاتوريات الهدف الأول هو كسر إرادة الإنسان وسحق كرامته. في العلاقة بين الإنسان والديكتاتور من يصنع من؟ من هو اللاعب الأساسي في قهر الديكتاتوريات وتحقق الحرية؟ ألم يؤكد الإنسان أن إرادته الحرة دائماً هي الأصل -رغم كل الانحرافات- في كسب الحرية؟

الديكتاتورية ليست صنيعة الديكتاتور فقط، إنها منظومة سياسية-اجتماعية-اقتصادية هرمية، وعلى رأس تلك المنظومة يقف الديكتاتور الفرد صاحب السلطة المطلقة. الديكتاتورية لا تولد من العدم، وليس لها ما يمكن أن نسميه نقطة الصفر. الديكتاتورية عملية تراكمية. لو تحدثنا عن سوريا، لقلت إن الديكتاتورية لم تبدأ مع حافظ الأسد، لها جذور أعمق، ومقومات موروثة. ما فعله الأسد هو أنه استغل تلك المقومات ولعب بها حتى بنى صيغته الخاصة من الديكتاتورية، ثم ورّثها لابنه ليكون النسخة الكاريكاتورية من ديكتاتور كان والده نسخته المأساوية. كثيراً ما يجري التركيز في الأنظمة الديكتاتورية على الفرد الذي يقبع على رأس الهرم: هتلر، ستالين، بينوشيه، صدام حسين، حافظ الأسد، ومن بعده بشار، ويجري إغفال كامل سلسلة الطغيان، سلسلة تبدأ من رأس الهرم حتى أصغر عنصر في الآلة، وقد يكون حارس زنزانتك، أو كاتب تقارير رخيص في حارتك. كل شخص في هذه السلسلة ديكتاتور، متوحش، طاغية في المستوى الذي هو فيه. وأحياناً كلما انخفضت مرتبة الديكتاتور الصغير في السلسلة، ازدادت وحشيته، لكأنه يريد أن يعوّض عن انخفاض مرتبته.

أظن أن اللاعب الأساسي في قهر الديكتاتوريات هو إرادة البشر. في البدء، قد يتجرأ عدد قليل منهم على كسر هيبة الديكتاتور، وقد يسحقهم، ولكن كل طاغية إلى زوال. وبالطبع، يختلف الأمر من بلد إلى آخر. أحياناً تنهار الديكتاتورية بموت الديكتاتور، وأحياناً يكون الثمن دماء كثيرة.

- ما هي الحرية كتجربة إنسانية؟

ألم يشغل هذا السؤال بال الفلاسفة والمفكرين والشعراء والفنانين والحالمين من كل صنف ونوع؟ أو من أن الحرية نسبية، وتحكمها شروط كثيرة. لو أردت التحدث عنها من وجهة نظر التجربة الإنسانية، لقلت الحرية هي في أن تفكري في كل ما يخطر في بالك، وأن تمتلكي الجرأة على التعبير عنه دون خوف من الآخرين ودون خوف من الذات. أما ممارسة الحرية فمرتبطة بشروط تحققها. قد يكون ما كتبه كازانتزاكيس بعض أجمل ما كُتب عن الحرية:

- أنا حرٌّ يا زوربا!

- لا ... لست حراً. كل ما في الأمر أن الحبل المربوط إلى عنقك أطول قليلاً من حبال الآخرين. لديك كل شيء ما عدا شيء واحد.. الجنون. الرجل يحتاج إلى شيء من الجنون وإلا ...

- وإلا؟

- وإلا لن يستطيع أن يتجرأ على قطع الحبل، وأن يصبح حراً.

بعض الناس تسكنهم العبودية من الداخل، ولا يجرؤون حتى على السير بالحبل المربوط إلى أعناقهم إلى أقصاه!

أوراق الترجمة

علي العباسي
ترجمة: إبراهيم محمود

المقدسات والثورات: جوانب من عقيدة الربيع العربي "السلفية والطوباوية والجنسانية"

هل يثور الشباب العربي لأنهم في البداية يتعرضون للقمع الجنسي؟ هذا يكفي لكسر الكهنوت العقلي بأكمله وإزالة الغموض عن الكثير من المواضيع السياسية، والتي يمكن حتى لأكثر الأشخاص اطلاعاً أن يربطوها بظاهرة الثورة!

إن الأفكار والمواقف النمطية تدمج في إقليميتها المترامية الأطراف، حتى أكثر الحركات مقاومة للمقدس، مثل الثورات الخالية من أي أساس ديني. لهذا لا شيء يفلت من التعافي الداخلي " ١ "، لا سيما في الأديان والسياسة والجنس، ووفقًا للفئات العقلية والنفسية مثل:

المقدس/المدنس، والتقديس/التدنيس. ولا يوجد أي برهان جوهري ضروري لإدراك أن الثورات العربية، على سبيل المثال، ولدت دنيوية تمامًا...

وقد جرى التنازع عليها بشكل متزايد من قبل إغراءين متعارضين (علمانيين ولاهوتيين)، متطابقين بالقدر نفسه، بقدر ما يجري التنازع عليها من قبل الأفراد والجماعات، الواعيين وغير الواعيين، ولكل طرف مميّزاته الخاصة، جهة العقائد والبرامج والموضوعات والاستراتيجيات والأتباع وقادة الفكر. وستقتصر ملاحظاتي على دراسة ما يفسح المجال، في الربيع العربي، لهذه القراءة التي تتسم بالتناقض بين الحقائق والخطابات المقدسة وفقاً للعقيدة الثورية، من ناحية، وبين حقيقتها الكامنة من ناحية أخرى. موضوع (ديني، سياسي، وجنسي)، متفق عليه أو مشوَّه، كما يمليه المنطق العنيد للعادات.

الدوغمائية والثورة

ويبدو أن هذه المقدمة تضع على قدم المساواة ما نسمّيه اليوم بالسلفية، والتدين المعتدل والعلمانية، وهي الجوانب الأساسية التي تشكل تاريخ الربيع العربي. ويجب أن نلاحظ منذ البداية أنه في ضوء الدروس التي ورثها لنا التاريخ القديم والمعاصر، فإن جميع الدوغمائية، سواء كانت دينية أو غير دينية، لا تختلف لا في عملياتها الناشطة، ولا في أهدافها العالمية، ولا في البديهيات النهائية الأساسية، حيث تلعب الأفكار المسبقة دورًا حاسمًا. وبالنسبة للتشيّع الإسلامي، كما الحال بالنسبة للألفية المسيحية المنقذة" الألفية " le messianisme chrétien، أو الستالينية أو النازية، فإن الأمر يتعلق بتسوية المجتمع وثقافته من خلال تهذيب، بكل الوسائل، لتلك التقلبات التي تتعدى النظام القائم المنشود، بهدف إنشاء نظام موحد، فريد ومتميز. النموذج الشامل " ٢ ".

ولا بد في هذا الصدد من صياغة فكرتين رئيستين لتحليل دوغمائية الثورات العربية، وتوجيه الممارسات الناشطة، في إطار المرحلة الانتقالية التي تمر بها البلدان المتضررة من الربيع. الأولى، هي أن المحور الجغرافي الذي تأثرَ حتى الآن بهذه الحركة، من الرباط إلى صنعاء، عبر تونس وطرابلس والقاهرة، يتعافى ببطء، وإنما بثبات من قبل التيار الديني المحافظ الأكثر شيوعًا، في حين أن الانتفاضات في الأساس لم يكن بها أي شيء متوافق بشكل واضح. وكانت موجهة على وجه التحديد ضد الأفكار السائدة والمحافظة السياسية والأخلاق الثابتة. هذا هو الحجاب الأول الذي تكشفه الحقائق، حيث، على الرغم من التراجع المعين في النزعة الانتصارية الدينية" ٣ "، والتي لوحظت منذ بعض الوقت، أصبحت الثورة عقائدية ولم تعد تحتوي على أي شيء ثوري. والثانية، هي أنه بمجرد إنجاز لاهوت السلطة السياسية على حساب العلمنة، فإن الصراع سينتقل بالضرورة إلى قلب الأنظمة اللاهوتية، والتي سينشأ منها المزيد من الصراعات العقائدية والمتعطشة للدماء. إن المنافسة العسكرية والإيديولوجية الحالية بين تنظيم داعش (الدولة الإسلامية) وتنظيم القاعدة، الغارقيْن بشكل متزايد في النزعة المحافظة والظلامية، تثبت ذلك بوضوح، مما أثار استياء ثوار الربيع العربي بشدة.

لذلك، سوف ندرك بسهولة، لماذا، في تونس على سبيل المثال، مهما كانت الانتهاكات التي ترتكب في الشوارع والمساجد ومؤسسات الدولة مثل المدارس والجامعات، من قبل أكثر أنصار المحافظة الدينية تشدداً، أي السلفيين، وأيا كانت خطورة الخطاب التي يبثونه في الفضاء العام، فإن الحكومة، التي تسترشد عن بعد بالنهضة، ومن خلال الحسابات السياسية الأكثر تقليدية فيما يتعلق بالعقيدة، تتبنى مستوى منخفضاً profil bas، أو في الحالات الأكثر فظاعة، تتفاوض على جميع أنواع التنازلات تحت الطاولة sous la table. وأبلغ ما في هذا المعنى أنه على الرغم من التوسع السريع للنشاط السلفي (الاحتلال العنيف للأرض، الانتهاكات الإرهابية)، فإن الحكومات المتعاقبة

منذ ١٤ كانون الثاني ٢٠١١ في تونس، حكومة أ. السيسي في مصر، أن أ.عبدربه في اليمن وغيره من بلدان العالم العربي لازالا مترددين نسبياً، وذلك بسبب المخاطر التي قد يتعرضون لها إذا استفزوا بشكل مباشر النظام الاجتماعي الذي يهيمن عليه الانصياع الديني.

وهكذا، في الشوارع أو في المساجد العربية، يمكن للسلفيين أن يضطهدوا الشباب المتهمين بالملابس والسلوك الفاحش، ويهاجموا المبدعين والصحفيين أو العلماء المعتدلين، الذين يعامَلون كملحدين إن لم يكونوا مرتدين (حالة عبد الفتاح مورو" ٤ " في تونس تقول الكثير)، وينشرون الفوضى. وفي الجامعات الأدبية والإنسانية، التي تعتبر مرتعاً للثقافة المتناقضة والعلمانية والإلحادية " ٥ "، بل وتصدر فتاوى دموية ضد المعارضين، كما فعل القرضاوي في قطر والنائب شورو التونسي تحت قبة المؤتمر الوطني الأفريقي. ولا يبدو أن أياً من هذا يبرر اتخاذ إجراءات تأديبية فورية لا لبس فيها، أو حتى إعلان المبادئ من جانب السلطات السياسية. أما النواب التونسيون، الذين من المفترض أن يكونوا نخبة فكرية تتمتع بسلطة اتخاذ القرار، فقد تعرضوا هم أنفسهم (الأغلبية الإسلامية مرغمة) للترهيب والشلل من قبل المعتقدات الدينية المتطرفة " ٦ "، التي لم يتمكن حزب النهضة، حزب الأغلبية، من الانفصال عنها.

ولذلك يجب أن نؤمن أنه مهما كانت الحكومة القائمة في البلاد العربية، فإنها ستستغني عن السلفيين وستظل كذلك لفترة طويلة، ليس فقط للضرورة الإيديولوجية أو للحسابات الانتخابية، ولكن أيضا من خلال التكتيك المناسب للمحافظة بشكل عام وللمحافظة بشكل عام. والعقيدة الدينية على وجه الخصوص. نحن نستخدم السلفيين كفزاعة، ونتلاعب بهم حتى لا ننفر حلفائهم المحافظين والأقوياء للغاية في العالم العربي (مصر والمملكة العربية السعودية وقطر، قبل كل شيء)، ونسمح لهم بالظهور بشكل واضح لفهم الوضع الهائل بشكل أفضل. خصم الغد. أعتقد أن هذا هو ما يجب أن نتذكره دائمًا، لنعرف بشكل أفضل كيفية تحديد موقع الصراع الحالي بين العلمانيين والدينيين، ورياح التغيير والعقيدة، إذا كنا نفضل تحصين الثورة بشكل أفضل ضد موجة المد الأسطورية. وثيوصوفية، تتعارض مع قيم التقدم ومعاني التاريخ ذاتها التي طالب بها شهداء وأبناء «المقدسين» ١٤ كانون الثاني (تونس)، أو ٢٥ كانون الثاني (مصر)، أو ١٧ شباط (ليبيا). وإذا نظرنا الآن إلى ولادة وتطور الربيع العربي بنفس الشك المنهجي، فسنصل إلى استنتاجات مماثلة.

نشأة ثورية وهمية؟

تاريخياً، كانت كل المذاهب، سواء كانت مقدسة أو دنيوية، مبنية على المحرمات والأفكار المسبقة، والتي كان انتهاكها يعاقَب بشكل منهجي. وأدانت المسيحية الأشخاص غير المرغوب فيه (les brebis galeuses) بالخازوق ومارست الحرمان الكنسي، بما في ذلك ضد الملوك والأباطرة. إن غزو الإسلام حكم على مرتديه بأشد العقوبات. لقد لعبت الثورة الفرنسية، لسنوات عديدة، لعبة

المقصلة، حتى بالنسبة للإدانات البسيطة المشكوك فيها. إن تاريخ الثورة البلشفية ملطخ إلى الأبد بقسوة الستالينية والذكرى الحزينة لمعسكرات العمل. لا يمكننا أن نتذكر بما فيه الكفاية المصير المخصص للخوارج أو البروتستانت.

وكان على المشاهير أن يواجهوا كل أنواع الإملاءات: أنتيغون، وجان دارك، ولوثر، وغاليليه، وكالاس، ودانتون، وفرج فوده، وسلمان رشدي، و... سولجينتسين، على سبيل المثال لا الحصر من أشهر المشاهير. وبغضّ النظر عن شرعية أو عدم شرعية معارضتهم، فإن كل هؤلاء المنتقدين لعقيدة معينة، قد تجرأوا على ممارسة شكل من أشكال الفحص المجاني، وكثيرًا ما دفعوا ثمنًا باهظًا مقابل ذلك. هذا هو كثيب النمل الذي يغمس فيه المعلق (الذي، علاوة على ذلك، لا يستحق أن يقارن نفسه بغاليليه أو سولجينتسين) قلمه، إذا ادعى أنه لا يخضع لقراءة تحريفية سوى الأصل التقليدي لما يسمى منذ ذلك الحين "أكثر" من أربع سنوات: الربيع العربي. نحن نعلم، بالنسبة لعامة الناس كما للعديد من المراقبين بحسن نية (أو بسوء أحيانا)، أن حركة الاحتجاج العربية، التي بدأت في تونس بين ١٧ كانون الأول ٢٠١٠ و١٤ كانون الثاني ٢٠١١، اجتاحت مثل موجة محيطية غير عادية فوق العالم. بقية العالم العربي، وحتى في أماكن أخرى، ستكون عفوية تمامًا (حتى لو تم اختيارها بشكل مخزي من قبل الشخصيات الرمادية للقوى العظمى). ولن تخضع، في التحليل النهائي، إلا للمنطق الداخلي لأشياء مثل الديالكتيك التاريخي الماركسي: ينتهي السخط الشعبي إلى الانفجار يومًا أو آخر ضد التيار المحافظ والانتقام من مواكب خيبات الأمل الاجتماعية.

من هذه العقيدة حول نشأة الربيع العربي، يتبع، بوضوح، عقيدة كاملة حيث توفر الأفكار المتلقاة ("الأصالة"، "التهور"، "النشاط"...، "أعمال الشغب") الأساس للخطاب والبلاغة والأدب باختصار ، وفيرة وعنيدة، تتنبأ بقدوم الديمقراطية وتأليهها. وعلى هذا الأدب، الذي ارتقى إلى مرتبة الطبيعية والبديهية، يرتكز الآن تفسير سياسي ثابت وراهن، بموجبه ينتهي الأمر بالناس إلى استعادة كرامتهم وتأكيد أنفسهم في مواجهة العالم وطغاته. أدواتها بسيطة: الوعي العفوي أو الطوعي للجماهير الشعبية والحقائق المعرفية الأكثر سهولة في الوصول إليها، مثل "الوحدة قوة"، "الخير ينتصر دائمًا في النهاية"، "أبانا الذي [في السماء] [ينجي]" لنا من الشر! "... إلخ.

باختصار، وفقاً للرأي السائد في المجالات الاجتماعية والثقافية الدنيا وأحيانًا العليا، فإن نشأة الربيع العربي ستكون واضحة ومعقولة تمامًا، حيث إن التسلسل الزمني المتفق عليه يضعه في أي تاريخ (١٧ كانون الأول ٢٠١٠)، في عام ٢٠١٠. مدينة تونسية عادية (سيدي بوزيد)، حيث كان التاريخ والجغرافيا محميين من كل المكائد الداخلية و/أو الخارجية. وستكون أخلاقها منطقية وقوية من خلال ترسيخها في النزعة الإنسانية المتجذرة والمقبولة بشكل عام. سيتم إثبات تفسيره، وذلك بفضل التجريبية التاريخية التي يهدف اسم الربيع printemps " ٧ " إلى حمايتها من أي تفسير متحفظ أو مشبوه تمامًا.

ولنعترف بأن المظاهر تحرم الرجل الصادق من كل مصداقية، إذا كانت لديه الجرأة على المجادلة ضد الرأي السياسي العام واستخدام بعض الحكمة العقلانية، من أجل إعادة التفكير في الموضوع، ولو بمبدأ منهجي، أو بواجب المواطن. ولقد احترقت بما فيه الكفاية بالفعل، بسبب انتهاكات الشركات المصنعة للملابس الجاهزة التاريخية، والدجالين الإيديولوجيين charlatans idéologiques وكل ذلك. ومثل كثيرين غيرنا، يمكننا أن ندعي عدم ابتلاع الأفاعي والتمتع بحقنا في الشك، حتى لو كان ذلك يعني انتهاك المقدسات الثورية السائدة، وهو ما لا يعني بأي حال من الأحوال استيعاب جميع ثوار الربيع العربي فيهم، خرفان بانورج moutons de Panurge (تشير عبارة "خروف بانورج" إلى تابع: شخص يقلد دون طرح أسئلة، ويتبع بشكل غريزي ما يفعله معظم الناس. المترجم، نقلاً عن الانترنت).

سيكون الأمر مجرد مسألة عدم أخذ خطابات أولئك الذين أسقطوا قنبلتين ذريتين على المدنيين في عام ١٩٤٥، والذين أوجدوا صدام أو بن لادن أو البغدادي، في ظاهرها، لاستخدامهم ضد شعوبهم، التي لم تتوقف عن تشكيل نفسها،وتاريخ وجغرافيا العالم بما يتناسب مع مصالحهم، على الأقل من اتفاقيات يالطا في عام ١٩٤٥ إلى غزو العراق وتدميره في عام ٢٠٠٣، بما في ذلك جميع المهازل الإمبريالية الأخرى التي لعبتها مسرحيات سيئة، في الشرق والغرب. ويمكننا أن ننضم إلى الحركات التمردية للجماهير التي تنهض وتنهض مرة أخرى، ضد النظام الظالم الذي أنشأه ودعمه وأدامه مشاركين العالم، وإنما من خلال مراقبة مسار الأحداث وأسلوبها. ولا يسعنا بعد ذلك إلا أن نسأل أنفسنا أسئلة حول التدخل المحتمل، لرجال الاستعراض في نشأة واتجاه وتتويج التمردات العربية.

وفيما يلي بعض سُبُل التأمل التي يمكن لأي شخص أن يتأمل فيها، في روحه وضميره، دون تأكيدات مسبقة، وبعيدًا عن أي تدخل بسبب العقيدة والخطابات الرسمية المنظمة والمقدمة مثل جميع العقائد:

لماذا لا يتردد بعض المفكرين المهمين والفاعلين الأساسيين في المشهد السياسي الثقافي في أمريكا (نعوم تشومسكي" ٨ "، مايكل مور" ٩ "...) أو في أوربا (هوبير فيدرين، كوهن بنديت، دومينيك دو فيلبان...) في شجْب العروض التنكرية التي تصوَّرها العظماء؟ وتنطبق على الكرة الأرضية، تحت غطاء شعارات متلألئة ومتغيرة الشكل، مثل «حق التدخل»، ومكافحة «الدول المارقة»، و«حق الشعوب في الحرية»، و«العولمة»، و«العالم الجديد». النظام"، "الربيع"؟

١- لماذا لا يُزهر هذا الربيع من جديد فصولَ شتاء الأنظمة العربية التي عفا عليها الزمن أكثر، في أغنى الدول الأكثر خضوعاً للغرب، مثل المملكة العربية السعودية أو قطر أو البحرين أو الكويت؟

٢- لماذا المحافظون (الإسلاميون عموماً) هم مَن ينتصرون على نحو لا يخلو من المفارقة، في حين كانت حركات التمرد العربية، في كل مرة، من صنع أغلبية من الشباب غير الملتزمين بالحداثة الغربية؟

٣-ولماذا انتفض الشباب حصراً دون أن يشرف عليهم زعماء إيديولوجيون، كما في كل الثورات الأصيلة، ولماذا سلَّموا أنفسهم بعد ذلك للفوضى والانهزامية، متنازلين عن حق انتفاضتهم للكبار، دون أن يطالبوا حقاً بالمحاسبة. ؟ " ١٠ "

ليس من إجابات جاهزة. لتطالب هذه الأسئلة بالحق في أن يتم قبولها على طاولة التأملات، وتكشف التحيزات والأشياء الشائعة التي يتم تناولها مرارًا وتكرارًا من قبل الحشود وكذلك من قبل بعض النخب. وفي نفس هذا السياق النقدي، دعونا نحاول تحليل بعض الأمور الشائعة المرتبطة بمسألة السلفية الدينية.

الوجه الخفي للفكر السلفي

إن الإيديولوجية السلفية التي تثقل كاهل الربيع العربي، ليست دينية وإسلامية حصراً. والبعض، بما في ذلك أولئك الذين يعملون في المجالات الراقية فكريًا، ثابتون في مواقف بديهية، ويجعلون الثورات مقدسة ولا يرون أنها لا تعاني من التقديس، أو سوء الفهم فيما يتعلق بالدوافع، والتي عادة ما تكون مبتذلة للغاية.

فالسلفية، كما تشير اللاحقة، تصطف مع كل التافهين الآخرين، لتأخذ مكانها في مشهد الدوغماتية الدائمة في العالم. ومن الناحية الأنثروبولوجية، هي ظاهرة طبيعية تمامًا ومتوقعة وشائعة، وهي مثل الفطْر، تتضمن سلفية مسمومة وأخرى "مستهلكة". ومن الناحية البنيوية، هي نظامية، أي إن لها نشأتها، وعقائدها، وأماكنها المشتركة، وصراعاتها، وتفاسيرها، ومبادئها. فهي في كل زمان وفي كل مكان. وبالمعنى اللاتيني، مجازيًا وبصرف النظر عن الفروق الدقيقة التخفيفية أو التحقيرية، لم تخلُ أي فترة من التاريخ من السلفيين، أي الرجال والجماعات البشرية أتْباع نظام من الأفكار والقيم الروحية والأخلاقية والفلسفية والاجتماعية، التي يسعون إلى فرضها بطريقة ما على أخرى (المسيحية، الماركسية، الفوضوية، وكل الأصوليات المعاصرة).

وباعتبارها نموذجًا للتطرف بأثر رجعي (التوجه نحو نموذج سابق)، فإن السلفية موجودة في كل مكان في تاريخ البشرية. وهكذا فإن ديمقراطية اليونان القديمة، المنقسمة إلى عبيد بشريين ورجال إلهيين، أعادت الإنسانية إلى أصولها الأسطورية؛ أعيد ربط الكلاسيكية الفرنسية بالعصور القديمة باعتبارها نموذجًا فريدًا لا يمكن تجاوزه؛ تدعي الأصولية البروتستانتية والمسيحية واليهودية والإسلامية ما يسمى بالأساسات الصلبة والصافية للديانات السماوية الثلاث ؛ ثمان وستون من الجماعاتية واللاسلطوية الحديثة تدعو إلى إحياء حالة الطبيعة، وما إلى ذلك. وفي كل من الأنظمة المذكورة هنا، يتم تجسيد المسعى الأخلاقي أو الجمالي أو الروحي أو أي شيء آخر في

العودة إلى الماضي، وقيامة الماضي، والمقصود منه الرد بشكل قاطع على التساؤلات الواعية وغير الواعية حول الحاضر والمستقبل.

وبالمعنى الدقيق للكلمة، السلفية هي أصولية دينية، وخاصة الإسلامية والعربية" ١١ ". ويعود تاريخها إلى أوائل العصور الوسطى" ١٢ " وشهدت نهضتين متتاليتين على الأقل، في أواخر العصور الوسطى" ١٣ " وفي بداية النهضة" ١٤ ". وأخيراً، فهي تعيش عصرَها الذهبي في عصرنا هذا، قبل وأثناء الثورات حيث انقسمت إلى عدة حركات موجودة بالفعل أو ناشئة، أشهرها الوهابية السعودية، والإخوان المسلمون في مصر، والإسلاموية الديمقراطية في تركيا، والإسلاموية الديمقراطية في تركيا. والجهادية التي يدعو إليها تنظيم داعش في سوريا والعراق، أو تنظيم القاعدة في أفغانستان والمغرب العربي.

فهي تصف بدقة، الثقافة العربية الإسلامية، وفي زمانيتها وتنظيمها واستراتيجياتها التي تتناوب بين الإرهاب والدعوة السلمية، وهي تشبه الأصولية الهندوسية (السيخ والحركات الأخرى)، بقدر ما تشبه الإيديولوجيات القومية بما في ذلك الفاشية. . وعندما تختار الإرهاب" ١٥ "، فإنها لا تختلف سوى في الكمّ عن الأساليب المتطرفة التي اتبعها النازيون، في ممارسة الحل النهائي على المرضى العقليين واليهود، أو عن الستالينية التي تصفي معارضيها جسديًا بمئات الآلاف.

ونحن متفقون على تعريف السلفية الإسلامية الآن بثلاثة عناصر:

١-عقيدة حِرَفية حيث يكون القرآن والسنة فقط مرجعيات لاهوتية ووسطاء للنموذج المجتمعي (الخلافة). وهذا ما يميزه جزئياً عن التشيع الإيراني على وجه الخصوص، والذي يقوم أيضاً على الولاء السياسي فقط لأحفاد الإمام علي باعتباره مؤسس الإمامة، بالإضافة إلى الاختلافات المذهبية المتعلقة بالله والعلاقة هنا أدناه. مع ما بعده.

٢- شمولية لا يتم فيها التمييز بين الروحاني والعلماني، وبالتالي لا يوجد فصل بين الدولة والدين. العلمانية والديمقراطية هي بالضرورة مُثُل الكفار.

٣-دوغمائية تفرض رقابة على حرية المعتقد والتعددية الديمقراطية والتسامح، وتذهب إلى حد استخدام العنف إذا لزم الأمر (الحرب المقدسة، وتلقين الجماهير، والقمع، والإعدامات بإجراءات موجزة) " ١٦ ".

وإذا نظرنا إليها من الخارج، أو من الداخل، بالمعنى الواسع أو الدقيق، فإن السلفية هي بالتالي تطرف إيديولوجي ذو جوهر محافظ ورجعي، لا يتوافق مع فكرة التقدم، إذ إنها مهووسة بماض مؤسس، بينما التقدم، المرتبط بالضرورة بأي عملية ثورية، هو تقدم استشرافي ويركز على مفاهيم الانشقاق والتمزق والإبداع. إنها مفارقة تاريخية ثقافياً، لأن الحضارة الإنسانية وصلت الآن إلى قمة منحنى صاعد، مما أدى من حيث المبدأ إلى القضاء على أي شكل من أشكال الوسطية (جغرافية أو كونية أو عرقية أو غير ذلك). إنها غير قابلة للعيش من الناحية الإنسانية لأنها تضحي بالفرد من

أجل الجماهير المتلقنة، والواقع من أجل الفكرة والملازمة للتعالي، وهي بالضبط نقيض الحداثة، حيث من المفترض أن يكون الرجال متساوين وغير مدينين لأي خضوع جماعي، باستثناء القانون والقوانين الوضعية.

ويعرّف التحليل النفسي ظاهرة التطرف عموماً (التجاوزات بكافة أنواعها) بأنها تسامٍ نافع أو شرير للاوعي الفردي أو الجماعي، إذ تنحني النفس والعقل والجسد تحت تأثير القلق الوجودي. وعلى هذا النحو، فإن الغنوصيين المتعصبين مثل الملحدين العنيدين، والعقائديين في كل العصور والأماكن، والطائفيين، وأساتذة الكنائس... سيكونون مرضى يجب تصورهم ومعاملتهم على هذا النحو.

وخلافاً للعقيدة والتدين الفرديين، اللذين ينطويان على علاقة بين الإنسان والله، دون أي اضطهاد منهجي يمارس على الآخرين، فإن السلفية التي عادت إلى الظهور من تحت أنقاض الثورات العربية ستكون بالتالي مرضاً يمكن علاجه، لكنه لا يشفى. فشلوا في تجربة عودة مفاجئة ومعدية، كما هو الحال مع أي آفة. والوقاية وحدها هي التي يمكن أن تحد من تطوره إلى وباء، أو حتى جائحة. وقد عرف العلاج المناسب في هذا المجال منذ ابن رشد" ١٧ " على الأقل، في الشرق، ومنذ فولتير في الغرب على الأقل، ومنذ الفضيل بن عاشور على الأقل في تونس. إنه يعتمد على لقاح (السبب) ومعايير صحية: التسامح ورفض الدوكسا.

ماذا عن هذا الجانب الأساسي الآخر من الثورات العربية، ألا وهو الجنس، المشبع أيضًا بتقديس خبيث؟

ثورة جنسية

هل يثور الشباب العربي لأنهم في البداية يتعرضون للقمع الجنسي؟ هذا يكفي لكسر الكهنوت العقلي sacerdoce mental بأكمله وإزالة الغموض عن الكثير من المواضيع السياسية، والتي يمكن حتى لأكثر الأشخاص اطلاعاً أن يربطوها بظاهرة الثورة! فالشباب العربي يرى في الواقع عرضاً للعري الفاتن والإباحة الجنسية على شاشات التلفاز، وصفحات المجلات المستوردة، وفي الساحات العامة التي يحتلها السياح الأشعث، لكنه يظل في معظم الأحيان أسيراً لتقاليد لا يستطيع أن يبيعها. تماما ولا مراعاة لهذه الرسالة. هل يقوّض الفصام حياة الفرد الحالية ويعرض مستقبله للخطر؟

إنه موضوع محيّر، يجب أن نعترف به، لأنه:

-إن المشهد الثوري العربي محصور بكل أنواع المحظورات، والأفكار المسبقة التي يروج لها كل الفاعلين. وليس فقط الجماهير غير المتعلمة أو حرّاس المعبد.

-الرأي في الغالب رجعي، وجبان، وجاهل بشكل عام، ويؤمن بما سيقوله الناس، والنميمة والشائعات، وليس بالعلم والعقلانية والنظام الاجتماعي والسياسي ذي الطابع الوضعي.

-يلتزم المتخصصون الصمت بشأن الحياة الجنسية خوفاً من الجنس، وهو المحرم الأول في العالم العربي، لأنهم ليسوا بالضرورة رجالاً منخرطين ثقافياً وسياسياً.

-سيبدو الشجعان منهم، الذين يغامرون بدخول هذا المجال من الانشقاق، وكأنهم يبشرون بالخيالية بذوق سيء ويخاطرون حتى بحياتهم الخاصة. ومن الأمثلة الصارخة " ١٨ " على ذلك فرج فودة في مصر وشكري بلعيد في تونس.

ومع ذلك، فإن الأشخاص الغاضبين المعمَّمين، وكذلك الأشخاص المبتذلين الذين يتم تلقينهم الخطابات الصحيحة، وترهيبهم الرقابة والمطلعين المقنعين ولكن الجبناء، سيستفيدون جميعًا من إلقاء نظرة فاحصة. وربما تكون الثورة (على الأرجح؟) نوعًا من الدافع الشهواني الذي يجب تحديده والتعبير عنه وتذوقه وتخزينه على هذا النحو، ولكنه على وشك أن يصبح محنة خصاء قاسية cruelle épreuve de castration.

لذا فإن الثورات العربية التي تتجلى في تدافع مرعب، وإحراق، وعواء، ومعارك بالأيدي، وسلب الممتلكات، وخدوش، وجروح، وقتل الأبوين، وقتل الملوك، وقتل الأخوة وغيرها من الاشتباكات التراكمية المتكررة، في تصعيد تطوله حمّى الهضبة، ثم تتوج بحمى الهضبة. وانفجار نزْفي ومبهج في الوقت نفسه... لا يمكن إلا أن يجعل المرء يفكر في المشهد الجنسي.

لقد قيل وتكررَ إلى حد الإفراط في استخدام نظرية التحليل النفسي: الإيروس" دافع الحياة- المترجم " هو دائمًا ملَاكنا الحامي، حتى عندما يكون ثاناتوس" دافع الموت- المترجم " منتشرًا، كما هو الحال في معارك المصارعين والملاكمين والمبارزين. وللموت شيء شهواني، والإيروس يحمل في داخله عنصرًا مميتًا. علاوة على ذلك، وإذا كان لا يزال يتعين علينا أن نحاول التغلب على التردد التفسيري في هذا المجال، فلنقل ببساطة أن الثورة، مثل الانفجار البركاني أو الإعصار أو الزلزال أو الرعاف l'épistaxis " ١٩ "، تنتج عن ضغط (اضطهاد) إلى درجة أنه يتطلب بالضرورة انفجارًا مبهجًا بقدر ما هو محزن، وعلى أي حال، فهو متناقض في طابعه الذي هو بالضرورة عنيف وغير فعال.

والبلد الذي قام بثورته لأول مرة (فرنسا عام ١٧٨٩، روسيا البلشفية عام ١٩١٧، بولندا التضامن عام ١٩٨٩، تونس في ١٤ كانون الثاني ٢٠١١، مصر في ٢٥ كانون الثاني ٢٠١١، ليبيا في ١٧ شباط ٢٠١١...) يستذكر، على نطاق المجموعة، هي المرحلة الليبيدية الحاسمة حيث يكتشف جسد فرد ما سن البلوغ، في الحيض أو النشوة الجنسية. في تاريخ بلد شهد بالفعل المصفوفة العنيفة والممتعة لانتقاله من الطفولة (الخضوع) إلى المراهقة (الحرية)، فإن الثورات التي تلي الثورة الأولى ستكون معادلة للممارسة المتكررة لمصفوفة الشبقية، والثورة. يصبح الهيكل راسخًا ويتم التعرف على السببية وحق الانتفاع بها. هذه هي حالة ٦٨ أيار/ مايو في فرنسا، أو الغلاسنوست"

الشفافية- المترجم " في روسيا ١٩٨٩، اللتين تكرران عامي ١٧٨٩ و١٩١٧ على التوالي، ولكن بشكل مختلف.

وكما هو الحال في التاريخ الجنسي للأفراد، فإن ثورة المجتمع (في هذه الحالة الربيع العربي)، التي تم تصورها وقبولها على أنها اكتشاف وحشي لقوتها الشهوانية الجماعية، يمكن أن تجلب شعبًا إلى مرحلة النضج، والتمكين والسيطرة على الخصوبة. وإمكانات ممتعة. منذ ٦٨ أيار، تم تحويل فرنسا وترقيتها إلى دور القائد في التحرر الجنسي والاقتصادي والفكري، داخل أوربا الخجولة إلى حد ما، ولكنها الآن مُغوية وميالة إلى التصرف مثل تكريس سلوك مثمر شبيه بالقرد. تنتشر الأجساد والأشياء دون عوائق، وترتفع الحياة الجنسية، ويتم عرضها والاحتفاء بها" ٢٠ "، على الرغم من الإدامة المؤسفة لغريزة الاستيلاء الأولي على الأشياء والأجساد، من خلال الدعارة، وتجارة الرقيق الأبيض، والولع الجنسي بالأطفال، والمواد الإباحية.

وينطبق الشيء نفسه على روسيا بعد البيريسترويكا: نمو الاقتصاد الروسي وتأكيده في السوق العالمية، وانبعاث النموذج القيصري في ظل فلاديمير بوتين الذي يبدو وكأنه سلافي قوي ومنتصر، ولكن ليس من دون أضرار جانبية، لا يمكن فصلها عن أي فوضى وفياضة. الرغبة الجنسية، مثل إفقار العمال والفلاحين، أو تطور الانحراف والإرهاب. وبالمثل، إذا كان الانتقال إلى المراهقة والممارسة الحرة للقوة الجنسية، في مواضيع معينة، يمكن أن يتطور في اتجاه الاغتراب مثل العجز الجنسي أو البرود الجنسي أو العصاب، فإن الثورة لا تؤدي بالضرورة إلى التحرر في جميع الاتجاهات. كانت الانتفاضة الإيرانية، التي أطاحت بالشاه وتوجت آيات الله على رأس البلاد (١٩٧٩)، في البداية بمثابة تأليه للشعب. انهرت بانفجار التمرد، وسقوط الدكتاتورية وبناء القلاع في إسبانيا في المستقبل، وسرعان ما أصيبت بخيبة أمل بسبب الاتجاه الجديد. في الواقع، صادرت الدوغمائية الإسلامية العقول والأجساد، وحصرت الجنسين وقننت الخطاب بشكل صارم. إن الثورة الإيرانية، خاصة في بداية الألفية الجديدة، تشبه العودة إلى المرحلة الشفهية، بعد أن اعتقد الثوار أنهم تجاوزوا المرحلة الأوديبية، بتحريم الملك محمد رضا بهلوي، وهو تحريم يعادل تحريمه. تنفيذ رمزي.

خاتمة

ماذا سيحدث في البلدان العربية التي هزها الربيع، ولكنها في الوقت نفسه هي عالقة في المحافظة التقليدية بقدر ما هي في موضوع الثورة؟ ومع استخدام السلفيين كأدوات (من المحتمل جدًا أن يتم التلاعب بهم من قبل ما يسمى بالإسلاميين المعتدلين، في الداخل، ومن قبل الأعداء الأبديين للعرب والإسلام، في الخارج)، ومع الاستقطاب التدريجي والممنهج للمناقشات والخطاب المحافظ بين الإسلاميين والعلمانيين، فإن المؤمنين والملحدين واليمينيين والتقدميين، عودة ظهور علامات

معينة، موضوعها ليس فقط الثقافة والدين، بل أيضا الجسد والجنس، وخاصة الحياة الجنسية الأنثوية (النقاب والختان وتعدد الزوجات والزواج أوفي...) " ٢١ "، يجب علينا نتوقع أسوأ الانحدار.

لن تكون "الثورات العربية" طقس عبور من الأقلية المتشددة إلى الأغلبية المتناقضة، أشبه بالانتقال من البلوغ إلى الشباب في حياة الفرد، بل نقل الوصاية بين حكومة مافيوقراطية وحكومة دينية، كما لو أن تونس ومصر وليبيا واليمن... كانت تلك الفتيات العربيات العازبات، اللاتي تحررن من السلطة الأبوية التقليدية من خلال الزواج وتم تسليمهن إلى الهيمنة القضيبية للزوج. لم نكن لنغادر النزل لأننا لن نتحرر من قوالب الرأي doxas.

إن الخاسر الأكبر هو الشباب الذي قاد الثورات وحققها. لقد كانت تنوي التصرف بجسدها وعقلها وممتلكاتها وخطاباتها، في إطار رفض العقيدة والخلاص الديمقراطي، ولكن إذا استمرت مصادرة حرياتها، فستجد نفسها محكوم عليها بالموت الأكثر رعبا. المصائر الاجتماعية والسياسية والجنسية، وهي مصائر المخصيين.

مصادر وإشارات

١-في اللغة الفلسفية، تشير صفة endoxal إلى doxa (الرأي الحالي).

٢-ويبقى أنه من بين الخيارات المقدمة للفكر الاجتماعي والسياسي بشكل عام، يظل النموذج الديمقراطي والجمهوري الحديث، المستند أيضًا إلى عقيدة كلية أساسية (قدسية الحريات الفردية)، هو الأقل قابلية للانتقاد، والأقل تعسفًا، والأكثر تعرضًا للانتقاد. وعلى هذا النحو، فإنه سيخدم الثوار العرب الأصيلين كإطار إيديولوجي وجدالي، لحماية أنفسهم من أي توجه قمعي آخر، قائم على الصور النمطية والأيديولوجية المسبقة.

٣-في مصر وتونس، أظهر الإخوان المسلمون وحزب النهضة حدودهم في ممارسة السلطة السياسية. الأول تم التخلي عنه من خلال تحالف ذكي بين الشارع والجيش. ومن جانبهم، انتهى الأمر برجال الدين التونسيين بالتخلي عن الحكومة من خلال العمل المشترك للمجتمع المدني والمعارضة.

٤- شخصية قيادية وأحد مؤسسي حركة النهضة، تعرض لاعتداءات لفظية وجسدية عدة مرات خلال الثورة من قبل الأصوليين التونسيين.

٥-لا تزال أمثلة المواجهات العنيفة، التي وقعت خلال عام ٢٠١٢، بين الطلاب السلفيين وغيرهم من ذوي التوجهات التقدمية، في جامعتي القاهرة (مصر) ومنوبة (تونس) قائمة.

٦-وحتى عند استعادة السلطة من أيدي الإخوان المسلمين في مصر، اكتفى الجيش باعتقال القادة، وقبل ذلك، ضمن دعم الشوارع علنًا. وفي تونس، قال علي العريض، الرئيس السابق لحكومة الترويكا: سيعترف بأنه أمر بانسحاب الشرطة من محيط مسجد الفتح الذي كان يتواجد فيه زعيم التنظيم السلفي أو عياش، للسماح للأخير بالفرار.

٧-بالإشارة إلى ربيع براغ عام ١٩٦٨ أو ربيع الشعب عام ١٨٤٨.

٨-الجانب السفلي من سياسة العم سام ،المجتمع البيئي Écosociété،/ ٩-١١/ ١٩٩٦: تشريح جثة الإرهاب، الأفعى ذات الريش ،٢٠٠١. /تشريح جثة الإرهاب. هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١ والنظام العالمي، العذاب ٢٠١١.

٩-فهرنهايت ٩/١١ فيلم أُنتج عام ٢٠٠٤.

١٠-على الرغم من المظاهر، فإن الشباب المتمرد في تونس، في الواقع، سرعان ما أفسح المجال للأحزاب التي عادت إلى الظهور من سباتها؛ وفي مصر، تم التلاعب بها منذ البداية من قبل الجيش لاستعادة السلطة، وفي ليبيا، كان الأمر أسوأ، حيث تم تجنيد الشباب في حروب عشائرية، والطعم هو وهم القوة العسكرية، والحرية المطلقة، والفوضى.

١١-يشير جذر السلف باللغة العربية إلى النسب الذي يعود إلى النبي محمد.

١٢-أحمد بن حنبل، القرن التاسع.

١٣-ابن تيمية،القرن١٤م.

١٤-محمد بن عبد الوهاب القرن ١٨ .

١٥-كما حدث في الإبادة الجماعية في الجزائر في التسعينيات، أو هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١، أو الانتهاكات الحالية لتنظيم داعش.

١٦-إن الفظائع الدموية الأخيرة التي ارتكبها تنظيم داعش (الدولة الإسلامية) في الشرق تتحدث كثيرًا عن هذا التعصب.

١٧-الاسم المستعار ابن رشد.

١٨-اغتيل على التوالي على يد أصوليين في حزيران ١٩٩٢ وشباط ٢٠١٣.

١٩-كلمة فنية لنزيف الأنف.

٢٠- ف. رايش، الثورة الجنسية، باريس، كريستيان بورجوا، ١٩٩٣.

٢١-العرفي.

الكاتب

علي العباسي، جامعة منوبة (تونس)

*-Sacré et révolutions : aspects de la doxa du printemps arabe

Salafisme, utopisme et sexualité

من ملف: خيال المقدس L'IMAGINAIRE DU SACRÉ (تحرير: أنييس ليرميت، إليزابيث ماجني)

قواعد النشر

مجلة رابطة الكتاب السوريين
E-Mail:awraq@syrianwa.net

"قواعد النشر في مجلة أوراق"

ترحب مجلة أوراق بإسهامات المفكرين والكتاب والادباء والباحثين في الاتجاهات الثقافية الفكرية والسياسية إضافة للنقد والإبداع والترجمة، وتقتصر شروط النشر في المجلة على النقاط التالية:

- أن تكون المساهمات المرسلة غير منشورة سابقا.

- أن تخلو المادة من أي إساءة لأشخاص بعينهم، وألا تتعرض لقضايا شخصية، كتصفية حسابات أو تجريح خارج سياق الموضوع.

- أن تكون المواد المرسلة بصيغة ملف وورد منسّق، وتعتذر هيئة التحرير عن الملفات المرسلة كنص عبر الهاتف أو تنسيقات أخرى غير الوورد.

- نأمل من الزملاء في الدراسات الموثقة بمصادر ومراجع أن يلتزم المساهمون بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان النشر وتاريخه واسم الناشر، وفي حالة الاحالة الى مجلات يذكر اسم كاتب المقالة وعنوانها ورقم العدد وتاريخه ورقم الصفحة.

- ألا يزيد حجم الدراسة او البحث عن خمسة آلاف كلمة إلا باتفاق سابق مع ادارة تحرير المجلة، ويفضل ارفاق الدراسة بملخص صغير عنها لا يتجاوز ٥٠ كلمة.

- ألا يزيد حجم مراجعات الكتب عن ١٥٠٠ كلمة ويدوّن في أسفل المراجعة عنوان الكتاب واسم مؤلّفه ومكان نشره وتاريخه وعدد الصفحات.

- يرفق مع كل دراسة أو مقالة أو نص تعريف بالكاتب وعمله الحالي.

- نرجو أيضا إرفاق صورة شخصية للكاتب/ة أو صورة أو أكثر تتعلق بموضوع المادة.

- لا تعاد المواد المعتذر عن نشرها إلى أصحابها.

- يجري إعلام الكاتب بقرار هيئة التحرير خلال شهر من تاريخ تسلم النص.

- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص المجازة للنشر وفق خطتها التحريرية.

- تلتزم المجلة بنشر كل المواضيع التي توافق عليها هيئة التحرير والتي تستوفي معايير النشر الموضوعية (بالنسبة للدراسات) أو الابداعية (بالنسبة للنصوص الادبية).

- تستلم المجلة النصوص مطبوعة على بريدها الالكتروني:

awraq@syrianwa.net

ونشكر تعاون جميع الزملاء والأصدقاء الكتاب والمثقفين وأعضاء الرابطة في هذا الصدد.

هيئة التحرير: ٣٠/ ٤/ ٢٠٢٥